مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الإسراء

أ . د . خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الإسراء

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة الإسراء بتمجيد ذاته العظيمة الكريمة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ وفي ذلك تنبيه المخاطب إلى عظمة الله تعالى، وعظمة ما سيذكره عَزَّ وجل في شأن الإسراء، وما يجب له تبارك وتعالى على عباده من التسبيح والتنزيه، ثم ذكر عَزَّ وجل رِفعَة وعلو منزلة من أُسري به، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فقد بدأ استهلال ومنطلق السورة المباركة بتعظيم الله تبارك وتعالى لذاته وشأنه ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ وهي تعني التزيه عن كل نقص وعيب، وقد استوفى جَلَّ جلاله كمال الصفات، وجليل القدر، وعظيم القدرة، وانفرد بها دون سواه، فإنه القادر على كل شيء. ومنها الإسراء بعبده ورسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ فقد أسرى بعبده ليلاً ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ فحدد تبارك وتعالى بداية انطلاقة الإسراء، بأنها ليلاً، لتعبر عن الوقت، دون تحديد وتعيين في أي وقت من الليل، ليفيد في جزء من الليل، ليتقرر به أنه وقتاً يسيراً من الليل، والإسراء لا يكون إلا ليلاً، ومع ذلك ورد التنصيص عليه بالإسراء الذي لا يكون إلا ليلاً، ليتأكد ويتبين أن لذِكر الليل غاية في البيان، نقل الشوكاني رحمه الله تعالى أنه: فقيل أراد بقوله ﴿ لَيْلًا ﴾ تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام، مسافة أربعين ليلة، ووجه دلالة ليلاً تفيد تقليل المدة، وكونها في سياق النكرة أفادت التبعيض، بخلاف

ما إذا قلت: سريت الليل، فإنه يفيد استيعاب الليل جميعاً[١] وفي ذلك لفت الانتباه إلى وجه من الإعجاز، بأنه في وقت قصير ويسير.

ومن دقائق البيان أن الله تبارك وتعالى أضاف الإسراء بعبده له مباشرة ﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أجرى الإسراء، ليفيد كمال العناية، وكمال الاحتفاء، بل ومن مزيد الاحتفاء قوله تعالى ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ لما تدل عليه دلالة العبودية من الخضوع والتذلل والطاعة منه صلى الله عليه وسلم لربه جَلَّ في علاه، وكذلك نِسْبَة التشريف للنبي صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى بأن عَرَّفَه وعَيَّنَه بالعبودية، فَنَسَبَهُ إليه ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ فإنه التكريم بالإضافة، وبالإعجاز في فعل الإسراء، والإعجاز في البيان، ودلائله التي لا تنتهي لمن تقصاها.

ثم حدد تبارك وتعالى مكان المنطلق ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهو بيت الله العتيق بمكة حرسها الله تعالى، والذي مركزه الكعبة المشرفة، ثم حدد المكان الأول من الإسراء ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ وهو بيت المقدس الذي بارك الله تعالى فيه، بزيادة الخير والفضل في المكان، وما حوله، ومن ذلك الزروع والثمار والأنهار، وغيرها من عموم البركات. فكلمة ﴿حَوۡلَهُۥ﴾ تدل على أطرافه ونواحيه التي تحيط به. وفي هذا دلالة على بركة المسجد الأقصى، وبركة ما حوله، وفضل الصلاة فيه، فإن مقتضى امتداد البركة إلى ما حوله دلالة على بركته التي امتدت إلى ما حوله. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هو بيت المقدس الذي في إيلياء، معدن الأنبياء، من لدن إبراهيم الخليل، ولهذا جُمِعُوا له هناك كلهم، فأمهم في دارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه، وعليهم أجمعين[٢] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه قيل له: الأقصى لِبُعد المسافة بين المسجدين[٣] وقال الطبري رحمه الله تعالى: لأنه أبعد المساجد التي تُزَار، ويُبتَغى في زيارته الفضل[٤] وفيه إظهار البعد المكاني، والذي يحتاج إلى وقت طويل لبلوغه، وفي هذا إظهار للمعجزة الربانية، مع التدرج في الإعلام والإخبار إلى ما هو أعظم، وهو المعراج إلى السماء. لأن في إخبار الناس بالعلامات الدالة على صدق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، تجعلهم

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٠٦/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٥)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٠/١٤)

يستوعبون رحلة المعراج إلى السماء. وكذلك لأن الإسراء إلى المسجد الأقصى فيه التدرج وقطع المفاجأة. وقد بينت الأحاديث النبوية تفاصيل الإسراء والمعراج.

ثم يبين الله تبارك وتعالى الهدف والغاية من الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فعلة الإسراء ليشاهد عليه الصلاة والسلام شيئاً من عجائب قدرة الله تعالى، وآياته العظيمة الدالة على وحدانية الله عَزَّ وجل، وأنه رب كل شيء ومالكه، فإن ﴿مِنْ﴾ تفيد التبعيض، أي: أراه شيئا، وليس كل شيء من آيات الله تعالى التي لا يحيط بها إلا الله عَزّ وجل، وفي ذلك هذا تعظيم لآيات الله تعالى وكثرتها.

ثم يخبر الله تعالى عن ذاته الكريمة، وإحاطته بكل شيء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فإن الله تعالى هو السميع لأقوال عباده، ولكل صوت من مخلوقاته. وكذلك هو ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴾ بهم، الذي لا يغيب عنه شيء منهم، ومن حالهم، فيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير للمشركين مما يخوضون فيه من الباطل، فإنه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، فلا يعزب عنه علم شيء، بل هو محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ حصر كمال عموم السمع والبصر له تبارك وتعالى. فإن ربكم فقط هو الذي أحاط بكل شيء سمعاً ورؤية. لذي يسمع كل شيء، وكل صوت من مخلوقاته، ومنها أقوال عباده، وما يكون بينهم، وما يتَخَفَّون به عن غيرهم، وما يناجي المؤمن به ربه، أو يخافت به غيره. وكذلك الذي لا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه، على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس.

وأفاد السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو السميع البصير لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره أبداً. فبدأ البيان بنون التوكيد الملتصقة بضمير الجلالة ﴿إِنَّهُۥ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم تلاها اسم الإشارة ﴿هُوَ ﴾ فإن الله تعالى هو فقط لا غيره ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الذي أحاط بكل شيء علماً بالسمع والبصر، وما يتبع ذلك من القدرة وكمال المشيئة. فأفادت جملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ قصر كمال السمع وكمال الرؤية له عَزَّ وجل، وليس لغيره من المخلوقات، فهو المتفرد بذلك.

ثم يذكر الله تعالى المزيد من امتنانه، فكما امتن سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة والإسراء، والقرآن العظيم، ليكون هداية للناس، فقد امتن من قبله على نبيه ورسوله موسى عليه السلام بالكتاب الذي جعله الله تعالى هدى لبني إسرائيل ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ ليستدل به المخاطبون على صدق نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن حق، والإسراء حق، فلماذا تستنكرون على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ما أُنزل عليه، وما يخبركم به، وهو الذي بعث موسى عليه السلام من قبل ذلك بالنبوة والرسالة، وأنزل إليه الكتاب الذي كان هدى لبني إسرائيل، وأمره بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، فكذلك هو الذي أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم، وعرج به إلى السماء. وهو الذي أنزل عليه القرآن، وأمركم بتوحيد الله تعالى بالعبادة.

وفي هذا تدرج في الانتقال من موضوع لآخر، بأعلى درجات السلاسة، وغاية في الترابط عند الانتقال من تدبير إلى تدبير، ليظهر الإعجاز البياني بكل دقة ووضوح، ويظهر كذلك دقة وبراعة التعليم والتوضيح بالقياس والمماثلة ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فقد آتينا موسى التوراة، التي هي الكتاب الذي فيه هداية لبني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وفي هذا التخصيص بالتنصيص على بني إسرائيل، ما يدل على أنهم هم المعنيون بما جاءهم به موسى عليه السلام، فهم المكلفون به. فآتينا موسى الكتاب لهداية بني إسرائيل ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ لئلا يتخذوا من دون الله تعالى ولياً ولا نصيراً، ولا كفيلاً في أمورهم. ولا معبوداً من دون الله عَزَّ وجل. فعليهم توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، والتوكل عليه. فكل شيء هو دون الله عَزَّ وجل.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى بيان ما امتن الله تعالى به على نوح عليه الصلاة والسلام ومَن نجاهم معه، وعلى سلالة الناجين في سفينة نوح عليه السلام، التي أمره الله تعالى أن يصنعها ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ وفي ذلك تنبيه لما امتن الله تعالى به عليهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عيكم، بإرسالي إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم[١] وفيه تنويه بشأن ومنزلة عبادة نوح عليه السلام، وما تميز به من الشكر لله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فقد وصف الله تبارك وتعالى نوحاً عليه الصلاة والسلام بالعبودية، فهو متعبد لله تعالى، مخلصاً له الدين، كما وصفه ونعته

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٧/٣)

بصفة الشكر، فكان مبالغاً في شكره لله تعالى، فهو شديد الشكر. مما يدل على فضيلة الشكر، إذ خصها بالإفراد من بين جميع العبادات، وأنها كانت ميزة ومنقبة قد تميز بها نوح عليه السلام.

ومن جميل الاستنتاج ما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه عني بالذرية جميع من احتج عليه جلَّ ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم، عربهم وعجمهم، من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أن كلَّ من على الأرض من بني آدم، فهم من ذرية من حَمَلَهُ اللهُ مع نوح في السفينة(١) ويحتمل البيان كذلك أن المقصود بهم بني إسرائيل على وجه الخصوص، كما رجحه الشوكاني رحمه الله تعالى، فقال: والمراد بالذرية هنا جميع من في الأرض، لأنهم من ذرية من كان في السفينة، وقيل موسى وقومه من بني إسرائيل، وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء(٢) وهاتان الدلالتان لا تضارب بينهما، فأوجه الدلالة تتفق ولا تتضاد، فيكون المعنى لجميع الناس، باعتبار عموم السياق، ويشمل كذلك التخصيص بني اسرائيل باعتبار الآية التي قبلها في شأن موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل، وهذه من غزارة البيان القرآني، وإعجازه في شموليته لعدد من الدلالات بنص واحد، من غير تكرار. فهو حث على طاعة الله تعالى من خلال تذكيرهم بما أنعم الله عَزَّ وجل عليهم من إنجاء آبائهم من الغرق.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

يخبر الله تعالى بعلمه عما سيكون من بني إسرائيل قبل أن يكون منهم، ليبين عظمته وسابق علمه بما سيكون قبل أن يكون ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وأعلمنا وأخبرنا بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم الإفساد بالمعاصي والبطر مرتين، ومجاوزتهم للحد في الاستعلاء والظلم والبطر، مما يدل على أنهم استعلوا واستكبروا عن طاعة الله تعالى. وبدأ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥١/١٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٠٨/٣)

البيان الكريم بقوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ بمعنى أعلمنا وأخبرنا، وليس بمعنى حكمنا عليهم، لأنه لو كان حكماً لكان السياق: وقضينا على بني إسرائيل، ولكن السياق ورد بحرف إلى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ﴾ الذي أفاد إليهم وليس عليهم. والقضاء فصل الأمر قولاً أو فعلاً، فهذا قضاء بالإعلام والفصل فيما سيكون منهم، لعلمه سبحانه وتعالى بما يكون، وما سيكون قبل أن يكون، فأخبرهم وأعلمهم بما هو غائب عنهم مما سيكون منهم، ليحذر من أراد أن يحذر ويتوقى، وليدرك العباد جلالة علم الله تعالى. فأخبر سبحانه وتعالى أنه أوضح لهم في التوراة ما سيقع منهم من فساد ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ والفساد: يقع على كل ما يخالف شريعة الله تعالى التي شرعها لهم في التوراة. وهذا الفساد مؤكد الوقوع حتى من خلال بنية الكلمة ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ فالنون تؤكد تحصيل الإفساد، وفي جملة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما يبين موطن الفساد وسعته، بالمعاصي، ومخالفة ما شرعه الله تعالى في التوراة، إلى درجة قتلهم الأنبياء، الأمر الذي يدل على عمق الفساد، وقوة البطر الذي وصلوا إليها، فقد وصل الفساد بهم إلى قتل الأنبياء، ليعطي دلالة على أن ما هو دونه أوسع وأكثر وقوعاً منهم، وأنهم قد تمادوا في ذلك حتى وصف الله تعالى سعة هذا الفساد بما يفيد التعميم ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وكلمة الأرض تعني عموم مساحة الأرض وأمكنتها، فأينما حلوا ونزلوا من الأرض، وتعني سعة فسادهم، سواء من حيث نوعه، أو من حيث امتداده، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الأسانيد، أن: أول الفساد، هو قتل زكريا، وقيل ليس زكريا بل هو: شعيبا. وأما ثاني الفساد هو قتل يحي بن زكريا[١] والعزم على قتل عيسى ابن مريم عليه السلام. وما أن يقع منهم الفساد إلا ويسلط الله تعالى عليهم من ينتقم منهم من الأعداء، مما يفيد أن في ذلك تحذيراً لهم من شر ما يقع منهم، وأن يلزموا طاعة الله تعالى، ولا يفسدوا في الأرض بالبطر والاستعلاء. وأن يعالجوا ذلك بالدعاء والتضرع والتوسل إلى الله تعالى بأن يعيذهم من شر ما أخبرهم به تبارك وتعالى، وأن يُكثروا من الطاعة، لعل الله تعالى يصرف عنهم ما سيكون منهم. لأن في إخبار الله تعالى لهم هو من استباق علم الله العزيز العليم لما سيكون قبل أن يكون.

ومن دقائق الوصف لحالهم أن جمع الله تعالى ذلك في قوله عَزَّ وجل عنهم ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فأخبر الله تعالى أنهم سيتمادون في الطغيان، متعالين فيه علواً كبيراً، فيحصل منهم الاستكبار عن طاعة الله تعالى. والاستعلاء والتكبر على الناس بالظلم والبغي، حتى يتجاوزون فيه إلى مرحلة المبالغة فيه،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٤٥٦-٤٦٩)

فتناها بهم الأمر إلى قتل الأنبياء. وقد وصف الله تعالى طغيانهم وتجبرهم بالعلو، وبالكبير ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ وفي هذا ما يفيد مبالغتهم مع تنبيههم إلى ما سيحدث منهم قبل حدوثه، لعلهم يتعظون ويستعيذون بالله تعالى من ذلك، ولكنهم لم يتعظوا بما جاءهم من العلم. وهذا البيان من الله تعالى يبين سعة علم الله العزيز العليم، بما يكون وبما سيكون قبل أن يكون. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا ويهدينا ويصلح شأننا كله.

ويستمر البيان القرآني الكريم في توضيح ما سيكون من بني إسرائيل، وما سيكون عليهم ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ فيخبر الله تبارك وتعالى أنه إذا حان وقت إفسادهم الأول ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أي: موعد إفسادهم الأول، بالتطاول والاستعلاء على غيرهم بطراً وأشراً ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ سيعاقبهم الله تعالى في الدنيا، بأن يبعث عباداً أشداء، لهم قوة في الحرب والبطش عند اللقاء، وهم جالوت وجنوده، فكان بأسهم شديداً عليهم ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ فقاتلوهم خلال منازلهم وديارهم، أي: بين بيوتهم، فيقتلون من يظفرون به، ويطوفون متلمسين لمن بقي منهم ممن لم يُقتل، لقتله والقضاء عليه.

وقد صورت جملة ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ حركة العدو، فإنه من قوتهم وشدتهم أنهم يطوفون بين منازلهم، وبين ديارهم، ذاهبين آيبين، قتلاً فيهم، وإذلالاً لهم، وبحثاً عمن لم يُقتل لقتله، لأن الجوس طلب الشيء باستقصاء دقيق، فيطلبونهم بطريقة الاستقصاء والتحري الدقيق، فيقتلونهم ذهاباً وإياباً.

وفي هذا إنذار، وبيان لحقائق سوف تقع منهم، وعقوبة تقع عليهم، فكان الواجب عليهم توخي ذلك بالتضرع إلى الله تعالى، عسى أن يدفع عنهم ما أخبرهم به تبارك وتعالى، فلا عاصم من الله تعالى إلا هو جَلَّ في علاه. وفيه دروس عن الظلم والبطر، وعاقبتها، وأن الله تعالى يسلط على من استبطر على غيره بمن هو أقوى منه، فلا يحسبن القوي بقوته أنه لا قوة أقوى منه، فإن بطش الله تعالى شديد. ثم يؤكد الله تبارك وتعالى وقوع ذلك عليهم لا محالة ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ أي وعداً كائناً لا محالة، فلا بد من العقوبة، لوجود أسبابها منهم، الموجبة لوقوعها عليهم. وهو العلو والاستعلاء بالفساد. فهو وعد بتحقق العقوبة فيهم عليه، ويفيد ذلك أنه إنذار وتهديد لهم من أن يحصل منهم ما سيكون من الإفساد، فكان واجبهم توقي ذلك بالحذر والطاعة والتوسل والإنابة إلى الله تعالى، والتواضع في التعامل مع غيرهم.

ثم يخبر الله تعالى بفضله على من بقي من بني إسرائيل بعد أن سلط عليهم عباداً أولي بأس شديد، فجاسوا خلال ديارهم ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ ثم أرجعنا لكم وعليكم حال القوة التي تمكنكم من الظفر بمن جاسوا في دياركم قتلاً لكم وتدميراً، فجعل الرجعة والدولة لكم ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك حين قتل داود جالوت، وعاد الأمر والشأن إليهم، بل ومن مزيد فضل الله تعالى عليهم أن أغدق عليهم بالخير، بعد أن تابوا وأصلحوا ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ فرزقهم الله تعالى الأموال والبنين، بما يدل على كثرة النسل، حتى تكاثر عددهم، ومن دقائق البيان أن خص الله تعالى البنين بالذكر دون البنات، لاعتبار القوة والحرب والنصرة على الأعداء، بما يفيد أن التنصيص بالذكر هو بيان عمق التناسب بين العطاء ومقام الحاجة، وبيان موطن القوة التي يحتاجونها، بأنها كانت في جنس الرجال، للدفاع ومحاربة عدوهم، وكذلك فيه إظهار إبداع الترابط بين البنين وبين النفير ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي: أكثر رجالاً من عدوكم، إذ أن النفير هو العدد من الرجال، وكونهم أكثر نفيراً، ستكونون أكثر سرعة من عدوكم لكثرتكم. قال الفيومي رحمه الله تعالى: ونفروا إلى الشيء أسرعوا إليه[١]

والاستنفار حث القوم على الحرب. فأخبرهم الله تعالى بمزيد إنعامه وتفضله عليهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي جعلناكم أكثر قدرة على الحرب، بما أنعم عليكم من كثرة البنين الذين أصبحوا رجال حرب، مع كثرة الأموال التي تمكنكم مما تحتاجون إليه من آلة الحرب. مما يبين أن الله تعالى مع من تاب إليه وأطاعه، وأن التمكين من الله تعالى وحده لا شريك له، وأنه هو الذي يُمَكِّنُ مَن أراد بقدرته ومشيئته، وهو الذي يهزم ويخذل من يشاء بإرادته وقوته وقهره، كما يبين أن الله تعالى بالمرصاد لمن أفسد، فلا تغني عنه كثرته وماله شيئاً. وأن على المؤمن أن يحذر من أن يبطر على غيره بأي نعمة من نعم الله تعالى التي أنعم بها عليه، فإنه هو الذي أعطى ويعطي، وهو الذي يأخذ، وهو الذي يُعز ويذل، وأنه هو الذي يغني ويُفقر. فلزوم الطاعة لله تعالى والتواضع في كل حال من الأحوال التي يمر بها المؤمن واجبة، فلا يطغى بأي نعمة ينعم الله تعالى بها عليه، وهذا على مستوى الفرد، أو الجماعة، أو الأمة.

ومن سعة البيان أن كلمة التفضيل ﴿ أَكْثَرَ ﴾ تفيد كثرتهم عما كانوا عليه من قبل، وتشمل معنى أنكم أكثر من عدوكم، فحقق موقعها في السياق إصابة دلالتين صحيحتين، ومتوافقتين، فقد أصبحوا أكثر مما كانوا

---

(١) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٨٤٧/٢)

عليه، وأصبحوا أكثر من عدوهم. وهذا من الإعجاز البياني والبلاغي الذي تستوفي فيه الكلمة إيضاح أكثر من دلالة، ومن غير تكرار في الكلام.

ثم يُرشدهم الله تعالى إلى حقيقة أفعالهم وأقوالهم بأنها عائدة عليهم، إن شراً فشر، وإن خيراً فخير ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ فإن أحسنتم أفعالكم وأقوالكم على مراد الله تعالى ومنهجه القويم، فإن عائد ذلك وثمرته لكم، فإن ثوابه عائد إليكم، فأنتم المستفيدون من طاعتكم لا غيركم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ومن دقائق البيان وفوائده أنه تكرر فعل ﴿أَحْسَنتُمْ ﴾ مرتين، وذلك لإظهار الاهتمام بفعل الإحسان، وجاء هذا التوجيه مقروناً بالخيار في التزام الطاعة، أو التزام نهج الإساءة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي: وإن أسأتم في أفعالكم وأقوالكم فإن الضرر عائد عليكم ﴿فَلَهَا ﴾ أي: على أنفسكم. مما يبين أن الإنسان هو الذي يختار طريق الخير أو طريق الشر. والجزاء والعقاب يكون على ذلك. فلا يظلم الله تعالى أحداً أبداً.

ثم يعظهم الله تعالى بالعقوبة الثانية حال إفسادهم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي: فإذا حان وعد العقوبة الثانية إن حصل منكم الفساد بعثنا عليكم من تكون لكم منهم الإساءة من القهر والإذلال ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي بعثنا عليكم أعداءكم، فيهينوكم، ويقهرونكم، فيفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم، فتظهر آثارها على وجوهكم من قوة ما أصابكم من المهانة بسبب طغيانكم، أو من البطش والنكال، فجمع البيان الأمرين ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: فيدخلوا بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بمثل دخولهم في المرة الأولى، عندما جاسوا خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ فيخربوا ويدمروا كل ما ظهروا عليه، واستطاعوا تدميره، وأكد تبارك وتعالى التخريب والتدمير بكلمة ﴿تَتْبِيرًا ﴾ التي أفادت التأكيد، أي تأكيد التتبير، وهو التدمير والتخريب لكل ما علوا عليه واستطاعوا تدميره وإهلاكه.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

يُخبرُ اللهُ تبارك وتعالى بمنزلة ومكانة كتابه القرآن الكريم، وما فيه من الخير العظيم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ إن هذا القرآن العظيم يرشد الناس ويدلهم إلى خير الطرق وأفضلها، القويمة المستقيمة، التي لا عِوج فيها، وهو سبيل الله تعالى الذي يوصلهم إلى رضوانه وجناته التي لا سعادة أكمل منها، وكذلك متضمن للبشارة لكل من آمن وعمل بما أمر الله تعالى به، وانتهى عما نهى الله تعالى عنه، فإن لهؤلاء أجراً وثواباً عظيماً، لا يعلم مقداره وعظمته وكثرته إلا الله سبحانه وتعالى. وفي هذا التوجيه البياني من الله عَزَّ وجل لفت الانتباه إلى القرآن العظيم كآية وحجة من الله تعالى، من حيث دلالته التي لا يمكن أن تجد فيه إلا الهداية للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ وقد أكد تبارك وتعالى ما بينته هذه الآية بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ فكل ما في هذا القرآن مؤكد لا ريب فيه أنه يهدي للتي هي أقوم، ويبشر من حقق الإيمان وسلك مسلك الطاعة لله تعالى، بأن له الأجر العظيم.

فالقرآن الكريم يهدي بالإرشاد والتوضيح والإقناع للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي: الأفضل على الإطلاق، فليس لغيره ما للقرآن من القوامة والخيرية، لأن كلمة ﴿ أَقْوَمُ ﴾ اسم تفضيل، فتعطي دلالتها أنه الأعدل والأكمل الذي ليس هناك أعدل منه، ولا أكمل ولا أحسن منه، فمن بحث عن الأحسن في غيره ضل وتاه عن الحق والخير، وليفيد أن من سلك مسلك القرآن الكريم فقد استمسك بالأقوم، والأفضل والأحسن والأكمل، فينصلح حاله وشأنه، ويستقيم أمره، فيكون القرآن الكريم هو المرجع لكل ما يواجه في حياته، فلا يبحث عن الأفضل في غيره. فهو الذي يهدي إلى أعدل الطرق وأصوبها وأوضحها. فإن من إعجازه أن مضمون القرآن الكريم لا يتنافى مع التي هي أقوم، بل يحقق لمن أخذ به أقوم الهداية والتوفيق. وجملة ﴿ لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ تستجمع الأفضل في جميع ما يتعلق بحياة الإنسان: في مهنته، وفي بيته، ومع

مجتمعه، وفي بيعه وشرائه، وفي سلمه وحربه، وفي قضائه وحكمه، وفي إدارته وتعامله، فهي أوسع من أن تحصى، فالقرآن هو الأقوم في كل شيء، ولكل شيء.

وتضمنت الآية الكريمة أن القرآن الكريم بشارة ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فكما أن هذا القرآن هو هداية للناس أجمعين، فإنه كذلك بشارة، ولكنها خاصة لمن أخذ به، وهم المؤمنون ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو بيان يفيد تخصيص المحصلة، بعد عموم الهداية والدلالة التي للناس جميعاً، وبالتالي فإنه لعموم الناس هداية، ولمن أخذ به بشارة له، فمن أخذ وعمل به دخل في التخصيص ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويشترط لتحصيل البُشرى تنفيذ مضمونه، لأن الله تعالى جعل صفة المؤمنين: أنهم يعملون بمضمونه ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فصفة هؤلاء أنهم جمعوا بين الإيمان المتعلق بالتصديق القلبي وبين العمل بالصالحات، التي هي شريعة الله تعالى، ووصفها تبارك وتعالى بالصالحات ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنها خالية من كل ما يُضاد الصالحات، مما يبين أن هذا الدين هو دين صلاح، ودين الطيبات والصالحات، فهو خال من كل ما يفسد حياة الناس.

وورد العمل بالصالحات بصيغة المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ليفيد الاستمرار على نهج العمل بالصالحات، والالتزام بها حتى نهاية الحياة الدنيا، فإذا حقق الإنسان الإيمان مع عمل الصالحات سيكون له البشارة، التي هي ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فهي مثوبة مُتَّصِفة بحجم عظيم، من حيث كثرة التنوع والتعدد، ومن حيث الحجم، فليس لهذا الأجر مثيل، لأن الله تعالى وصفه بالحجم فقط ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ليدل على أنه لا يمكن أن تتخيله العقول من عظمته وكثرته، فالموعودون به، هم من حقق الإيمان، وعمل الصالحات، فلهم الجنة. وقد أكّد تبارك وتعالى تحقق ذلك لعباده بحرف التوكيد ﴿أَنَّ﴾ فهو أمر مؤكد، ومتحقق لا محالة، ولا مانع له، لأنه من الله تبارك وتعالى. بل حتى كلمة البشارة وردت بصيغة المضارع ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ التي تفيد استمرارية البشارة لكل من يعمل بذلك، جيلاً بعد، جيل، ودخولاً بعد دخول، ولحاقاً بعد لحاق.

ثم يخبر الله تعالى بجزاء من أعرض عن دينه القويم ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالذين لا يؤمنون بالآخرة أعد الله تعالى لهم عذاباً شديداً في إيلامه، والنار هي التي تستوفي العذاب الأليم. وقد خص سبحانه وتعالى المكذبين باليوم الآخر بالعذاب ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر، ليس له رجاء خارج الدنيا، وبالتالي فإنه لن يعمل

بالصالحات، لأن ليس له أمل خارج الدنيا، فهو يرى أن الحياة قاصرة ومحصورة فقط فيما قبل الموت، فلا حياة غير الحياة الدنيا التي يعيشها، وبتالي فإن هؤلاء المنكرين للبعث بعد الموت قد نقضوا جميع أركان الإيمان، فقد كذبوا بما تضمنه القرآن الكريم عن الآخرة، وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يخبر بالآخرة والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبالتالي كذبوا بالرسالة، وكذبوا بما جاء من عند الله تعالى. وهذا من دقائق التخصيص، لقوة معناها، ورحابة دلالتها في السياق، فيظهر الإعجاز البياني في تخصيص لفظة دون غيرها، لعمق ما تحمله من مفهوم في سياق الكلام. فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فقد أعد الله تعالى للمكذبين باليوم الآخر عذاباً موجعاً من شدته. وهو عذاب النار. وفي هذا ترهيب وإنذار ونهي وتحذير من العذاب الأليم، كما سبقه ترغيب إلى الطاعة والامتثال ليتحقق الثواب العظيم. فهو التوازن الذي يستثير النفس نحو الخير، والامتناع عن الشر بالترغيب وبالترهيب.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان شيئاً من خصائص هذا الإنسان، حتى يتنبه هذا المخلوق لهذه الخصائص، فيفهم نفسه على حقيقتها، فيُصلح من حاله، وفهمه عن ذاته، وعن غيره ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ فذكر تبارك وتعالى أن الإنسان بجنسه ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ليبين أن هاتين الصفتين هي للإنسان عموماً، بأنها حقيقة ذاته عندما يغضب ويتضجر، فعليه الحذر من جهله، بما علم عن هاتين الخصلتين المهلكتين، وهما الدعاء بالشر، والاستعجال للخير ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ فيدعو الإنسان، أي يطلب من الله تعالى حال غضبه إيقاع الشر على نفسه أو على أهله أو على ماله، بمثل ما يدعو ربه بالخير لنفسه ولأهله ولماله ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ﴾ فدعاؤه بالشر مماثل لدعائه بالخير، فيدعو بالشر بما لا يتمناه حقيقة، ولا يحب أن يستجيب الله تعالى له.

والصفة الثانية: الاستعجال ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ فهو يستعجل في تحقق ما دعا به، مما يدل على عدم تبصره بحكمة الله تعالى في التعجيل والتأخير، بل إن الإنسان مبالغ في استعجاله، لأن كلمة ﴿ عَجُولًا ﴾ تفيد المبالغة في تحقيق المراد، فهو يبالغ في استعجاله لما يطلب، ومن ذلك أنه يستعجل في الدعاء بالشر عند الغضب، كما يستعجل بالدعاء في طلب الخير. فليحذر من ذلك.

وهذا البيان يؤكد للإنسان أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، إذ يبين للإنسان نقصه، وحاجته لهذا القرآن الذي يُعلمه ويبصره بأقوم وأطيب وأحسن الأخلاق. وأن صلاح الإنسان هو في التمسك بهذا القرآن

العظيم، الذي يُعلم العبد كيف يعبد الله تعالى، وكيف يتأدب مع ربه عَزَّ وجل، وكيف يتصرف في حياته، بل ويكشف له حقيقة ذاته، ويُعرفه بها، ويحللها له تحليلاً دقيقاً، مع بيان المسلك الصحيح والقويم. وبالتالي فإن المؤمن بعد علمه وفهمه للقرآن العظيم يُمسك عن هذه الطبيعة، لفهمه بحقيقة الأمر، وفهمه لِمَا تَعَلَّم من آداب القرآن التي تهذبت بها نفسه. مما يبين مدى حاجة الإنسان وافتقاره لكتاب ربه تبارك وتعالى. ومن رحمة الله عَزَّ وجل أنه لو يعجل للإنسان الشر كما يعجل له الخير لهلك هذا الإنسان، وكان هلاكه لنفسه من نفسه، وليدرك مدى لطف الله تعالى به.

وفي هذا بيان تحليلي لسلوك الإنسان، ولجهله في تصرفاته، وحاله عند غضبه، وحاجته للتعليم الذي يهذب به أخلاقه في تعاملاته. وأن منهج القرآن الكريم يعلم الإنسان بطريقة الكشف للحقائق النفسية، والطبائع البشرية، وقدر جهله بها، مبيناً له مدى حاجته وافتقاره إلى منهج الله تعالى. لأن في تقرير الإنسان بعجزه وخطئه، ما يُشعره بنقصه المعرفي، وحاجته إلى من يكمله.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى التأمل في آية الليل والنهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ فإن الليل لوحده آية باهرة، وكذلك النهار آية باهرة لمن تأملها. فلا يتقدم أحدهما عن الآخر، ولا يتأخر أحدهما عن موعده، الأمر الذي يُظهر للعباد عظيم قدرة وتدبير الله تعالى، وأنه هو المسخر، وهو الخالق الذي لا رب سواه، ولا معبود بحق إلا هو جَلَّ جلاله، وأنه على كل شيء قدير. ليدرك الإنسان من هذا البيان أهمية أن يربط منظوره ومفهومه بتقدير الله تعالى للأمور، فكل شيء عنده بمقدار وزمن، لا يتقدم ولا يتأخر، فاستعجالك لن يُقدِّم شيئاً، وإنما أنت مُطَالب بالأسباب، وترك تقدير الأجل والزمن لتحصيل المطلوب على الله تعالى، فهو الأعلم بمصلحة العبد من نفسه. وهذا من وجه، وأما من وجه آخر فإن الله تعالى يبين بذلك دلائل قدرته، وعظيم تدبيره، الذي يقود إلى الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبكتابه القرآن الكريم، وبعموم ما جاء به عليه الصلاة والسلام، من خلال التأمل في آية الليل والنهار، وما فيهما من العبر.

فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ يخبر الله تعالى أنه جعل الليل والنهار علامتين، وهما: ظلام الليل ونور النهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ فإن الليل بذاته وبظلامه آية قائمة بذاتها، لما فيها من الظلام والهدوء والسكينة، والنجوم وحركتها، والقمر ومنازله، بظهوره وغيابه في زمن لا يتقدم ولا يتأخر. وكذلك النهار آية قائمة بذاتها، بنوره المشرق والمتدرج في ظهوره، والمتدرج في تلاشيه وغيابه، والشمس والظلال المتحركة، بامتدادها، ثم تناقصها حتى يصير ظل كل شيء تحته، وذلك عندما تكون الشمس في كبد السماء، ثم تعود الظلال في تمددها المعاكس والمضاد لما كانت عليه أول النهار حتى الزوال. فإنها آيتين مبهرتين، تدلان على أن هذا الخلق يسير وفق تقدير دقيق، لا يمكن أن

يكون إلا من خالق عظيم قدير، له الملك والحكم كله، وأنه رب كل شيء ومالكه. ومن عظيم البيان أن الإخبار من الله تعالى جاء بأسلوب التفخيم والتعظيم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ليرتبط ذلك ويقترن بعظمة الآيتين العظيمتين: آية الليل، وآية النهار. فإن ربكم هو الذي جعل الليل والنهار آيتين بهذا التدبير العظيم.

ثم يُخبر الله تعالى عن آية الليل ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فطمس الله تبارك وتعالى النور من الليل، ليكون مظلما، ولم يجعل القمر في الليل كالشمس في النهار من حيث قوة الضوء، ليبقى الليل خافتاً ومتدرجاً في ضوئه، بينما جعل آية النهار مبصرة ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فجعل تبارك وتعالى آية النهار مبصرة بنور الشمس، مخالفة لآية الليل، فهو وصف للنهار باعتبار حالته، بأنه مُبصر.

ومن دقائق البيان وغزارته أن جعل الله عَزَّ وجل بؤرة الوصف متعلقة بالآية، فلم يقل تبارك وتعالى: وجعلنا النهار مبصرا، بل جعل بؤرة التركيز على لفظة ﴿ءَايَةَ﴾ لشد الانتباه إلى العبرة والغاية، وقوة الحجة والدلالة ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ آية النهار مبصرة، وكذلك في الليل، ورد لفت الانتباه إلى كونه آية ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهذا من دقائق البيان ومقاصده العميقة في كل لفظة وردت في سياق القرآن، وهذا إعجاز في البيان، كما أنه إعجاز في الخلق والتدبير.

ثم بين تبارك وتعالى علة وسبب كون النهار مبصرا ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فالغاية الأولى هي: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا وتتوصلوا بنور النهار إلى فضل الله تعالى، من تحصيل الأرزاق، والمنافع التي تنتفعون بها. ونسب تبارك وتعالى الأرزاق والمنافع له ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فجميع الأرزاق هي من الله تعالى إيجاداً وتحصيلاً، فتأمل كيف زامن سبحانه وتعالى بين إظهار النهار بنوره، وبين طلب فضل الله تعالى من التجارة وعموم الأرزاق والفضل. وكلمة الفضل، تدل على أن الله تعالى هو المتفضل عليكم بما هيأه لكم من جميع الأرزاق، والأسباب المعينة على التحصيل.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الغاية والعلة الثانية: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فالحكمة الثانية من آية الليل والنهار لتعلموا عدد السنين ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ ثم عطف عليها ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: حساب الأيام والشهور والفصول، فتنتفعون بها في تحديد ومعرفة شؤونكم، وجاء عطف الخاص على العام لإظهار منفعته من بين منافع السنين العامة، فالحساب المتعلق بالأيام والأشهر والفصول هي

مفردات ضمن السنة الواحدة وداخلة فيها. وهذا من دقائق البيان والتفصيل. فلولا آية الليل والنهار لما عرف الإنسان عدد السنين والحساب، ولكن بهاتين الآيتين العظيمتين جعلها الله تعالى سبيلاً لمعرفة الأيام والأسابيع والأشهر والسنين والفصول، فالذي دبَّر هذا هو الله الخالق الهادي العظيم. فكل شيء يشهد له سبحانه وتعالى بالوحدانية والربوبية والألوهية.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ فكل شيء تحتاجونه في أمور دينكم ودنياكم تم تفصيله تفصيل كمال، وبما يفيد كمال الإيضاح والبيان، إلى حد امتناع الالتباس عليكم، بل أكد التفصيل فيه بقوله عزَّ وجل ﴿ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ وكلمة ﴿ تَفْصِيلًا ﴾ مفعول مطلق يراد به تأكيد التفصيل الواضح الذي لا لبس فيه البتة.

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن حال الإنسان، وما هو عليه في الدنيا ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ فكل إنسان مُلازِم لما عَمِلَهُ في حياته من خير أو شر، فيحاسب على قدر ما كان منه، من الخير أو الشر. ولا يُحاسب عن غيره، ولا غيره يُحاسَب عنه، وملازمة عمله له كملازمة القلادة لمن تقلدها في عنقه، ويُخرج الله تعالى له يوم القيامة كتاب أعماله التي سجلت له وعليه، فيجده مفتوحاً أمامه.

ودلالة ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ ﴾ تفيد تحديد مسؤولية الإنسان، فإن كل أحد مسؤول عن نفسه ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وسُمي العمل بالطائر، أي: حظه ونصيبه، وهو عمله، قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة رحمهم الله تعالى: الطائر: عمله[1] ودلالة ﴿ أَلْزَمْنَـٰهُ ﴾ فيها بيان

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٨/١٤)

لشدة الملاصقة، وعدم المفارقة، فعمل الإنسان ملاصق له، حتى يحاسب عنه. وقد ذكر سبحانه وتعالى موقع ملازمة العمل للإنسان بأنها في العنق ﴿ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ لبيان موطن التحمل، والعرب تُعبر عن العنق في لزوم الذمم، لبيان شدة الملازمة، وعدم المفارقة، فملازمة عمله لذمته كملازمة القلادة لمن تقلدها في عنقه، قال الزجاج رحمه الله تعالى: ذكر العنق عبارة عن اللزوم، كلزوم القلادة للعنق، وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به، وينزجر عما زُجر به، أمكنه ذلك(١) فدلالة العنق لبيان موقع الملازمة، بأنه في أدق الأماكن التي تُعبر عن دقة مسؤوليته عما حصل منه، فلا يتحملها غيره عنه، ولا يتحمل عن غيره شيئاً، فكل أحد مسؤول عن نفسه. وفي تعدد الدلالات ما يبين سعة استيعاب النص الكريم للأوجه الحقيقة، غير المتعارضة. وهذا من بلاغة البيان وإعجازه، بأن يكون سياق النص مستوعب لتلك الدلالات من غير حاجة لبسط كل واحدة منها ببيان مستقل، فكما أن إعجاز القرآن في مضمونه، فإنه كذلك في أسلوبه العظيم، والمتناهي في عظمته، حتى أنه لا يبلغها طامع، ولو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لأعجزهم ذلك، بل وأعجزتهم الآية الواحدة.

ومن دقائق البيان الكريم أن الذي يُلزم كل إنسان بما عمل هو الله تعالى ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ فالملزم هو الله تعالى، مما يدل على عدله، وعظيم قدرته، ومن رحابة السياق أنه يشمل أيضاً معنى: أن كل أحد من الناس قد ألزمه الله تعالى حظه مما سيكتسبه من الخير أو الشر، لعلم الله تعالى السابق بما سيكون من هذا الإنسان قبل أن يكون، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى نقلاً عن ابن عباس وعن بعض أهل التفسير قولهم: وكل إنسان ألزمناه ما قُضي له، بأنه عامله، وما هو صائر إليه، من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه(٢) وهذه الدلالة لا تتنافى مع دلالة أن الإنسان يوم القيامة ملازم لما عمله في حياته من خير أو شر، فيحاسب على قدر ما كان منه، من الخير أو الشر. وكذلك لأن علم الله تعالى سابق لما سيكون من الإنسان قبل أن يكون، وأيضاً أن الإنسان محاسب عن جميع ما عمل، وأن عمله ملازم له، سواء ما كان من خير أو شر. وهذه السعة الدلالية تبين عظمة القرآن وقوة بلاغة بيانه، باستيفائه الأوجه من غير إعادة وتكرار كل وجه بسياق خاص به.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال عدله في إقامة الحجة على العباد، بأن يقرأ كل إنسان كتابه بنفسه ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ فمن عدل الله تعالى وكماله وتمامه أنه يُقال لكل إنسان اقرأ كتاب

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٥٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٥١٩)

أعمالك بنفسك اليوم، فيكفي اليوم أن تكون أنت حسيب نفسك، بما لها، وما عليها، سواء من كمال الطاعة، أو من التفريط فيما كان يجب، فإن إقرارك واعترافك يتحقق اليوم منك على نفسك. ليقر الإنسان بنفسه على نفسه ذلك اليوم، بجميع ما كان منه من أعمال.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأن ما يُحَصّله الإنسان من خير أو شر عائد عليه، وليس على غيره ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ فيبين الله تبارك وتعالى أن ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي: أطاع الله تعالى وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه عائد على نفسه وليس على غيره ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ فإن ثواب تلك الطاعة عائد على نفسه، فهو المستفيد من ثواب الاهتداء ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ومن لم يهتد، فوقع في الضلال ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي: فإنما يضل على نفسه. فإن عاقبة ضلاله واقعة عليه. ثم أكد تبارك وتعالى هذا العدل بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ولا تحمل النفس الآثمة إثم غيرها، فلا تحمل كل نفس إلا إثمها الخاص بها، فلا تحمل ذنوب وعاقبة ووبال الأنفس الأخرى، ليتحقق العدل في الحساب، ثم في الجزاء، ومعنى الوزر: الإثم، وهو الثقل، لأنه أشبه بالحمل الثقيل. والوازرة هي الحاملة، التي عملت الوزر، الذي هو الإثم. وهذا لا ينفي مسؤولية من أوقع غيره في الإثم، بأن يتحمل إثم نفسه فيما يخص إيقاع وإغراء غيره في الإثم، ويقيس عليها غيرها من الأسباب.

ثم يُخبر الله تعالى عن عدله وعدم ظلمه للعباد، بما أرسل من الرسل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ فإن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليهم، حتى يتحقق الإعذار إليهم، بإرسال المرسلين، فإقامة الحجة عليهم أولاً. ثم معاقبة من تولى وعصى. وجملة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ استقصاء مطلق، ينفي به سبحانه وتعالى نفياً قطعياً من أن يحصل العذاب من الله تعالى من دون أن يبعث رسولاً. ليبين سبحانه وتعالى كمال عدله، وأنه ما أراد الظلم لأحد من عباده، بل إن مراده عَزَّ وجل هو نجاة عباده، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ثم يخبر الله تعالى بمنهجه في تحقيق العقوبة للقوم الظالمين، بما يفيد التحذير للمخاطبين بما يخبرهم به سبحانه وتعالى، وذلك وقاية لهم من أن يحل عليهم أسباب العذاب بكفرهم، ثم العذاب ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ وقد بدأ النص الكريم بكلمة

﴿ وَإِذَآ ﴾ والتي أفادت خيار المشيئة له عَزَّ وجل، فإن شاء وأراد سبحانه وتعالى إهلاك القرية كان ذلك، وإن شاء أجَّل إهلاكها بما يقرر جَلَّ جلاله، فليس لأحد من خلقه الحكم في ذلك، وإنما المشيئة والإرادة له وحده لا شريك له، وهذا من دقائق البيان والإعلام الرباني. فيخبر الله تعال أنه إذا أراد أن يهلك أهل قرية من القرى التي تبطر بالمعاصي من الكفر والفسوق، لأن الله تعالى لا يهلك أحداً ظلما، وإنما لكفرهم وفسقهم ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً ﴾ مما يدل على أن أهل القرية قد ظلموا بالكفر والمعاصي، فاستحقوا ما أراده الله تعالى لهم من الهلاك إن أراد إهلاكهم.

وفي الإشارة إلى المترفين بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ ما يدل على وجود الأسباب للأمر بالهلاك، وقبل هذه الآية قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ مما يدل على استحقاق من يأمر الله تعالى بإهلاكهم من أهل القرى، فيعذبهم الله بما يستوجب أشد العذاب، لوقوعهم في المزيد من الانغماس في الفسق

فأهل هذه القرية التي استحق أهلها العذاب بمعصيتهم لله تعالى، أنه أمر مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها بمعصيتهم ومخالفتهم لأمر الله تعالى ﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى، أي: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها بمعصيتهم ومخالفتهم لأمر الله تعالى[١] والمترف كما قال ابن منظور رحمه الله تعالى: الذي قد أبطرته النعمة، وسعة العيش[٢] فهم المنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش. فإن الله تعالى يأمرهم بالطاعات، فيأتون الفواحش بدلاً من الامتثال. والمترفون هم أهل النعمة، الذين هم شرار أهل القرية، يزدادون تمادياً في الفسق. الذي هو الخروج عن حَجْرِ الشرع ونهجه، فيزدادون في كفرهم تمادياُ وعناداً، وخص سبحانه وتعالى المترفين من بين أهل القرية لأنهم الوجهاء والرؤساء والقدوات، وغيرهم تبع لهم ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ وهذه الزيادة من الفسق عما كانوا عليه من الترف الذي استبطروا به، هي عقوبة لهم. وقد ذكر ابن كثير عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله تعالى بالعذاب...وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيع بن أنس[٣] رحمهم الله تعالى.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٧/١٤)
(٢) ابن منظور، لسان العرب (١٧/٩)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦/٣)

مما يفيد أن عقوبة المصر على الإثم، قد تكون بجعله يتمادى في استهواء الإثم، والمبالغة في فعله وتعاطيه، وذلك من باب العقوبة.

ثم يأتي العذاب ﴿ فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ فأهلكناها هلاك إبادة وإزالة لأهلها، وذلك لقوة وشدة العذاب. بل وردت صورة قوة العذاب بتكرار كلمة التدمير ﴿ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ لتفيد كلمة ﴿ تَدۡمِيرٗا ﴾ تأكيد الفعل، وبيانا للمبالغة في عملية التدمير. وفي هذا تخويف وترهيب وتهديد وتحذير من التمادي في الفسق المتنافي مع الحق، وأن الله تعالى قد يمهل العاصي، وربما يجعله يزداد فيما هو فيه من الفسق، من باب تحصيل الأسباب التي تزداد بها العقوبة، التي تتوافق مع عناده وإصراره.

فهناك ثلاث دلالات استنتجها أهل التفسير في تأويل قوله تعالى ﴿ أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أحدها: أن المترفين قد أُمروا بالطاعة ففسقوا بتماديهم في الكفر والخروج عن طاعة الله تعالى. والثاني: أن الله تعالى نتيجة لبطرهم بالترف، جعل مترفيهم يتمادون في الفسق، عقوبة لهم، فسلط أشرارهم بالمعصية، فأهلكهم الله بالعذاب. والثالث: أَمَّر الله تعالى المترفين على أتباعهم، عقوبة لهم، فازدادوا في كفرهم، فأهلكهم العذاب. والمتأمل في هذه الأقوال يجد أن اختلافها متعلق بكيفية حصول الفسق من المترفين، فإن لله تعالى ما يشاء في ذلك، وقد يكون بها جميعاً، وقد يكون ببعضها، أو أحدها، فجميعها ممكنة التحقق مع اختلاف الأوجه، مما يبين عمق السياق في استيعاب الأوجه التي تتحقق بها المعاني المتوافقة، والدلالات الممكنة من غير تضاد ولا تعارض. وفي هذا إعجاز بياني، إذ ليس هناك ما ينفي أي وجه من تلك الأوجه، لتلك الدلالات، فعلى أي وجه يمكن أن يجريه الله تعالى. فسبحان الله العظيم الذي أظهر الإعجاز في بيانه كما هو أظهره في مضمون كتابه، وأظهره في إرادته وأفعاله.

ثم لما هدد الله تعالى كفار قريش، وحذرهم بما سبق من البيان، يضرب اللهُ تعالى مثالاً لهم ولغيرهم بما جرى من العذاب للمكذبين بالرُّسل من بعد نوح، وهو أبلغ في الكشف والترهيب والوعظ، وذلك بإظهار الحقائق لهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ هذا وعيد وتحذير وتهديد لكفار قريش ولغيرهم، مِنْ أَنَّ الله تبارك وتعالى قد أهلك من بعد نوح الكثير من الأمم التي كذبت بِرُسُلِهِم، بما يفيد التحذير من أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح أنها كانت على الإسلام، كما قاله ابن

عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام[١] ومن غزارة البيان أن ورد السياق بصيغة العموم، ليتجاوز به تخصيص المخاطبين من كفار أهل مكة إلى العموم، لتكون الموعظة أشمل وأكمل لهم ولغيرهم، عبر الأزمان على اختلافها، واختلاف أمكنتها.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ وحسبك أيها النبي فيهم أن ربك تبارك وتعالى عالم بجميع أعمالهم، من خير، ومن شر. فلا تحزن ولا تكن في ضيق، فإن الله تعالى يعلم ويرى كل ما هو حاصل منهم. فلن يفوته شيء من ذنوبهم، ومن مكرهم، وتدبيرهم، وما يسرون وما يعلنون. فيكفي بإحاطته وعلمه واطلاعه بما يكون من العباد، سواء من خير أو شر.

وقد بدأ البيان الكريم بقوله تعالى ﴿وَكَمْ﴾ بما يفيد كثرة الذين أهلكهم الله تعالى ﴿وَكَمْ﴾ وفي ذلك إبهام للعدد، ليفيد الكثرة، وليفيد التهويل والمبالغة في الكثرة، وهي استفهام ﴿وَكَمْ﴾ لتعطي الذهن استثارة، وحث على التأمل، سواء من حيث الكثرة، أو من حيث امتداد الزمن، الذي عَرَّف بدايته، أنه من بعد نوح عليه السلام ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ ولم يذكر نهايتها، لتكون إلى الوقت الذي يخاطبكم به الله تعالى، وليستمر هذا الامتداد الزمني بحسب السياق إلى كل وقت ممكن أن يهلك الله تعالى فيه الأمم المتجبرة بكفرها وطغيانها. فإن أمر الله تعالى لا مرد له. وسَمَّى الله تعالى الذين أهلكهم بالقرون ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ إشارة إلى أهلها، وإشارة إلى الامتداد الزمني، الذي يُقَدَّر القرن الواحد بمائة سنة، فيشمل من عاشوا في تلك الحقب الزمنية على طول مدتها، وكثرة تعاقب أهلها. وقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[٢] مما يفيد أن المقصود بالقرن زمن كل أمة.

ثم جاء الالتفات بتوجيه وتخصيص الخطاب إلى لنبي صلى الله عليه وسلم، والذي أفاد الإعراض عمن أعرض وتولى، فلا تكن في ضيق ولا في حزن من إعراضهم أيها النبي، صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ وفي كلمة ﴿وَكَفَىٰ﴾ استيفاء لجميع ما يحقق عصمته منهم عليه الصلاة والسلام، فهو الكافي الذي يستوفي ذنوبهم، وما فيها من المكر والأذى والخديعة، والصد عن سبيله سبحانه وتعالى، وفي هذا تقوية للنبي عليه الصلاة والسلام، وبيان لهم من أن الله تعالى محيط بذنوبكم. ولم يخصص

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦/٣)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٦/٣) برقم (٣٦٥٠)

تبارك وتعالى أعداء النبي صلى الله عليه وسلم بعلمه لذنوبهم فقط، بل جاء البيان شاملاً لكل العباد ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ وهذه من دقائق البيان، فإن إحاطة الله تعالى علماً وقدرة شاملة لكل العباد، فما هؤلاء إلا جماعة وعدداً من بين جميع عباده سبحانه وتعالى.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

بعد أن أوضح الله تعالى أن من أطاعه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ثواب ذلك عائد عليه وليس على غيره، وأن ومن لم يهتد، فوقع في الضلال، فإن عاقبة ضلاله واقعة عليه. ولا تحمل النفس الآثمة إثم غيرها. يخبر عَزَّ وجل عن أصناف الناس في سعيهم، وما ينالهم ويتحقق لهم مما يريدون تحصيله ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ فإن الذي حصر طلبه على منافع الدنيا، متجاهلاً للآخرة، فإن الله تعالى يُعجل له فيها ما يشاء. فيبين جَلَّ جلاله بأن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وهي الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ فَمَن حَصَر وقَصَر إرادته على الدنيا، وفَضَّلَها على الآخرة، فسعى لها وحدها دون الآخرة، فإن لله تعالى المشيئة فيما يعجله لهم فيها من عموم الرزق والمعاش، وليس الأمر عائد فقط لإرادتهم. فتحصيل العبد في الدنيا ليس عائد لإرادته ووفق ما يطلبه ويتمناه، بل عائد إلى مشيئة الله تعالى، إذ حصر سبحانه وتعالى مشيئة التعجيل من حيث الكثرة والقلة والنوع له عَزَّ وجل ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ ووصفت ونُعتت الدنيا بصفتها ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وسُميت عاجله لأنها تنقضي وتزول بسرعة، فلن تبقى لأحد، فإن زوالها عاجل غير باق، مهما حَصَّل فيها العبد مما يريد ويشتهي، فإنه زائل عنها أو تزول عنه، فإنه أمر لا محالة كائن.

ومن دقائق البيان في قوله تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ أن وردت إرادة الإنسان بصيغة الفعل المضارع ﴿يُرِيدُ﴾ لتفيد استمرارية رغبته وإرادته في العاجلة، وأنه ولم يغير إرادته،

إذ حصرها على مطالب الدنيا فقط. ولتفيد كذلك: الإصرار على إرادة العاجلة، خاصة وقد سبقها فعل ماض ﴿كَانَ﴾ ليفيد امتداد ماضي الإرادة واستمرارها في مرادها، ومن روائع البيان كذلك كلمة ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾ فقد وردت على نسق العاجلة والاستعجال ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ فإن تراكيب كلمات السياق وردت في دقة متناهية مع إبداع وجمال في رسمها وبنائها، فإن من تأملها يرى فيها الإعجاز، سواء في تراكيب كلماتها أو نسقها وتناسقها، أو في إعجاز دلالاتها، ومقاصدها، وما فيها من النصح والإرشاد والبيان للمخاطبين.

لقد أثبت وأعطى الله تبارك وتعالى للإنسان حرية الاختيار، بين العاجلة والآجلة، ولكن قيَّد سبحانه وتعالى تحصيل العبد من الكثرة والقلة والنوع له عَزَّ وجل ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ لأنه هو الرزاق، وجميع الأرزاق ملكه سبحانه وتعالى، فيعطي من يشاء بقدر ما يشاء، ولذلك قيدها عَزَّ وجل بمن يريده هو تبارك وتعالى ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فالإرادة له تبارك وتعالى، فجمع النص الكريم الإيضاح لما تقتصر عليه إرادة واختيار المخلوق وما يخص إرادته سبحانه وتعالى بين العطاء وبين الْمُعْطَى له، سواء من حيث القلة والكثرة والنوع.

وقد ورد عقاب العبد الذي قد آثر العاجلة التي هي الحياة الدنيا على الآخرة الباقية، بما يتناسب مع ما أراده وبما يستحق، فقال الله عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: يدخل جهنم مع صفتين ملازمتين له من المهانة ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ وبينت الآية الكريمة ما يحصل لهم في نار جهنم من الصلي، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى الصلي: أي: سَيُحَرَّقون بالنار، ويُشْوَون[١] وأما المهانة الأولى فهي يدخل جنهم ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: موصوفاً عمله واختياره بالمعايب والنقائص، لأنه آثر القصير الزائل على الكثير الباقي، وإضافة إلى الذم فإنه كذلك ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي: مطرودا، مُبعَداً من رحمة الله تعالى، فكانت عقوبته في الحياة الباقية جهنم، وأما في الدنيا، العاجلة، فإنه لم يُحصِّل إلا ما قَدَّره الله تعالى له من الرزق. بينما المؤمن ينال في الدنيا ما قَدَّره الله تعالى له من الرزق، ويحظى بسعادة الرضا بما قدره الله عَزَّ وجل له، وأما في الآخرة فله الجنة، والنعيم المقيم. مما يدل ويوضح أهمية التفكير، وأهمية العمل بطاعة الله تعالى، وأن الدنيا عاجلة فانية، وأنها لا تطول فيها الحياة، بينما الآخرة هي دار القرار.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩١/٢) ذكر ذلك عند تفسير الآية (١٠) من سورة النساء

ثم يُخبر الله تعالى عمن أراد الآخرة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ فقد جعل الله تعالى لمن أرد الآخرة ركائز لا بد من تحصيلها حتى يكون سعيه محل المكافأة والجزاء الجزيل، ووردت الإرادة هنا بصيغة الماضي ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ لتفيد الجزم بها ابتداء، مع الاستمرار عليها، بينما وردت الإرادة لمن يريد العاجلة بصيغة المضارع ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا ﴾ وفي هذا التباين دقة إعجاز في الوصف، لمناسبة كل واحدة منها لمقتضى حال صاحبها، بل وبدقة متناهية.

وقد جعل الله تعالى لمن أرد الآخرة ركائز لا بد من تحصيلها حتى يكون سعيه محل المكافأة والجزاء الجزيل ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ أي: أراد الجنة، فإن الأمر الأول الذي يلزمه: أن تكون عنده إرادة صحيحة، وكل إرادة حقيقية لا بد أن تكون إرادة جازمة، فليس كل إرادة لابن آدم هي إرادة جازمة، فالإرادة الصحيحة هي التي يصدقها القول والعمل، ولذلك أوضح وبين الله تبارك وتعالى شروط هذه الإرادة لمن يريد الآخرة إن كان صادقاً في إرادته، ويريد تحصيل ثوابها، الذي هو الجنة. فالركيزة الأولى ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي: يعمل لها العمل الذي يصلح لها، ويليق بمقامها، من المتابعة والإخلاص، وهو طاعة الله تعالى، ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والإخلاص في العبادة لله عَزَّ وجل، فيأتمر بما أمر الله تعالى به، وينتهي عما نهى الله عنه.

والركيزة الثانية: الإيمان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي: وقلبه محقق لشرط صحة الأعمال، وهو الإيمان، فيكون مصدقاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار. فجمع في الشرطين بين تحقق صحة الاعتقاد وبين كمال أداء العمل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ فهؤلاء المتصفون بهذه المواصفات ﴿سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ أي: مقبولاً عند الله تعالى، والسعي المشكور عند الله تعالى، هو العمل الذي يكون محل الثناء من الله عليهم به، فَيُحْسنُ لهم الجزاء، لكمال شروط سعيهم، التي هي المتابعة والإخلاص له سبحانه وتعالى، والإيمان الصادق.

ومن جمال السياق أن ابتدأ إيضاح الجزاء باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ للفت الانتباه إليهم، فهم أهلٌ لما سيكون لهم من الأجر، وربط السياق بين فعل السبب وهو السعي، وبين الجزاء وهو الشكر لهم.

لتأكيد وبيان العلاقة الترابطية بينهما، وأن لكل امرئ ما سعى. كما أن السعي ورد بصيغة الماضي ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ ليفيد ثبوته وتحققه. كما وصف تبارك وتعالى الثواب لهم بالشكر ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ لعظمة الثواب، فمن عظمة الثواب وجزالته، وكثرته، وتنوعه، جاء تعظيمه بكلمة ﴿مَّشْكُورًا ﴾ والشكر من الله تعالى يستوفي ما يعجز الإنسان عن تفصيله، لكثرته، وعظمته، وتنوعه. بل لفت الانتباه إليه بصيغة التعظيم.

ثم يخبر الله تعالى عن كريم عطائه للمؤمنين والكافرين في الدنيا، بما يمدهم به من الأرزاق المتنوعة ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ فإن الله تعالى يُعطي كلاً من الفريقين، سواء الذين أرادوا العاجلة، وهي الدنيا، أو الذين أرادوا الآخرة، وهم المؤمنون، فيشمل عطاء الله تعالى البر والفاجر، فإن الرزق يشمل ويعم جميع العباد ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ وهذا الإمداد هو ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ كرماً منه، ومِنَّة عليهم وتفضلاً، وليس مقابل أعمالهم، فالمعطي هو الله تبارك وتعالى، وما أعطاهم هو من ملكه، فهو المتحكم والمتصرف في نوع وقدر العطاء، وفق حكمته، وعلمه وعظيم تدبيره، وتصريفه للأمور.

ووصف سبحانه وتعالى عطاءه بالإمداد ﴿نُّمِدُّ ﴾ وهو العطاء المتعاقب والمتتالي المتلاحق، مما يبين أن العطاء من الله تعالى لا يعني الرضا عمن أعطاه تبارك وتعالى، ولا يعني بغض الله تعالى لمن قل وتكدر رزقه، وإنما العطاء عام لكل عباده، مسلمهم وكافرهم، وأما كثرة العطاء وقلته فهو لحكمة التدبير والتصريف التي لا يعلمها إلا الحكيم العليم بعباده، ومصالحهم ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ فإن عطاء الله تعالى ليس ممنوعاً، فلكل مخلوق نصيبه الذي قَدَّره الله تعالى له، فليس لأحد أن يمنعه عن أحد، أو يُنقصه عن أحد، أو يقدره أحد على أحد.

وهي قاعدة لمعالجة النفس، عقيدة، وطمأنينة، وفكراً، وتعاملا وتفاعلاً مع الغير، ففي جانب المعالجة العقائدية يتذكر دائما قوله تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ وإذا استشرفت النفس في أي مجال لم يحصل عليه، عالجها بتذكر قوله تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ وإن جال الفكر هنا وهناك، وتاه بين تفاوت

العباد قال لنفسه بقوله تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ وإن جال الحسد في قلبه أيقن أنه لا مكان له أمام قوله تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ وإن أراد إصلاح علاقته بمن فوقه ومن دونه تذكر قوله تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ فهي علاج لما في الصدور. فالقرآن علاج من كل وجه.

وامتداداً لما سبق من إمداد الله تعالى لهؤلاء وهؤلاء من عطائه، يلفت تبارك وتعالى الانتباه إلى عملية التفاوت في الأرزاق، ليعطي بها صورة لفهم وإدراك تفاوت الدرجات في الآخرة، فكما أن الأرزاق متفاوتة في الدنيا، ويصعب قياس فوارقها فكذلك هي في الآخرة ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ فوجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ شاهد وتأمل وتدبر أيها النبي، وهذا الخطاب شامل لكل أحد من الناس، وتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم به، رفعة له، وأن غيره تابع له في التوجيه. وكلمة ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ تفيد نظر التَّبَصُّر بالعين، الذي يندرج تحته الانتباه، ويجتمع معه كذلك النظر بالبصيرة، للتأمل، وهو التدبر والتفكر، والذي يحتاج إلى إعمال الفكر بالتأمل، المصحوب بغرض الاستنتاج، ومن ثَمَّ التحليل العلمي اليقيني لدلالة ما تم التوجيه إليه وهو ﴿كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ فتأمل التفاضل في عطائنا العاجل للعباد، فمنهم الغني، ومنهم الفقير، ومع ذلك هم درجات متفاوتة في الغنى وفي الفقر، ومنهم العليل والسقيم والصحيح، والماهر، والضعيف.

كما أنهم متفاوتون في كل صنف، وهم كذلك متباينون في درجات الحاجة، بل ويشمل التفاوت في مقدار الصحة والمرض، والقوة والضعف، والعقل والتدبير، وفي الآجال، وفي المهن والصنائع، والرفعة والذلة، وأن هذا التفاوت ليس مرتبط بالطاعة والامتثال، بل هو تفاوت عطاء من الله تعالى لعباده، لحكمة يعلمها عَزَّ وجل، لأنه الحكيم العليم، وأن الإنسان لو أراد أن يَفْضُل بنفسه على أحد من الناس لما استطاع إلى ذلك سبيلا إلا إن قَدَّر الله تعالى له ذلك. بل ربما يربح فيخسر ما ربح، بينما يربح غيره أرباحاً متتالية متعاقبة، مع قلة الأسباب. وإن في ذلك مجالاً للتأمل والتدبر والتفكر.

بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام﴿كَيۡفَ ﴾ فقال تعالى ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر في تقدير هذا التفاوت، الذي لو كان بإرادة العباد لرأيتهم بغير تلك الصورة، بل ولأحدث بينهم شروراً عظيمة، وهذا لمن تأمل وتدبر، فإن إدراك الْمُخَاطَب لتلك

الحقيقة، يستلزم منه أن يتأمل في تفاوت درجات الآخرة ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فإذا كانت هذه الدرجات الشاسعة والمتباينة والمتفاوتة حاصلة في الدنيا بين الناس، فإن درجات الآخرة أكبر وأعظم تفاوتاً وتبايناً من درجات الدنيا، لمحدوديتها، بينما الآخرة أكبر في مساحة التفاضل، وفي نوعه، ومحتواه، وكثرته وتعدده.

فشمل التفاوت وجهين من التباين: الأول: في الدرجات ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ والثاني: في التفضيل ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فهو أكبر في التفاضل، والتفاضل يفيد التباين فيما زاد عن الحاجة، فأهل الجنة يتفاضلون، ليس فيما يحتاجون، بل فيما زاد عن الحاجة، لأن جميع من في الجنة هم في نعيم مقيم، وسعادة لا تنتهي، سواء الفاضل أو المفضول، فالحاجة منتفية تماماً، فجميعهم لا ينقصهم شيء. فهم أكبر درجات في المنازل، وبالتالي أكبر في التفاضل، وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة...ثم قال (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة. ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)[1] مما يبين أن حجم تفاوت الدرجات، يترتب عليه حجم التفاضل العظيم الذي يكون بين أهل الجنة، فكل بحسب منزلته. واسأل الله تعالى أن يجعلنا في عليين.

ومن دقائق السياق أن البيان في شأن التباين جاء بتكرار كلمة التفضيل التي هي ﴿أَكْبَرُ﴾ لتفيد إظهار نوعي التفضيل ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فأظهرت اللفظة الأولى ﴿أَكْبَرُ﴾ تفاضل الدرجات، بجملة مستقلة، وأظهرت ﴿أَكْبَرُ﴾ الثانية: التفضيل بجملة أخرى مستقلة، ومعطوفة على التي قبلها. فإنها دقائق إعجاز في البيان، إذ كان بالإمكان أن يكون السياق: وللآخرة أكبر درجات وتفضيلا. ولكن إعجاز البيان في دقة تراكيب الكلام، ليتجلى منه قوة الدلالة، وإظهارها بصورة دقيقة، وتجليتها بإبراز الدرجات، وإظهار التفاضل. فسبحان من أعجز ببيانه عباده.

والمتأمل في دقائق أسلوب هذه الآية الكريمة يجد قوة بيانية عجيبة وعظيمة في منهجية الإقناع، بما يعطي دلالة أن هذا الدين هو دين علم، وقناعة، وليس دين إجبار، بل إنه دين فقه عظيم. ففي لفظة ﴿كَيْفَ﴾ يجد الْمُخَاطب أنها متعلقة بالْمُتَأَمِّل فيه، الذي هو درجات التفاوت في عطاء الله تعالى، لِيُمْعِن النظر في مساحة ومسافة التفاوت، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة، بأن الأمور لو كانت بيد الإنسان، لما جعل غيره يتقدم عليه في الرزق، والمكانة والشرف، وأن أمر التفاوت ليس بيده، فعليه أن يأخذ من ذلك عبرة ودرساً

(١) مسلم، صحيح مسلم (١٥٠١/٣) برقم (١٨٨٤)

وعقيدة، بأن الله تعالى هو الذي فاضل بين عباده في العطاء، كما أن في التعاقب بين لفظة ﴿كَيْفَ﴾ بعد لفظة الأمر بالنظر ﴿ٱنظُرْ﴾ مقصداً بيانياً عظيماً وتوجيهاً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم السياق البياني، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظيم كلام الله تعالى.

وهذا السياق اللغوي للآية الكريمة يبين الدقة اللفظية، ومحاسن تراكيبها الأسلوبية التي تحمل المعاني الدقيقة، والمقاصد البيانية التي بلغت غاية في البلاغة اللغوية المحققة للمعاني بكل ما يُحيط بها من الفوائد ومن المراد المتعدد. وأن كل لفظة ذات مقام ومقصد في تقديمها أو تأخيرها، أو في وجودها ووضعها دون غيرها، أو بما يتبعها أو يتقدمها من توجيه. مما يعطي ارتقاء تعليمياً في بناء المنهجية العلمية لدى المتلقي، وكذلك في العملية التطبيقية التي يتوسع بها الذهن في البناء الكلامي والخطابي، أو أن يقتبس منها ما تحمله من الفوائد التي استوعبتها المساحة العميقة لدلالة النص وألفاظه ومعانيه. وكذلك كيف أثارت الذهن نحو الركون للتأمل والتدبر الذي يحصل به الفقه والتفقه والتعلم بأسلوب مقنع، متمثل في قياس تفاوت شأن الدنيا الفانية، مع عظمة تفاوت درجات الآجلة الباقية التي لا تنتهي ولا تزول، إن في ذلك استحثاث للتأمل والتفكر، بما يعطي درساً دعوياً وتعليمياً في أثر التوجيه للمخاطب وللنفس بالنظر الذي يُفضي إلى القناعة الفكرية، ثم القناعة القلبية، ثم القناعة السلوكية التطبيقية.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ﴾ أنها تلفت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، لتكتشف ما فيه من الحقائق المذهلة، وما فيه من الْحُسْن في التدبير والعطاء، وأن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة ليتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأن ذلك وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الصواب والخطأ.

كما أن لفظة ﴿كَيْفَ﴾ أعطت المزيد عن حال الأمر المنظور إليه، ودلالته، وأن لفظة ﴿ٱنظُرْ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب نفسه، بأن يتأمل ويقلب الفكر، ومن الناحية التربوية فإن نصوص القرآن الكريم تحمل مقاصد علاجية للواقع، وإنمائية لتنمية الخير والصلاح في النفس البشرية، ووقائية من أن يسلك الإنسان مسالك الشر وعواقبه الوخيمة.

وبأسلوب رفيع يوجه ويُسْمِع سبحانه وتعالى المشركين خطورة الشرك، من خلال توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم عن تهويل الشرك، وبيان مدى بغض الله تعالى له، حتى لو أنه حصل منك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، مع علو مقامك ومنزلتك، لَتُرِكت، ومكثت في حالة من الذم والخذلان ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فإن في هذا الخطاب إعلام من الله العزيز الحكيم لغيره صلى

الله عليه وسلم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام موحد لربه تبارك وتعالى، لكنه أفاد تعظيم شر وفساد الشرك، ومقت الله تعالى لمن أشرك، ليعطي حكماً قاطعاً بأن واقع حال المشركين هو الذم والخذلان الذي يحيط بهم. فإن كل من أشرك استلزم لنفسه سُوء الذكر، لما لحقه من العيب والنقص، قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يقول سبحانه تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّا تَجْعَلْ ﴾ يا محمد مع الله شريكا في ألوهيته وعبادته، ولكن أخلص له العباد، وأفرد له الألوهية، فإنه لا إله غيره، فإنك إن تجعل معه إلهاً غيره، وتعبد معه سواه ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ تصير ملوماً على ما ضيعت من شكر الله على ما أنعم به عليك من نعمه، وتصييرك الشكر لغير من أولاك المعروف ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ أي: قد أسلمك ربك لمن بغاك سُوءً[1] وفي هذا رفع لمستوى التحذير بأنه لو حصل منه صلى الله عليه وسلم وهو صاحب المقام المحمود عند ربه عَزَّ وجل لأوقع نفسه الذم والخذلان.

وجملة ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ تفيد أنك استوجبت لنفسك الذم والعاقبة الوخيمة، ففي هذا الحكم من الله تعالى ذم لعقل المشرك الذي رضي بعبادة من لا يسمع ولا يعقل، وذم لصورة المشرك وهو قائم أمام أصنام من الجمادات، يرجوها ويخافها، وذم من الله تعالى وملائكته والمؤمنين لكل مشرك. وكذلك يلحقه الخذلان ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ والمخذول هو الذي لا ناصر له، ولا معين يعينه. فلا معية للمشرك من الله تعالى، فإن أمر وشأن كل مشرك هو الخذلان من كل وجه. وفي هذا تحذير شديد عن الشرك، والحكم بأن النجاة في توحيد الله تعالى، وطاعته عَزَّ وجل.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤١/١٤)

بعد بيان الله تعالى بما قرر به أنه الخالق والمدبر والمالك، والملك المتصرف في الكون، مع التنصيص على أن من آثر الحياة الدنيا، فليس له فيها إلا ما شاء الله تعالى من العطاء، ثم مردَّه إلى جهنم مذموماً مدحورا، ثم ينتقل البيان في ترابط وتدرج بليغ إلى مقارنة من أراد العاجلة مع من أراد الآخرة، الذي سعى لها سعيها وهو مؤمن، فإن سعيهم محل ثنائه وثوابه جَلَّ في علاه، ثم يتدرج إلى عموم كرمه وإحسانه لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا، لينتقل بأسلوب المقارنة إلى تفاوت عطائه سبحانه وتعالى لعباده في الآخرة، الذي هو أكبر درجات وأكبر تفضيلا، ثم يخلص السياق بانتقال بديع إلى تحريم الشرك، وبُغض الله تعالى لمن أشرك، إلى درجة أنه لو حصل من نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم لخذله عَزَّ وجل، مع ماله من منزلة رفيعة، ومكانة كبيرة، فكيف بمن هم دونه، والجميع دونه صلى الله عليه وسلم، ثم ينتقل في ترابط بديع إلى ما قرره سبحانه وتعالى على عباده، من وجوب توحيده، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ يخبر الله تعالى بما أمر به عباده أجمعين، بأن لا يعبدوا إلا إياه سبحانه وتعالى، وأن يُحسنوا إلى الوالدين، وما بعدهما من الأوامر التشريعية. وابتدأ التشريع بأعظم الأركان التي لا يصح غيرها إلا بتحقيقه أولاً، ثم تبعته التشريعات الأخرى.

فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وقد ورد الأمر بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ أي: فرض وأمر وأوصى. وفي دلالة ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ ما يفيد رفع مستوى الأمر إلى الفرض والوجوب، ولزوم ما أمر به، فهو أمر جازم، وحُكم قطعي، فأوجب وألزم أن يُفْرَد سبحانه وتعالى بالعبادة، ولإحسان للوالدين، وقد رفع سبحانه وتعالى مستوى الأمر بإظهار الآمر سبحانه وتعالى بصيغة الربوبية ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ فربك هو الذي قضى. وكذلك هناك رفع ثالث لمستوى هذا الأمر، بأن وجَّه به سبحانه وتعالى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ وقضى ربك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وكذلك رفع شأن هذا الأمر بأن ورد بصيغة الماضي ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ فهو أمر قد فُرض وقُطع به، ليدل على أن ما أمر به سبحانه وتعالى قد قُطع به، وفُصِل في حكمه، وأصبح أمراً مَقضياً، وهو تعظيم الشأن لما يترتب عليه.

وأول الْمَقْضِي به هو ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فالمقضي به أن لا تعبدوا إلا الله تبارك وتعالى، فلا تتوجهوا بشيء من العبادة لغيره، مما يبين أن صرف ما هو حق لله تعالى لغيره كفر، ويجب لزوم الإخلاص له عَزَّ في علاه فيما هو حق لله تعالى من العبادة، ولَمَّا أن العبادة توقيفية على ما شرعه الله تعالى، وجب تنزيه العبادة من البدعة، بالزيادة أو النقص. وجاء المقضي به عاماً لجميع العباد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ فبعد أن كان مطلع البيان وإطلالته موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ توجه المقضي به إلى مخاطبة الجميع، وهو انتقال بديع، ليفيد أن ربك أيها النبي يخبرك بأنه قد قضى على جميع عباده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فهو إعجاز بلاغي وبياني في سياق قد جمع عمقاً دلالياً عظيما، كما جمع فيه بين نبذ الشرك، وتقرير توحيده في عبادته سبحانه وتعالى، والذي يقتضي إفراده في ألوهيته وربوبيته، فمن آمن بمقتضى الإخلاص في العبادة، لزمه من ذلك الإيمان بالله رباً، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، وبالتالي نبذ الشرك، والكفر عموماً. وفي الابتداء بصرف العبادة لله تعالى، دليل على أن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، يؤكده ويصدقه العمل، وأنه أعظم المأمورات التي أمر الله تعالى بها، إضافة إلى ما تلى ذلك من الأوامر الربانية التي تناولت عدداً من التشريعات الأخلاقية.

ثم ينتقل البيان العظيم إلى ما قضى به سبحانه وتعالى فيما يخص بر الوالدين ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والإحسان هو البر والإكرام بالفعل والقول، وجميل الطاعة، وإظهار الحب والاحترام لهما. وفي هذا الأمر ما يفيد لفت الانتباه إلى تحري أوجه الإحسان، والحرص عليه، وعدم تفويته عند وجود الفرصة لتقديمه للوالدين، والتحلي به معهما. وفي الأمر ببرهما يقتضي الوجوب، وتحريم ما يخالف ويُضاد الإحسان. وفي عطف جملة الإحسان بالوالدين على إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، ما يفيد تعظيم حق الوالدين، فهو تعظيم لحقهما وشأنهما، وورد الإحسان بصيغة العموم ﴿إِحْسَٰنًا﴾ ليفيد جميع عموم أوجه الإحسان التي لا حصر لها، لتعدد أوجهها، وتنوعها، وكثرتها. وأوضحت الآية الكريمة الإحسان بعمومه، والذي تضمن واستوعب كل أجزائه وأوصافه، فأغنت لفظة ﴿إِحْسَٰنًا﴾ عن جميع التفاصيل لمكوناتها، والتي تُوجِب عدم الإتيان بما يضاد الإحسان من قول أو فعل، أو ترك شيء من أجزاء الإحسان.

ومن دقائق البيان أن الإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، بل تجاوز ذلك إلى المبالغة في الإكرام. فإن العدل واجب وأما الإحسان فهو تجاوز العدل إلى المبالغة في الإكرام. فأصبح الإحسان في حق الوالدين واجب. حيث انتقل من التفضيل إلى الوجوب بأمر الله تعالى وحكمه، وبما يصل به الأولاد إلى أقصى ما يمكنهم. مما يبين أن حقوق الوالدين تتعالى بالمبالغة في كمال أدائها، دون حدود محددة لكمالها، خاصة وأن الذي أمر بها

هو الله الخالق الكريم. وفي هذا الأمر منه سبحانه وتعالى تكريم للوالدين وعناية خاصة منه عَزَّ وجل بهما. وفي هذا بيان لأخلاق الإسلام وهديه العظيم في بر الوالدين، وهذا من كمال الدين وأخلاقه، ومن رحمة الله تعالى وبركاته وفضله. وفي هذا إعجاز بياني وبلاغي لهذا القرآن المجيد. بل كل ألفاظ هذه الآية معجز في دلالاتها اللفظية، المعبرة عن الكثير العظيم بأقل العبارات والألفاظ. وأفادت الآية الكريمة عظيم حق الوالدين.

ثم خص تبارك وتعالى مرحلة الكبر من عموم مراحل العمر، لتعظيم هذه المرحلة من بين غيرها من مراحل عمر الوالدين، وذلك لحاجة الوالدين الظاهرة لكمال الإحسان فيها عن سوابقها، فهي أخص من عموم مراحل العمر السابقة لها، ولتفيد التنبيه والتأكيد عليها، وإلا فإن الإحسان واجب في جميع مراحل عمرهما، ولكنه تخصيص للتنبيه والاهتمام، مع التعظيم لشأن الإحسان في هذه المرحلة العمرية، لأنها المرحلة التي يظهر فيها العجز، والحاجة للغير، ويحصل فيها تضجر الولد من تعب الوالدين ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ولما أن الله تعالى قد يمد في عمريهما، أو في عمر أحدهما، نوه إلى ذلك ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ فإذا وصلا أو وصل أحدهما إلى السن التي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان إلى رعايتك، فتأدب معهما بما يليق بالسن التي بلغاها.

ومن جميل البيان، ولطف الوصف أن ورد التعبير عن تلك الحال بقوله سبحانه وتعالى ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾ فاستغنى بصفة كلمة ﴿ٱلْكِبَرَ ﴾ عن ما دونها من تفاصيل كبر السن، فلم يصف حالتهما بدقائق العجز، تكريماً لهما، وتكريماً لما بلغاه من السن، مع استيفاء جملة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾ جميع ما يمكن أن يكون فيه الْمُسن من الحال، وكلمة ﴿ٱلْكِبَرَ ﴾ تُعطي صورة العلو والرفعة في مقام السن، مع صورة الضعف في البدن، فإنها جمعت الضعف في صورة العلو، فإن الوصف استوفى التكريم، وحفظ المكانة، وتعليم المخاطبين غاية الأدب وذروته ورفعته.

وكلمة ﴿يَبْلُغَنَّ ﴾ أفادت الوصول، والبلوغ، وامتداد العمر بهما. واستوفت كلمة ﴿عِندَكَ ﴾ حاجتهما إليك، بعد حاجتك إليهما، وكذلك أفادت ﴿عِندَكَ ﴾ أنهما في كنفك وفي كفالتك، بعد أن كنت في كنفهما وكفالتهما، ففيها تذكير بما كان منهما لك، في صورة من أدب التكريم. وهي تشير إلى العجز أو الضعف. ولكن جميع ذلك الوصف من غير ما يثير في نفس الكبير مشاعر الإحباط، فإنه أسلوب يُعلّم ويتعلم به الإنسان مكارم الوصف، وأخلاقيات الاحترام في الألفاظ وفي السلوك، وفي التعامل، فإنها مدرسة القرآن العظيم. فتأمل

كيف أكرمك الله تعالى أيها الوالد، وأيها الإنسان، وشَرَّع لك كمال العناية، ورتَّب عليها المثوبة والأجر الجزيل، من أجل أن تعيش حياة كريمة أيها الإنسان. فما أعظم ربنا تبارك وتعالى، وما أعظم رحمته بنا، وما أعظم تشريعه، فما واجبنا تجاه ربنا إلا شكره وطاعته جَلَّ في علاه.

وأفادت جملة ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ الحالة التي يمكن أن يصلا إليها الوالدان، سواء في حالة اجتماعهما في الكبر، أو في حالة انفراد أحدهما عن الآخر، ليتبين شدة التدقيق، والعناية والتنبيه من الله الكريم بالوالدين عند أولادهم. وجعل سبحانه وتعالى الخطاب مُوجّه للفرد ﴿عِندَكَ﴾ للتخصيص والتعيين، فكل ابن وابنة مخاطب بعينه بهذا الأمر، وكأنه هو المسؤول لا غيره من إخوته، ليبين أن ذلك التعامل مع الوالدين فرض عين، ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ فالمخاطبون هم العباد جميعاً، وجملة ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ تفيد أن كل أحد من الأولاد مسؤول ومكلف، ليحدث منها التسابق والتنافس على برهما. فإن في ذلك بلاغة متناهية في تحرير البيان، وتوصيف الواجب بكل دقة في بناء السياق، وبناء الواجب في الإنسان.

ثم يُلحِق تبارك وتعالى بهذا الأمر، نهيين وأمر، غاية في استيعاب ما يحقق تفاصيل البر والإحسان، وقد خص ذلك بالذكر من بين شمولية الإحسان، ليتحقق التنبيه، والتحرز مما نهى الله تبارك وتعالى عنه ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ فالنهي الأول: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ أي: ولا تُسمعهما قولاً سيئاً، ولا حتى التأفف، الذي هو أدنى مراتب القول السيء. والنهي الثاني: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ والنهر هو: الزجر والغلظة في الكلام، فلا تكلمهما ضجراً وتضجراً وصياحاً في وجهيهما، ومن ذلك نفض اليدين على الوالدين. وفي النهي عن التأفف اللفظي الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ما يفيد تغليظ النهي وشدته عما يعلو عنه من مراتب القول، كالزجر والغلظة في الكلام، وإذا كان النهي عن أدنى مراتب الأقوال السيئة، فمعناه أن ما يخص الفعال أشد وأعظم جرماً فيما لو حصل من الولد، فدل ذلك النهي على التحريم، لأن النهي يقتضي التحريم. فنهى تبارك وتعالى الولد عن أن يُظهر لوالديه ما يدل على استثقال شيء منهما ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ فَيُظْهِر لهما التضجر من أي مطلب لهما، أو تصرف يستثقله منهما، فيكون النهي شامل لسائر ما يؤذيهما. وهذا يتطلب مصابرة من الأولاد، وتحامل على النفس، ولكن يُخفف عنهم مشقة ذلك التكليف رجاء سداد شيء مما صنعاه الوالدان لأولادهم، مع رجاء المثوبة العظيمة من الله سبحانه وتعالى، وهي دخول الجنة. وقد جاء في صحيح مسلم رحمه الله تعالى، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (رَغِم أنفه، ثم

رغم أنفه، ثم رغم أنفه. قيل من يا رسول الله، قال: من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة) [١]

ثم أورد سبحانه وتعالى بصيغة الأمر منهجية التعامل في لفظة واحدة، قد استجمعت جميع المكارم ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لطيفاً وكريماً وسهلاً وجميلاً، ممتلئاً بمكارم الكلام، وطيب المقال، المحفوف بالتوقير والتعظيم لهما، وبالتالي لا تتأفف منهما، ولا تُشعرهما بشيء من ذلك، ويدخل في ذلك الإمساك عن المداعبة التي لا تليق بهما، فإنه ليس من مكارم الأخلاق التندر بهما، أو ممازحتهما بما يقلل من شأنهما. وكذلك الإيماء بلحن القول، ورمزه، وإشارته. فإن جناب التوقير لهما غاية في الدقة والتحرز.

وفي قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ توجيه كريم، وعميق في معانيه، إذ وصف دقة التعامل بأدق المعاني، وأوسع الدلالات، والذي يتطلب من الولد التحرز والانتباه لمشاعرهما، ولكل ما يُشعرهما بالضجر، بما يستلزم إدخال السرور عليهما، وإشعارهما بالرضا.

ثم يتدرج التوجيه إلى دقائق كرم التعامل الأخلاقي مع الوالدين إلى درجة التذلل ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ فاشتمل الأمر على واجبين عظيمين: الأول: خفض الجناح لهما، والثاني: الدعاء لهما، وفيها مغالبة النفس على كمال الطاعة والبر، وفيها الأمر الذي لا مجال فيه للاختيار بين خفض الجناح ورفعه. بل فيها الوجوب ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا﴾ بأنه أمر واجب، ولا خيار للأولاد فيه، والأمر بخفض الجناح يعني كمال التذلل، بتليين الجانب إلى درجة التذلل لهما من الرحمة بهما، وهذا التذلل يكون مع انتفاء فقدهما للقوة التي تجبر على التذلل.

وسمى الله تعالى التعامل بالجناح ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ لما فيه من عظيم المعاني والدلالات. وجناح الإنسان جانباه، وهو صورة للتعامل المتصف بالتواضع، وكذلك هو كناية عن الترفق والتواضع لهما. وفي التوجيه بخفض الجناح: تماثل لفعل الطائر عند نزوله إلى مكانه، فيخفض جناحيه عند الهبوط، وعند احتواء صغاره، حيث يخفض جناحيه عليهم، وكذلك عند حفظ بيضه، إذ يُلملمه تحت جناحيه، فهي الصورة التي تعطي دلالة التغطية لهما بالتواضع، والنزول لهما، والاحتفاء والعناية بالوالدين، والصبر والمحافظة عليهما كما يحفظ الطير صغاره. ليتبين أن خفض الجناح هو صورة بلاغية، متعاظمة في دلالتها، وأن رحابة بيانها وسعة مساحتها تستوعب جميع حالات الالتفاف على الوالدين والاستيعاب لهما، ولأطوار وتغيرات أحوالهما،

(١) مسلم، صحيح مسلم (١٩٧٨/٤) برقم (٢٥٥١)

والتواضع لهما، مع الرحمة والحكمة في التعامل الذي يُدخل السرور عليهما. فهي قاعدة ومنهجية متكاملة عن كيفية الاحتواء. فإنها وسيلة وغاية معبرة عن عظيم الاحتواء للوالدين بأدق البيان.

وجملة ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ كناية عن التواضع وترك الارتفاع، لتصف كمال التذلل في أبلغ صورة لفظية وحسية ومعنوية، فقد تناهت فيها أوجه البر، وبلاغة البيان، وعظيم الأمر، وعظيم المأمور به، وعظيم حق المأمور لهما. فخفض الجناح بالتذلل عادة ما يكون نتيجة الخوف من عقوبة عدم التذلل، والخوف من أن يجرح مشاعرهما، ولكنه ورد هنا مقروناً بالرحمة، فهو تذلل لهما من قوة الرحمة بهما، وليس خوفاً منهما، لأن الخوف من عقابهما المباشر قد تلاشت القدرة عليه منهما، فخفض جناح الذل يلزم فيه أن لا يكون تصنعاً، بل أن يكون منبعه الرحمة بهما من فرط الشفقة والعطف والحب لهما، وذلك لكبرهما، وافتقارهما لمن كان فقيراً إلى رحمتهما وعطفهما وعنايتهما ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ لأن الرحمة من الولد: انبعاث رقة وتعطّف من القلب لهما، فيقتضي ذلك الإحسان إليهما. والإحسان عندما يكون مبعثه الرحمة فإنه يظهر فيه التَّعَطّف والرقة في التعامل، وحُنُو القلب عليهما. فإنها دقة في الوصف، وتكريم من الله تعالى للوالدين، بأن أوصى بهما وصاية دقيقة وكريمة إلى أقصى ما يكون. بل وصف التذلل بالشيء المحسوس الذي له جناح، فينزل بطرف الجناح تذللاً، فيتبعه نزول كامل الجسم الذي يحمل الجناح، فإنها صورة بلاغية عجيبة عظيمة، تستدعي التأمل والتوقف عندها، استشعاراً لعظمة وصاياها، ومضمونها، وجمال دلالاتها، وتراكيب ألفاظها، ومعانيها العظيمة الذي استوفت به كمال الوصف، وكمال الأمر، وكمال المضمون وكمال الدلالة، وعظمة الأهداف والمغزى.

ثم يأمر تبارك وتعالى بالدعاء لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ وفيه انتقال من رحمة الولد بأبويه التي هي ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ إلى سؤال رحمة الله تعالى للوالدين ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ فيقوم الولد بما هو من مقدوره، ويسأل الله تعالى فيما ليس من مقدوره، سواء ما يخصهما في الدنيا، أو ما يخصهما في الآخرة. وفي قوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ تذكير وربط بين رحمتهما للولد عندما كان صغيراً، وبين حالهما وحاجتهما إلى عنايته عندما أصبحا كبيرين، فإنه توجيه للولد بنفس الصورة التي كان يحملها الوالدان لأولادهما من كمال الرعاية والإعاشة والتربية التي كان مبعثها الرحمة والرقة والحب، والمحبة المنبثقة من القلب.

وبدأ التوجيه الكريم من الله تعالى بفعل الأمر ﴿وَقُل﴾ فهو فعل أمر، يستوجب وجوب الدعاء الذي لا خيار للولد فيه ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ فالدعاء لهما بالرحمة، لقاء ما قاما به من

عناء الإعالة والتربية في الصغر. فهو تذكير للولد حتى ينبعث فيه جميل وكرم التعامل والدعاء لهما بالرحمة. وهذا الدعاء هو سؤال استجداء من الولد لله تعالى الذي يملك الرحمة، بأن يفيض على أبويه من رحماته، معللاً هذا الاستجداء بما صنعا من التربية ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ومعاناتهما حال كونه كان صغيرا. وورد الخطاب للمفرد ﴿وَقُل﴾ فهو خطاب لكل ولد منفرداً بنفسه، ليدرك مسؤوليته الفردية عن والديه، ولا يتكل على غيره، بل يقوم بما يجب عليه، ويستوفي به برهما. إنه دعاء يحمل قوة الاستجداء في الطلب. وأما الرحمة من الله تعالى فإنها إنعام وإفضال، بينما من الآدميين رقة تستدعي العطف والحنان.

وفي هذا بيان عن عظمة منهج الله تعالى، التي وضعها وضَمَّنَها في منهج الإسلام، ببر الوالدين والعناية بهما في جميع مراحل حياتهما، وخاصة عند تقدم السن، وبلوغ الكبر. وفي هذا شد لأواصر العلاقة الوالدية، وفيه كذلك طمأنة للوالدين ببر أولادهم لهما حال انتقالهما لكبر السن، وهذا يتطلب من الوالدين شكر الله تعالى على أن أوجب برهما من أولادهما، وكذلك شكر الأولاد لله تعالى الذي علمهم بر الوالدين وقضى به قضاء وجوب.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى وجوب العمل بما أوصى به، من خلال بيانه عَزَّ وجل عن علمه بما في نفوس من أوصاهم بما أمر به، ليفيد التحذير من مخالفة ما أمر به ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ فيقرر تبارك وتعالى لعباده كمال علمه الذي استوفى ما يدور في نفوسهم، ويختلج في قلوبهم ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ فإن علم الله عَزَّ وجل يستوفي ما حوته ضمائركم، فيعلم مقاصدكم، وعلل الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة، وما كان خالصاً له سبحانه وتعالى، وما كان فيه شائبة، وما هو متعلق بالأبوين من البر والإحسان، أو العقوق، وما هو من المقدور عليه، وما هو من المتعذر عليكم، وما يستطيع العبد وما لا يستطيع، وما كان تفريطاً، وما كان جهلا ونسياناً، وغيرها من العلل الباطنة غير الظاهرة، وما يلج في الضمائر من السرائر والنوايا من الخير أو الشر. وسياق الجملة يستوفي جميع ما يُسِرَّ به الإنسان ويخفيه. وهذا يفيد أن من بدرت منه بادرة خاطئة، وهو لا يقصدها، ولا يضمر المعصية من العقوق وغيرها من الأخطاء، فإنه غفور رحيم سبحانه وتعالى.

وبدأ النص الكريم بدلالة معنى ﴿رَّبُّكُمْ﴾ التي حصرت علم ذلك كله له وحده جَلَّ جلاله، مع تقرير ربوبيته، بأنه ربكم جميعاً، وأن هذا العلم الجليل الدقيق يُوجِبُ منكم توحيده، ومراقبته في السر والعلن، وأن تعبدوا الله تعالى وتطيعوه، وتخلصوا النية له سبحانه وتعالى في جميع شؤونكم، لمعرفتكم بدقائق علمه، وقدرته، وكذلك مهابة منكم له تبارك وتعالى في السر والعلانية، لعلمكم بإحاطة علمه لكم جَلَّ في علاه، حتى

الذي في نفوسكم مما تخفونه وتسترون به، وتتكتمون عليه، فإنه بذلك عليم، وكلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ أفادت المبالغة في العلم، والوصول به إلى كماله الذي لا يخفى ولا ينقص منه شيء. وأنه ليس هناك من هو أعلم منه بكم، فحصر كمال العلم له سبحانه وتعالى. وجملة ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ تستوفي جميع ما حوته الضمائر، واختلجت به الصدور، وتكتمت به القلوب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن علمه بمقاصد عباده، وبما يضمرونه من الصلاح أو الفساد ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ فإن كانت أعمالكم صالحة وفق ما أمر الله تعالى به، وكانت مقاصدكم خالصة له سبحانه وتعالى، وكنتم طائعين أوابين له عند حصول الذنب منكم، فإنه تبارك وتعالى ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي: للراجعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ فيغفر لمن أناب إليه، راجعاً عن ذنبه.

وجملة ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ﴾ تبين أن فعل الصلاح ولزوم الصلاح هو من العبد نفسه، إذ نسب فعل الصلاح للعبد، وأن العبد هو الذي يوجه نفسه نحو الصلاح، فيكون من الصالحين، أو يوجه نفسه للفساد، فيكون من المفسدين. وجملة ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ تقرير للعباد بأن ربكم تبارك وتعالى مستمر في المغفرة للأوابين. فليس هو أمر منقطع، بل مستمر لكل من آب إلى ربه تبارك وتعالى. وهذا من رحمته وكرمه عَزَّ وجل، إذ يدفع به عباده إلى التوبة والرجوع إلى الحق، وأن لا يتمادوا في الباطل عند حصول الخطأ. فهو الغني عن عباده، ومع ذلك يعاملهم بكرمه العظيم، فيسامحهم على جرمهم إذا رجعوا إليه بالتوبة.

ومن جميل دقائق البيان أن كلمة ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ تتضمن الرجوع بعد الإدبار، فكأنه عند الخطأ والوقوع في المعصية يكون العبد قد أدبر، وحال استغفاره وإقلاعه عن الذنب قد رجع فكان أواباً، أي: رجاعاً، وهي من صيغ المبالغة، التي تفيد كثرة الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وكثرة الرجوع تدل على كثرة أخطاء بني آدم التي لا حصر لها، وبالتالي عليه أن يكون أواباً لربه تبارك وتعالى، فلم ينف سبحانه وتعالى عن عباده الخطأ والتقصير، فهو واقع منهم للطبيعة البشرية، ولكن أرشدهم إلى التوبة والعودة إليه، فإذا أدرك المسلم هذه الدلالة، كان من المسرعين إلى الله تعالى بالتوبة، فكلما وقع في التقصير والخطأ عاد إلى ربه سبحانه وتعالى. فوجب أن يكون تعامل العبد مع ربه سبحانه وتعالى تعامل إجلال وتقديس وهيبة وخوف، فلا يتعمد الخطأ والتقصير، فإن حصل منه تاب ورجع إلى الله عَزَّ وجل. اللهم اغفر لنا وتُب علينا، اللهم قد رجعنا إليك، وراجعين إليك، فتب علينا واغفر لنا وارحمنا، واجعلنا من عبادك الأوابين.

ثم ينتقل البيان الكريم في تدرج متسلسل إلى ما قضى به سبحانه وتعالى في حقوق ذوي القربى والمساكين وابن السبيل ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ فبعد أن بين سبحانه وتعالى حق الأبوين عطف عليها حقوق غيرهما، ابتداء بالأقارب، ثم المساكين ثم ابن السبيل، فيأمر تبارك وتعالى بالإيتاء، وهو الإعطاء، بما يتضمنه من التمكين لهم فيما يعطيهم، وجاء التوجيه بالإعطاء في صيغة الأمر ﴿ وَءَاتِ ﴾ والذي يفيد الوجوب، من الحقوق التي لهم سواء من العطاء الحسي المادي فيما يحتاجون إليه، أو العطاء المعنوي من المشاركة والصلة، وبدأ تبارك وتعالى بالقرابة ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ وهم القرابة من قبل الأب، ومن قبل الأم، ونص التوجيه الكريم على أن هذا الإيتاء من العطاء هو حق، فسماه ﴿ حَقَّهُۥ ﴾ فأوجب للقريب حق عند المسلم القريب له، فليس هو تفضلاً، بل حق، ليبين منزلة ومكانة القريب، وهي: برهم وصلتهم، والنفقة الواجبة لهم وقت الحاجة، والمستحبة من أجل زيادة البر والصلة. وقد تناولتها كتب الفقه بالتفصيل. ومن جميل البيان اختيار الايتاء ﴿ وَءَاتِ ﴾ دون غيرها مثل: اعط، أو أنفق، لأن الإيتاء يشمل المادي كالمحسوس بالحواس، مثل المال أو المركوب أو المطعوم والمشروب، أو الآنية، ونحوها، وكذلك المعنوي كالتقدير ولطف الكلام، والرحمة والشفقة ونحو ذلك، وفيه كذلك تعظيم لما يقدمه، بما يعود عليه من الثواب العظيم، وكذلك عظيم وقعه على نفس الْمُعطَى.

ثم أضاف تبارك وتعالى نوع ثالث له حق عند المسلم من غير أقاربه ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ وهو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم[١] فالمسكين يسأل الناس لسد حاجته، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومجاهد، وجابر بن زيد، والزهري، والحكم، وابن زيد ومقاتل[٢] أي: فآت من اتصف بالمسكنة، ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر الذي انقطع به الطريق، وإن كان له مال في بلده.

ولما أمر سبحانه وتعالى بالإنفاق نهى عن الإسراف ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ مما يفيد أهمية التصدق والعون والمساعدة للمذكورين من غير إسراف ولا تبذير. والتبذير هو تفريق المال من غير تحصيل مواقعه ومقتضاه، ولوازم مكانه الذي يوضع فيه، وهو الإسراف بمجاوزة الحد الذي تنقضي به الحاجة إلى درجة الإسراف. وهو إنفاق في غير حقه. قال القرطبي: قال الشافعي رحمهم الله تعالى جميعاً: والتبذير إنفاق المال في غير حقه،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٤/١١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٩/٣)

ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور[١] فعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: أنه إنفاق المال في غير حق. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: لو أنفق الرجل ماله كله في حق، ما كان مبذراً، ولوا أنفق مُدّاً في غير حق كان مبذراً. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: التبذير النفقة في غير طاعة الله تعالى[٢] وورد النهي عن التبذير بصيغة النهي المُؤكد فكلمة ﴿تَبۡذِيرًا﴾ مؤكدة لما قبلها، التي نهى الشارع الحكيم عنها، وهي ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ مما يدل على أهمية العطاء في حُسن إنفاق، من غير تجاوز إلى التبذير. مما يبين عناية الإسلام بالعطاء وبالناس، وتفقد أحوالهم، وألا يحصر الإنسان ما أعطاه الله تعالى على نفسه فقط، بل يمد الإنفاق على غيره. ليتبين أن هذا الدِّين هو دين تكافل وتراحم وتعاضد.

ثم يزداد النهي عن التبذير بتشنيع حال المبذر ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ ففي هذه الآية الكريمة تعليل لما نهى عنه تبارك وتعالى من التبذير في الآية السابقة لها. فإن الذين اتصفوا بالتبذير مصاحبون بالمماثلة للشياطين في تصرفهم ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فإنهم ملازمون للشياطين في المماثلة والمشاكلة والموافقة، أي في التبذير والسفه، وارتكاب المعصية، وترك الطاعة لله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالأخوة المماثلة التامة[٣] لأن في ذلك طاعة للشيطان بمعصية الله تعالى فيما نهى عنه عَزَّ وجل من التبذير نهياً مؤكداً.

ثم وصف تبارك وتعالى الشيطان في علاقته بربه تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ ليزداد به التحذير والتشنيع والتنفير من مماثلة الشيطان. فإنه كان جحوداً بإنكاره نعمة الله تعالى عليه، فلم يطع ربه عَزَّ وجل، فهو كثير الكفران، لأن كلمة ﴿كَفُورًا﴾ تفيد المبالغة، بكثرة أوجه الكفر والإنكار والتمرد على الحق، فكل متمرد على الحق مشابه للشيطان في وجه من أوجه التمرد والكفر. مما يستلزم من المؤمن الحذر من مسالك المعصية، والتي منها التبذير بالنعمة.

وبعد أن أوجب تبارك وتعالى إيتاء ذوي القرابة والمساكين وابن السبيل بما يستحقون من العون، مع النهى عن التبذير في العطاء، عالج الاحتمالات المتوقع حصولها، فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦١/١٠)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١/٥)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٢١/٣)

رَحۡمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾ ففي حالة الإعراض عن ايتاء ذوي القربى والمساكين وابن السبيل بما أمركم ربكم به من الإيتاء، لفقدانكم ما تنفقونه عليهم، بسبب الإعسار ﴿ فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾ والقول الميسور هو ما اتصف وتحلى باليسر والسهولة والرفق الذي تقبله وتتفاعل معه النفوس، فيلزم أن يكون القول خالياً من الشدة والغلظة والجفاء. كأن تعدهم وعداً سهلاً وليناً، بأنه حال مجيء رزق الله تعالى نصلكم به إن شاء الله تعالى، فوردت المعالجة الربانية بأنه حال تعذر مَدّ العون والمساعدة للمأمور بإيصالهم من العطاء، فإن التعامل يكون من خلال القول الميسور ﴿ فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾ فهذا التوجيه الكريم متضمن لدقة منهج الله تعالى في معالجة الاحتمال المتوقع حصوله. فَيُقَعِّد قاعدة عظيمة، بأهمية استيفاء الاحتمالات المتوقعة، وأهمية مراعات الأحوال، وأن منهج لمعالجة الحقيقية هو الذي يستوفي الأحوال، ويعالجها معالجة واقعية، وصحيحة، وتتحقق بها المصلحة.

ومن دقائق البيان وغزارة معطياته ودلالاته أن ورد القول الميسور بصيغة التعميم الذي لم يُذكر ويُحدد في نوع محدد، وإنما ﴿ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴾ ليستوعب جميع حالات القول المناسب لاختلاف المواقف والمقامات، وأنواع الحاجات، المتعلقة بالقول الميسور، فهناك قول ميسور في نوع اللفظ، وفي نوع الرد ومضمونه، وأيضاً حال المردود عليه، ومقامه، وصلته وقرابته، وما يناسبه من جميل القول. فظهر الإعجاز البياني في بلاغة التوجيه، وفي مضمونه، وغزارة دلالته، وما يحققه من التآلف والتواد، وجميل التلطّف. وقد أفاد واستوعب الضمير من جملة ﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ﴾ استوفى القرابة والمساكين وابن السبيل. فلفظة ﴿ عَنۡهُمُ ﴾ استوفت القرابة والمساكين وابن السبيل.

وقد ورد التوجيه الكريم عاماً، ليشمل عموم المخاطبين من غير استثناء ﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ﴾ وهو امتداد لما قبله من التوجيه في قوله تعالى ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ ولا يمنع أن يكون الخطاب موجّه للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن غيره تبع له عليه الصلاة والسلام، وهذا الشمول في السياق دلالة على كمال الأوجه وتعاضدها، فلا تضاد بينها، ليدل على عمق البيان وغزارته وإعجازه في تراكيب بيانه وبنيانه العظيم.

وأفاد لفظ ﴿ وَإِمَّا ﴾ الحال التي يمكن أن تكون على خلاف المتوقع، وإما أن حالك أيها المخاطب والمأمور بما أمرتك به، مستلزم الامتناع، وهو الإعراض ﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ﴾ فالموقف يستلزم منك

الامتناع بعدم الإقبال والقبول للإيتاء بما أُمِرت به ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي: عِدهم وعداً سهلاً وليناً.

وجملة ﴿ تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ تحمل تصوير وتشخيص الحال من جميع جوانبه، فالإعراض في هذا السياق هو حالة مضادة للإقبال، لوجود الحياء الذي يكتنف الإنسان، فيمنعه من عدم مقابلة الغير، فإعراضه عنهم ليس كرهاً لهم، ولكن كرهاً لعدم قدرته، وحياء منهم، فيتوارى عنهم. وقد حصر سبحانه وتعالى الإعراض عنهم في مقابلتهم، وليس في الإعراض عن العطاء ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ فالإعراض واقع على مقابلتهم بالعطاء، لأن الضمير في قوله تعالى ﴿ تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ حصر وقوع الإعراض عنهم في مقابلتهم بما يريدون من العطاء، وليس إعراضاً عن العطاء، كما لم يذكر سبحانه وتعالى نوع الْمُتَعَذَّر إيتاؤه، الذي هو غير المقدور عليه، ليستوفي جميع أنواعه، فتبين أنه لا يسد مسد جملة ﴿ تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ غيرها، ليدل على الإعجاز البياني في كتاب الله تعالى، وأنه كلام ربنا عَزَّ وجل. وهذه من دقائق البيان، وعمقها في تخصيص دلالة المقصد بالقصر والحصر، تحديداً دقيقاً بتعيين المراد ذاته، وبدقة لا يحتمل الفهم غيرها، وبما تنتفي معه الاحتمالات المضادة له. فجاء السياق آية عظيمة باهرة من كل وجه. وفيه دقة في تعليم تحرير الكلام عند الخطاب، وعند تحرير اللوائح التنظيمية.

ثم علل تبارك وتعالى سبب وعلة الإعراض عنهم، بأنها نتيجة عدم وجود ما يعطيهم، فوردت المعالجة من خلال بيان ما يرجوه الْمُخَاطَب من ربه تبارك وتعالى حتى يعطيهم ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ رجاء أن يصل له شيء من رحمة الله تعالى وكرمه وإحسانه، لقاء ما يقابلهم به مما يحبون، ويرجون أن يُقابلهم به من العطاء والعون، مما يفيد أن الرزق والعطاء بجميع أنواعه هو من الله تعالى، وأن الرزق داخل في دلالة ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ التي هي سِعَةِ رحمته جَلَّ في علاه، إذ سمى ما يرجوه العبد مما يبتغيه بالرحمة ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ ﴾ وأن مصدر هذه الرحمة هو الله تعالى ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ فهي رحمة يأمل تحققها من الرب سبحانه وتعالى، وفيه بيان لأهمية الأمل في كرم الله تعالى وعطائه.

وكلمة الرب ﴿ رَّبِّكَ ﴾ تستثير دلالة الربوبية، بأنه ربي ورب كل شيء ومالكه، فيقرر العبد أن الله تعالى هو المعطي عَزَّ في علاه من ملكه العظيم. وكلمة ﴿ ٱبْتِغَآءَ ﴾ أفادت الطلب من العبد، والذي تعلق بالرجاء ﴿ تَرْجُوهَا ﴾ الذي يرجوه ويأمله أن يتحقق حتى يعطي منه غيره. فإنها جملة معبرة عن كمال العبودية في الرجاء والابتغاء والطلب من الله سبحانه وتعالى، وتحقيق توحيد الله عَزَّ وجل برجاء العبد له وحده لا شريك له. فإنها جملة معبرة من كل وجه، سواء في العبودية أو الاعتقاد والتوحيد والربوبية، مع جمال النسق والمعاني والدلالات، فإنها مملوءة بالعُذُوبة من كل وجه.

ولقد أعطت هذه الآية المنهجية في التعامل مع المذكورين من ذوي القربى المساكين وابن السبيل، بأنه حالة تعذر القدرة عن معاونتهم ومساعدتهم فليقابلهم بالكلام الطيب الذي يحمل الاعتذار عن واقع الحال، مع نية وإرادة المعاونة في قادم الإيام عند حصول الرزق من الرزاق الكريم، وفيها النهي عن مقابلة الغير بالحدة، والأسلوب المضاد للقول الكريم، لأن الأمر بالشيء نهي عن اضداده، وفيها أن تشريع الإسلام يؤلف بين أفراد المجتمع، ويحقق بينهم التعاون والتواد والتراحم ابتغاء فضل الله تعالى وطاعته وثوابه. وفيه فضل الأمل والرجاء في الله تعالى، وأنه سيكرمه ويعطيه من الخير، وفيه كذلك بأن لا يمنع المسلم خيره عن غيره، بل يكون كريماً في تعامله. وفي الآية كذلك أن الله تعالى جعل الناس متفاوتين في الأرزاق بحكمته. وأن شريعة الله تعالى تحق التكامل والتآلف.

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ
نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ
سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ
سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ
حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ
ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالعطاء، ونهى عن التبذير، وأمر بالقول الميسور، يأمر تبارك وتعالى عباده بالتزام منهجية الإنفاق وأخلاقياته وآدابه. فقال عزَّ وجل ﴿ **وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا** ﴾ يتوجه الخطاب إلى عموم المكلفين بالنهي عن الإمساك الذي يُضَيِّق به على نفسه، فضلاً عن غيره من الأهل، ومن القرابة والمساكين وابن السبيل، وفي نفس الوقت ينهاه سبحانه وتعالى عن مجاوزة الحد الذي يخرج به عن الاعتدال والتوسط، فيأمره بالعدل الذي يقع بين الغلول وبين كل البسط، فتصبح ﴿ **مَلُومٗا مَّحۡسُورًا** ﴾ فتصبح ملوما من الناس على تصرفاتك التي خرجت بك إلى ﴿ **مَّحۡسُورًا** ﴾ أي: منقطعاً، لا شيء عندك من المال، فتصبح حاسر اليدين، فارغة من المال. فجمع لنفسه بالتدبير غير العادل مذمة الناس له على تصرفه، وكذلك جمع معها فراغ اليدين من القدرة على المال. وفي هذا

تنظيم اقتصادي للفرد في تصرفاته المالية، بما يُوجب الحكمة في الموازنة بين الإنفاق والإمساك، والحكمة في الصرف، وأنه يلزم الإنسان الادِّخار وإبقاء شيء في اليد.

وقد ورد مطلع التوجيه الكريم بالنهي ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ ﴾ ليفيد التنبيه، ورفع درجة التوجيه في التعليم إلى المنع، الذي حمل معنى التحذير الشديد، وجاء البيان بصورة اليد الممسكة إمساكاً محكماً، من شدة البخل. فجاء القبض منها بالصورة والهيئة التي اعتلت بها إلى أبعد ما يكون من الارتفاع، فكان إلى العنق ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ فاليد التي هي مصدر العطاء، تحولت من البسط ولامتداد بالعطاء إلى الانكماش والامتناع، وكأنها مقيدة لا تستطيع أن تمتد وتنبسط بالعطاء، لارتفاعها إلى العنق، بل ومن شدة المنع والشح أن قيدها في عنقه، لتكون أكثر امتناعاً وتحرزاً من العطاء والإنفاق، فإنها صورة معبرة لمن أمسك، وهي الصورة والحقيقة التي يمقتها الله تبارك وتعالى، لما فيها من المنع، وتعطيل المصالح والمنافع التي يتحقق بها الإنفاق، بل ويتحقق بهذا المسك من القبض إيقاع الضرر بالنفس والأهل، ومن لهم حق عليه في العون والمساعدة.

وفي المقابل يحذر تبارك وتعالى عباده من أضداد الغلول، وذلك بمجاوزة الحد في العطاء، إلى درجة الإسراف. ففي المقابل يُعَلِّم اللهُ تعالى عباده بالنهي والتحذير عن الوجه الآخر، المضاد والْمُقَابِل، والمعاكس لغلول اليد بالإنفاق، وهو الامتداد في الإنفاق إلى درجة الإسراف، وعدم التوازن ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ فلا تنشر العطاء نشراً مبالغاً فيه، فتمتد به يديك حتى لا يبقى عندك منه شيء، وكلمة البسط تفيد: النشر والكشف والْعَرْض، فأفادت في السياق أن لا تسرف في العطاء إلى درجة تفريغ يدك مما عندك مما تملك، فتصل إلى درجة انكشاف أمرك لغيرك، فينالك الذم منهم على تصرفك ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴾ فتجلس ملوماً من غيرك، حتى تصبح مكاناً للوم من غيرك لك، وكذلك تجلس محسور اليدين، من عدم القدرة على الإنفاق، لسوء التصرف في مالك. وفي هذا توجيه لمنهجية الإنفاق العملية، والمنضبطة بضابط التوسط. بأن تكون عدلاً بين كل البسط وبين غلول اليد، وفي ذلك تعليم وتوجيه لقاعدة اقتصادية مهمة، وركيزة للحياة السعيدة، وفيها بيان لأهمية التوفير، وأهمية وضع الاحتمالات للعواقب في الحسبان، وأهمية الحكمة في المصروفات، والموازنة بين المدخولات المالية والمصروفات، كما أن النص الكريم استوعب جميع مراتب الناس بحسب ما يملكون، إذ يتفاوت الإنفاق بحسب الموجودات، فما ينفقه الغني، غير ما ينفقه المتوسط في غناه، وكل يمسك وينفق بالقدر الذي يتناسب مع ماله وحاله.

ثم يُعَلِّم ويُفهِمُ اللهُ تعالى عباده في تدرج دقيق بما يُزيل عنهم الحسرة على ما فاتهم، أو ما يدفعهم الى التباهي، فيقرر لهم أن الرزق بيديه عَزَّ وجل، يوزعه بين عباده بما يشاء، وكيف يشاء، ووفق تدبيره وحكمته

جَلَّ في علاه. فقال جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذي يبسط ويُقَدِّرُ الرزقَ لعباده، وأن تقديره وفق مشيئته ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ فيبدأ تقرير الرزق بالتوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ التي أكدت ما بعدها من بسط الرزق لمن يشاء سبحانه وتعالى. وحصر عَزَّ وجل بسط وتقدير الرزق له وحده لا شريك له ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ فليس غيره الذي يقرر الرزق، ولا حتى العبد لنفسه، غير أن العبد يأخذ بالأسباب، ولا يصيب بالأسباب إلا ما قرره الله تعالى له. فقرر سبحانه وتعالى أن توسعة الرزق له وحده عَزَّ في علاه، وهي البسط ﴿ يَبۡسُطُ ﴾ أي: يُوسِّع. فحدد تبارك وتعالى أن البسط مقترن بمشيئته جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ فيكون الرزق وفق مشيئته: نوعاً وكثرة، وقلة، ووسطاً. وهو الذي يقلله على من يشاء ﴿ وَيَقۡدِرُ ﴾ أي: يقلله ويقتره على من يشاء، وبالقدر الذي يشاء. وبالتالي فإن الشح ليس هو الذي سَيُبقي الرزق، وليس الإنفاق هو الذي يفنيه ويهلكه.

ليدرك الْمُخَاطب أن الذي أعطاك وأمرك أن تعطي مما أعطاك هو الذي أحوج غيرك إليك، وإلى ما عندك مما أعطاك وملَّكك سبحانه وتعالى، ولو شاء لجعلك مكان غيرك، وغيرك مكانك في الرزق، فلست أنت الذي أعطيت نفسك، ولا غيرك حرم نفسه، إلا أن يكون بتعطيله للأسباب، فالجميع يطمعون ويبتغون الرزق، ولكن أجرى عطاءه لهم عَزَّ وجل بما يناسب علمه بعباده، ومعرفته لما يصلح لهم من البسط أو القلة، فأجرى عطاءه لهم على ذلك. وأكد ذلك بقوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ والخبير هو الذي أحاط بعلمه ما ظهر وما بطن، فهو الذي عنده خبر كل شيء، فلا تعزب عنه الأخبار، ولا الأحوال، فهو خبير بخفايا ما يصلح لكل عبد من عباده، وما لا يصلح له، وهو كذلك سبحانه وتعالى ﴿ بَصِيرٗا ﴾ فهو الذي يرى كل شيء، مهما تناهى في صغره، وتضاءل في حجمه وخفي، ومعرفة مغبة كل شيء. فإن الله تعالى يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، فقد تناهى علمه ومعرفته سبحانه وتعالى بكل شيء، فإن تقديره لأرزاق عباده وفق علمه ومعرفته المتناهية بمصالحهم، مما يفيد: بأن لا يتباهى الإنسان بما عنده، ولا يفرح بما ناله من الخير بالتباهي، ولا يزدري غيره، فهو الذي أعطى بحكمته، فعلى العبد أن يشكر ربه عَزَّ وجل، وأن يطيعه فيما أمر، ومن ذلك الإنفاق، من غير إسراف ولا تقتير. وأيضاً بأن لا تحزن على غيرك، فهو الأعلم بهم. ولا تحتقر من قَلَّ رزقه، فإن الله تعالى هو الذي قَدَّر الأرزاق بين العباد، وإنما هم يسعون أخذاً بالأسباب.

فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يوسع الرزق ويُكَثِّره لمن يشاء ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فيكثره ويوسعه، وكذلك هو الذي يقلله ﴿وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يقلله ويقتره على من يشاء، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، أو أمماً، فإن الأمر يخضع لمشيئته سبحانه وتعالى وحكمته، لينتفي بهذا النص الكريم ألفهم الخاطئ، من أنه مُرتبط برضا الله تعالى عن مَنْ بُسِط له الرزق، وعن غضبه وسخطه عَزَّ وجل على من قُدِرَ عليه رزقه. فقد يوسع تبارك وتعالى على العاصي والكافر لحكمة أرادها الله تعالى، وقد يقتر ويقلل على المؤمن لحكمة يعلمها العزيز الحكيم، فليس لذلك علاقة بكرامة العبد ومنزلته في الآخرة، فلا يدل البسط على الكرامة، ولا يدل التقتير على الإهانة. وفي هذا ما يدل على أهمية إزالة الفهم الخاطئ، في حال التعليم والإرشاد، والدعوة، وغيرها، من أجل إزالة ما يترتب على المفاهيم الخاطئة من شك أو ريبة، أو تصور خاطئ، أو اعتقاد مناف للحقيقة، مما يدل على عناية هذا الدين بالعقل وسلامته في تفكيره تحليله واستنباطه واستنتاجه، وكذلك تصحيح وتصويب مسار وحقائق القياس، والاستنتاج والاستنباط.

ولما أنه قد ينشأ من الفهم الخاطئ للأرزاق، قتل الأولاد مخافة الفقر، نهى تبارك وتعالى عن ذلك، بعد أن صحح مفهوم الرزق، وفي هذا التتابع المتدرج في البيان ما يبين دقة القرآن في المعالجة، إذ بدأ بتصحيح المفاهيم عن الرزق، والتي تمثلت في الجهل المركب عن تحصيل الرزق عند الناس، ثم تلاها معالجة ما ترتب على ذلك الجهل المركب من قتل الأولاد مخافة الفقر. فيقرر تبارك وتعالى بما قضى به، ابتداء من قوله عَزَّ وجل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وما بعدها من التشريع الكريم التي تناولتها الآيات السابقة. فإن مما قضى به سبحانه وتعالى هو حفظ الأولاد، بتحريم قتلهم خشية الفقر ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ وورد الخطاب بسياق العموم، ليفيد انتشاره في الجاهلية ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ وأعطى النهي حكم التحريم، مبيناً سبحانه وتعالى علة قتلهم لأولادهم بأنه ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ مخافة حصول الفقر، بسبب الإنفاق عليهم، فإن العلة التي يقتلون بسببها أولادهم هي ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ مخافة الفقر، وفي هذا تحليل للواقع وعلته، بما يبين أنكم تعتقدون أن الرزق منكم، وأن خوفكم ومهابتكم من الوقوع في الإملاق الذي هو الفقر، هو الذي أدى بكم ذلك إلى قتلهم، لعلة ما تستهلكه الذرية من المطعوم والملبوس. فإن قضيتكم محصورة في فهمكم لمصدر الرزق. ولتأتي بعد ذلك المعالجة التوجيهية من الله تعالى لهذا الشأن، وذلك بالكشف عن موقع الخطأ الكائن في فهم حصول مصدر الرزق، وما ترتب عليه من فعل القتل، فيعلمهم سبحانه وتعالى بحقيقة الرزق، بأنه منه تبارك وتعالى، فقال جَلَّ جلاله ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فنحن المتكفلين برزقهم ورزقكم، فليس الرزق منكم لهم، بل هو مِنَّا لهم، بل أكده سبحانه

وتعالى بأن رزقكم هو من عند الله تعالى، وليس منكم لأنفسكم، فرزقنا لهم ولكم، وقدم رزق الذرية على رزق الوالدين بياناً بأن الذي تعيشون من فضله هو الذي يرزقهم كما رزقكم، فكيف أنتم عائشون؟ أليس برزق يصل إليكم بتهيئة أسبابه؟ فكذلك الذرية، فأين المشكلة إذاً؟ فإنها معالجة ربانية، يَرُدُّ بها الجاهل إلى الحقيقة رداً مقنعاً.

وابتدأ النص الكريم بالتفخيم لجلاله وجلالته سبحانه وتعالى ﴿ نَّحْنُ ﴾ فجاء ضمير المتكلم بصيغة التعظيم والتفخيم، ليتبين للمخاطبين عظمة الله تعالى وجلالته، وعظيم تدبيره، وبالتالي عظيم كرمه ورزقه لعباده ولذريتهم، وتسخيرهم لبعض، ليحصل التآلف والتعاون. مما يفيد أن كل ما يتعلق بتحديد النسل مخافة الفقر، أو أن الغذاء لا يتناسب مع تزايد عدد السكان هو فهم خاطئ، ينطبق عليه مدلول هذه الآية الكريمة.

ثم يكرر سبحانه وتعالى حكم التحريم بعد النهي عن قتلهم، وذلك بتقرير حرمته في شريعته تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي: إثماً متعاظماً. ففي هذا تهويل وتحذير من الوقوع في قتل الذرية. مما يدل على كرامة النفس ومنزلتها عند الله تعالى. فإن قتلهم ﴿ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي: إثماً، وهذا الإثم متعاظم في ذنبه، وفي الجزاء والعقاب لمن فعله، والخِطأ بالكسر هو العمد في تحصيل الإثم، بينما الخَطَأ بالفتح هو فيما لم يتعمده الإنسان، ويُحكى عن العرب: خَطِئتُ: إذا أذنبت عمداً. وأخطأت إذا وقع منك الذنب على غير عمد منك له[1] وقد أورد ابن الجوزي الأقوال في ذلك[2] وقد جاء الحُكم بتجريم وتحريم فعل القتل بعد إزالة الجهل والوهم. مما يبين المنهجية الصحيحة في التعليم، بأن تكون قائمة على معرفة العلل وعوامل الخطأ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، بالقرائن والأدلة الواضحة، ثم يتدرج الأمر إلى الحكم، حتى يكون على بينة من الأمر. وأن التجريم والتحريم يأتي بعد بيان الحكم.

ومما قضى به تبارك وتعالى تحريم الزنا، ووصفه عَزَّ وجل بأبلغ وأشنع أوصاف القبح ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ فبعد أن نهى وحَرَّم تبارك وتعالى قتل النسل في الآية السابقة حرم في هذه الآية ما يفضي إلى زيادة النسل بغير ما شرع سبحانه وتعالى، لما فيه من اختلاط الأنساب، والتعدي على المحرمات. وجاء النهي بأدق وسائل التحذير المفضية إليه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ فنهى عن مجرد الاقتراب من دواعيه المفضية إليه، ومباشرة مقدماته، وملابسة أسباب تحصيله، مما يدل على شدة النهي عن إتيانه، فإذا كان التحذير عن مقدماته وأسباب تحصيله، فإن في ذلك تشديد لحكم التحريم في تحصيله، وتعظيم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٥٧٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٤)

إثمه. وذلك أن الوسائل لها حكم المقاصد، فالوسائل المفضية إلى محرم فهي محرمة، والوسائل المفضية إلى مباح مباحة، والمفضية إلى واجب أو مستحب لها حكم المقاصد، وورد النهي بتعميم الخطاب ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ﴾ فهو نهي للأمة جميعاً، وخاصة لشيوعه في الجاهلية. ثم بعد أن أوضح تبارك وتعالى حكمه بالنهي عنه، أكد نهيه عنه بتوصيفه بأسوأ وأقبح الأوصاف، فقال جَلَّ جلاله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ وفي ورود ﴿كَانَ ﴾ ما يدل على أن حكمه التشريعي مستقر ثابت له، وليس حادث، بل هو أبدي. وأفاد معنى كلمة ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ شدة التقبيح له، أي: قبيحاً فاحشاً، ومبالغ في قبحه، وقد تجاوز فيه الذم ذروته، والفاحشة لفظة لما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

ومن دقة البيان القرآني الكريم أن ذكر الزنى بلفظ ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ لتشمل وتستوعب فعل الزنا، وصفته. ومن مزيد التقبيح له، أن تم تأكيد شناعته بما يفضي إليه، بأنه ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس طريقاً ومنهجاً، وبئس المسلك لقضاء الأوطار فاحشة الزنا، وما يفضي إليه من انتهاك الأعراض واختلاط الأنساب، وأنه المسلك الذي يرتكب به العبد العظيم من الذنوب. لأن الزنا من كبائر الذنوب.

ومما قضى به تبارك وتعالى في تشريعه العظيم، حفظ النفس التي حرم الله قتلها من غير حق، فبعد أن شَرَّع تبارك وتعالى لعباده حفظ نفوس الأولاد، بتحريم قتلهم أحياء، خشية الإملاق وهو الفقر، وحَرَّم الزنا الذي يُفضي إلى إيجاد الأنفس من غير الوجه والطريق الشرعي، بل وربما أدى إلى الاقتتال وإزهاق الأنفس بسبب جريمتها، فقد تلى هذا تحريم قتل النفس من غير حق موجب لها، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ فوجَّه سبحانه وتعالى أمره الكريم لعباده جميعاً ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ﴾ والنهي يفيد التحريم، وقد زاد تأكيده بالتنصيص على أن الأصل في النفس هو عصمتها وحرمتها من أن تُزهق بغير موجب لذلك، وهو الحق الذي يمكن أن تُقتل بسببه ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ بما يبين ويؤكد أن الأصل في النفس حصانتها من القتل، وحقها في الحياة، وأن الله تعالى حرم قتلها، بل ونسب تحريم قتلها إليه عَزَّ وجل، ليدل ذلك على منزلتها ومكانتها ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ واستثنى من تحريم القتل ما كان بموجب شرعي، وهو الحق ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو ما يباح أو يجب فيه القتل، كالقتال في الحرب، أو كالقصاص، وقتل الزاني والزانية المحصن، فلا تُقتل النفس إلا بالحق الموجب لقتلها. وهذا

من حفظ النفوس، والعناية بها، وبكرامتها، وإثبات حقها في الحياة، وأن شرع الله تعالى قائم على حفظ الأنفس، وتحقيق الأمن، وأن الأصل بقاء الإنسان إلا بموجب شرعي يستوجب قتله. وفي هذا التشريع تنظيم عظيم لحياة الإنسان وتواجده وتكاثره بطريقة صحيحة ومنظمة وآمنة.

ثم تناول التشريع الكريم من الله العزيز الحكيم معالجة شأن مَن قُتِل ظلماً ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ فمن قُتِل ظلماً بغير حق، فإن الحجة والسلطان لوليه في القصاص، فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء طلب إنفاذ القصاص ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ والسلطان هو الحجة على القاتل، بأن يحكم بطلب القصاص منه، أو التنازل، أو أخذ الدية، فالخيار له.

ثم وجَّه تبارك وتعالى ولي المقتول إلى الاعتدال في المقاضاة ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ﴾ أي: لا يتجاوز الحق في القصاص. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فلا تقتل بالمقتول ظلماً غير قاتله...وإن قتلت القاتل بالمقتول فلا تُمَثِّل به[1] مما يفيد تحريم التعدي بالظلم، والتحذير من الوقوع فيه. مما يدل على عدالة هذه الشريعة، ومنعها للظلم، بما يؤسس ويربي في نفوس المسلمين العدل الذي يحقق المصالح، ويمنع التجاوزات ويحقق الأمن، ويُوفِّي لكل صاحب حق حقه من غير تعدي، ولا بغي. فالتعدي والبغي في القصاص يجر إلى المزيد منه.

ثم وعد تبارك وتعالى بالانتصار للمظلوم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ وهذا وعد مُؤكد من الله العزيز الحكيم. خاصة وقد تقدم الوعد فعل ﴿كَانَ ﴾ الذي يفيد ثبوت النصر وتحققه. وفي المقصود بالمنصور كما أورده ابن الجوزي رحمه الله تعالى: بأنها ترجع للولي، فالمعنى إنه كان منصوراً بتمكينه من القَوَد، قاله قتادة والجمهور. والثاني: أنها ترجع للمقتول، فالمعنى: أنه كان منصوراً بقتل قاتله، قاله مجاهد. والثالث: أنها ترجع إلى الدم، فالمعنى: أن دم المقتول كان منصوراً، أي مطلوباً به. والرابع: أنها ترجع إلى القتل. ذكر القولين الفراء[2] ومن الملاحظ على تلك الأقوال أنها تستوفي جميع أوجه النصر، فلا تعارض بينها، إذ لا يمنع من دلالة قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أن الله تعالى سوف يُمَكِّن سقوط الجاني في إنفاذ الحكم عليه، فينصر الله تعالى ولي المقتول، وينصر به المقتول بأخذ حقه، وينصر حرمة دمه، وأن القاتل مطلوب بدم من قتله. ومما يؤكد ذلك أن السياق يفي بتلك الدلالات ويستوعبها جميعاً. فإذا رُبطت دلالة ﴿مَنصُورًا ﴾ بما قبلها ﴿فَلَا

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٤/١٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥/٥)

يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ ﴾ كانت متعلقة بولي الدم، وإن كان النصر متعلق بالضمير ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ فإن الضمير يعود للولي، وكذلك يستوعب أن يعود للمقتول. وهذا من إعجاز البيان في سياقه، وبلاغة تراكيب ألفاظه، ليتبين أن كلام الله تعالى معجز في بيانه وبنيانه، كما هو معجز في غاياته ومضمونه، وإحكامه وأحكامه.

ثم ينتقل السياق الكريم، وفي تدرج بديع إلى ما قضى به سبحانه وتعالى عن تنظيم التعامل في الأموال وأحكامها وتشريعها فيما يخص مال اليتيم ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ ينهى ويحذر تبارك وتعالى من التعرض لمال اليتيم إلا بما فيه مصلحته، وصلاحه بالنماء والحفظ، وتثميره وتكثيره ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ ﴾ ففي هذا النهي تحذير وتهويل من التعرض لمال اليتيم، فجملة ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ﴾ نهي عن مجرد الاقتراب منه، ليفيد شدة التحذير، وجاء النهي عاماً، ليشمل كل من له سلطة أو قدرة على الوصول إلى مال اليتيم، سواء كان بعلة القرابة، أو بعلة التعامل والإفادة، أو لأي علة أخرى، كارتباط مال اليتيم بمال آخر أثناء وجود المورِّث، وهذه من دقائق البيان، ومن دقائق الأحكام، ومن دقائق الإعجاز في كتاب الله تعالى.

ثم استثنى تبارك وتعالى حالة النصح لليتيم وماله ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ فيشمل ذلك الاستثناء جميع أوجه النفع التي يتحقق بها الإحسان، ففي هذه الحال جاز تحقيق المصلحة، وقد جمعت كلمة ﴿ أَحۡسَنُ ﴾ شرط التصرف في مال اليتيم، فاستوعبت جميع أوجه النفع، لتشمل مصادر ومجالات النفع عبر تغير الأحوال والأزمان، والوسائل والأسباب، فلم تُقيده بوسيلة محددة، أو بمجال مُعَيَّن، ليعم حكمها، وتستوعب مساحة دلالتها جميع مفردات وتعدد وتنوع وتجدد أسباب النفع ومجالاته ومستجداته التي تتجدد بتغير الأحوال والأزمان، وهذه من دقائق الأحكام الفقهية وإعجازها، وكذلك من دقائق الإعجاز البياني اختيار اللفظة المستوفية لما لا يحصيه غيرها، فتعطي الفقيه والوصي والناظر على مال وملك اليتيم المساحة الواسعة التي ينصلح وينمو بها مال اليتيم.

وجملة ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ ﴾ تفيد حصانة مال اليتيم من التصرف فيه لغير مصلحته، كمصلحة الولي أو الناظر أو غيره، وتفيد أن الأصل في مال اليتيم هو عدم التصرف فيه، بل البعد عن الاقتراب منه، أو التفكير في التصرف فيه لغير مصلحة اليتيم. وجملة ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ﴾ تفيد الحذر والتحذير من الاقتراب منه، بل تؤكد الابتعاد عنه، أو التفكير في تحصيل شيء منه، إلا على سبيل مصلحة اليتيم، ومصلحة

المال التي هي من مصلحة اليتيم. فجملة ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ﴾ تحذير وقائي مؤثر ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي: احفظوا ماله بالتي أحسن حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

والأشد هو: بلوغ مبلغ النكاح، وحصول الرشد، فإذا بلغ ذلك ادفعوا إليه ماله، فصفة الأشد تبلغ بتكامل صفتين: كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ أي: بلغ مبلغ النكاح، وحصلت الاستقامة في تصرفاته، بما يمتنع معها الغي والضلال. والرشد كما قال الفيروزي ابادي رحمه الله تعالى، هو: الاستقامة على طريق الحق[١] وهو الصلاح، وإصابة الصواب، وهو خلاف الغي والضلال[٢] مما يفيد دقة العناية باليتيم وماله، ودقة الفقه وإعجازه المتناهي في دقائق توصيفه لحال اليتيم في هذا المقام، ولحال التصرف في ماله، وكما أن هذه الدقة تبين عناية الله تعالى باليتيم وماله، فإنها كذلك تتضمن إعجازاً فقهياً، وكذلك فيها إعطاء التقدير الكافي والكامل للحكم على اليتيم، بأن يبلغ الاحتلام، وأيضاً أن يستوفي حُسن التصرف في ماله، احترازاً من الغرور بقوة البدن، وظهور مظهر الرجولة البدنية، وخفاء القدرة على التصرف، بل لا بد من ظهور القدرة على حُسن التصرف بما يحقق النفع، ويمنع الغي والضلال، فتكون حالته خالية من الجهالة والسفه، وهذا من قوة الدقة وعمق التحرز لحفظ مال اليتيم.

وحتى يتحقق الرشد في اليتيم فإنه يستدعي ذلك أن يقوم الوصي أو القائم على أمر اليتيم بتدريبه وتعليمه على ما يعينه على حصول الرشد واندفاع الجهالة والسفه، حتى ينتفع بماله الانتفاع الصحيح، كما يدل هذا التوجيه الكريم على عناية منهج الله تعالى بالمال، وحُسن التصرف فيه، إذ ربط الله تعالى تمكين اليتيم من حقه المالي بحصول الأشد ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وقد أورد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى قول سعيد بن جبير في معنى الأشد، أي: يعني صلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم، وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري، وغير واحد من الأئمة، كما قال الفقهاء: إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه، فَيُسَلَّم إليه ماله الذي تحت يد وليه[٣] ومن جليل الفوائد أن المظهر قد يختلف عن المخبر، فقد يظهر من البدن القوة الجسمية، والسلامة الصحية، وبلوغ مبلغ الرجال، ولكن هناك قوة العقل التي مظهرها في التصرف الحكيم، فربط سبحانه وتعالى ذلك بتحصيل هذه الركيزة، والتي هي الركن المهم، الذي بها يحفظ المال. فقد علمنا ربنا

(١) الفيروزي آبادي، القاموس المحيط (١/٢٩٤)

(٢) الفيومي، المصباح المنير (١/٢١٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٦٣)

تبارك وتعالى دقائق التصرف، بما يُعَلِّم ويرفع من تفكير وعقل الإنسان إلى أعلى المستويات. بل ويُعلمه كيف يحرر الأنظمة التي تدخل تحت المصالح المرسلة، التي تتجدد في حياة الناس.

وبعد أن أمر الله تعالى عباده بتحصين مال اليتيم وحفظه، بعدم اقترابه إلا لتحقيق التي هي أحسن له في ماله، انتقل بهم التوجيه الكريم إلى الوفاء بعموم العهود، وأعظمها الوفاء مع الله تبارك وتعالى ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ فقد عطف الله تبارك وتعالى هذا النص الكريم على ما قبله وهي ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ وذلك في تعاقب وترابط بديع لمن تأمله، ليشمل إيقاع وتحقيق الوفاء بالعهد في جميع العهود ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ ﴾ ومنها الوفاء بالعهود المتعلقة بمال اليتيم، بما يفيد تحريم مخالفة العهد الذي تعاهدتم عليه بالأيمان والمواثيق. ومن جميل بيان النص الكريم سعة سلطانه، ورحابة مجاله، وذلك لظاهر عمومه، الذي يشمل كل عهد يقع من الإنسان مع غيره، ومنها العهد على مال اليتيم بتنميته وتكثيره وحفظه، وورد الوفاء بالعهد عاماً ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ ﴾ ليشمل جميع العهود والمواثيق، كما ورد خطاب الأمر عاما كذلك ﴿ وَأَوۡفُواْ ﴾ ليستوفي ويشمل عموم المخاطبين.

ومن قوة تأكيد الوفاء بالعهد، وتعظيم شأنه أنه ورد بصيغة الأمر ﴿ وَأَوۡفُواْ ﴾ وهو أمر يقتضي الوجوب، ثم يزداد التوكيد بالتشديد في تحمل مسؤوليته وما يترتب على عدم الوفاء به ﴿ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ فإن الله تعالى يسأل العبد يوم القيامة عن العهد الذي أبرمه مع كل أحد، فيعاقبه على عدم الوفاء، ويثيبه على كمال الوفاء. ولأهميته زاد توكيده أيضاً بأداة التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ فَشَرْطُ المعاهدة هو الوفاء، بأن تُوفوا بما عاهدتم الله تعالى عليه مع غيركم. كما تقدمت المساءلة ﴿ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ فعل ﴿ كَانَ ﴾ والذي يفيد ثبوت المساءلة وتحققها من الله تعالى لأهل العهود. فهو نسق تتعاظم فيه مسؤولية عموم العقود والمواثيق، والتي منها مسؤولية كافل اليتيم، أو القائم على ماله. فإنها محل محاسبة دقيقة من الله تعالى للعباد، بما يربي وينشئ في المسلم حفظ حقوق الغير، وعدم التعدي عليها، مهما كانت الفرصة متاحة للتعدي والاحتيال، أو بأي طريقة يمكن أن تكون، فإن التعامل في العهود والمواثيق هو تعامل مع الله تعالى. مما يبين رفعة منهج الإسلام في حفظ الحقوق، وعنايته بشأن جميع أنواع العهود، التي هي باب واسع في أنواعها ومجالاتها.

وبعد الأمر بالوفاء بالعهد، والتأكيد على مسؤوليته، ومساءلة ومحاسبة ومعاقبة من عاهد فنقض، وإثابة من عاهد فأوفى، ينتقل السياق إلى وجه العدل في حال الكيل والوزن، فيما يتعامل الناس به بينهم، فإن مما قضى به تبارك وتعالى في شرعه الحكيم الوفاء في الكيل ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ فعطف سبحانه وتعالى على ما سبق من تشريع الوفاء، عطف عليه الأمر بالوفاء عند الكيل ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ ﴾ أي: أتموا الكيل ولا تُنقِصُوا منه شيئاً، ووفاؤه يستوجب تمامه وكماله من غير أن ينقص منه شيئاً، والأمر للوجوب، بما يفيد التحذير من النقص. وقد تضمن نسق النص الكريم إفادة الاستمرار في ذلك، وتعاهده في كل زمان ومكان، فليس هناك لكم وجه أن تُطففوا في الكيل والموازين، وأكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾ فإذا وزنتم فزنوا للناس بالميزان المستقيم، أي بالعدل الذي لا اعوجاج فيه، ومعنى ﴿ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ﴾ الميزان، ويُعَبّر به عن العدالة.

ومن دقة البيان في تأكيد العدل والوفاء به، أنه لم يكتف بالقسطاس، بل أكده بصفة الاستقامة ﴿ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾ بما يؤكد أهمية تحري العدل عند الكيل والوزن، والحذر من التطفيف والتلاعب بالموازين، لأن الوزن يستوفي به المشتري حقه، كما يستوفي البائع كمال ثمنه، وبالتالي لا مجال للتطفيف إلا كونه من باب الغش والخديعة، وهذا يفيد أهمية العدل وعدم الغش في جميع أمور التعامل التي بين الناس، مما يبين أن شريعة الله تبارك وتعالى تنهى عن الظلم والتلاعب بالحقوق، وأنه يترتب على ذلك مخالفة الواجب، ليحصل بالمطفف الوقوع في الحرام الذي يحاسبه الله تعالى عليه.

ثم يحث الله تعالى عباده على العدل بمزيد من التشجيع ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ أي: فإن الوفاء خير وأفضل في مردوده وثوابه من عدم العدل في الكيل والوزن، وكلمة ﴿ خَيۡرٞ ﴾ تفيد التفضيل بين خيارين: هما عدم العدل، والوفاء بكمال الكيل والوزن، فعدلكم خير لكم من بخسكم وظلمكم غيركم، ثم أضاف سبحانه وتعالى إليها تفضيلاً آخر، وهو ﴿ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ فكلمة ﴿ وَأَحۡسَنُ ﴾ من الحسن، أي: أحسن ﴿ تَأۡوِيلٗا ﴾ أي: مردوداً ونفعاً، وأولى تطبيقاً وعملاً به، فهو أفضل مرجعاً وعاقبة ومآلاً من كل تأويل. فاجتمع الخير والْحُسنُ في وفاء الكيل والميزان ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ ولم يحصر البيان الكريم نوع الخير والْحُسن في نوع أو قدر محدد مُعَيَّن، ليشمل بذلك جميع ما يتعلق به ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ ذلك العدل خير في ذاته لما فيه من كمال العدل، ولأنه من مكارم الأخلاق، وخير فيما يعود به على صاحبه في الدنيا والآخرة، وهو خير

فيما يعود به على تعاملكم، وثقتكم، وتوادكم، وتراحمكم، وما يغرسه ويحققه فيكم من مكارم الأخلاق. فهو خير لكم من التطفيف والجور في الكيل والوزن ﴿ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ تطبيقاً واختياراً عن التطفيف، فالعدل خير لكم في عاقبته، فإن عوائده حاصلة في الدنيا والآخرة، وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وأحسن مردوداً عليكم، وأولى إليه فيه فعلكم ذلك، لأن الله تعالى يرضى بذلك عليكم، فيحسن لكم عليه الجزاء(١) ولفظ ﴿ وَأَحۡسَنُ ﴾ يفيد مبالغة الْحُسْنُ. وهذه من جماليات البلاغة القرآنية، ودقتها في تناسب اللفظ مع المقصد والتوجيه، والتحفيز والترغيب. مما يفيد عظيم منهجية ذلك في التعليم والارتقاء بالعقل والسلوك والأخلاق والتربية، وكذلك عظمة الأسلوب البياني والبلاغي لمن تدبره، وكذلك فيه تعليم منهجية التوجيه، والتشجيع والتحفيز لاختيار الأفضل بين الخيارات الممكنة. فالقرآن مدرسة شاملة في أبواب الحياة المختلفة.

﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾

يوجه الله تبارك وتعالى عباده إلى عدد من مكارم الأخلاق، التي تحقق العدل بينهم، في القول والشهادة والاستماع والنظر، وإلى التواضع وعدم الكبر، حتى في هيئة المشي بين الناس. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ ينهى تبارك وتعالى عن تتبع الإنسان ما ليس له به علم، فيقول فيه بجهله عنه ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ فلا تتابع شيئاً أو أمراً بالقول فيه، أو العمل به من غير علم قد تيقنت منه، بما يفيد أن لا تبني قولك أو عملك على غير العلم، فتعتمد على الحدس والظنون، فهو نهي يشمل عموم الأقوال والأعمال ونقل المعلومات والأخبار، في التعليم والإرشاد، وفي الشهادة على الغير، وفي القذف، وفي عموم ما يترتب عليه إثبات حق، أو نفي حق من غير علم ثابت يقيني. وفي هذا نهي عن النقل والإعلام والنشر لشيء من غير علم بذات الشيء، أو باستنباط واستنتاج من غير مستند قطعي، ليكون الدليل هو المستند القطعي وما دل عليه.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩٢/١٤)

ثم ينوه سبحانه وتعالى في تحذير عميق الدلالة، وعميق الأثر، فيما يتعلق باستعمال نعمة السمع والبصر والفؤاد ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ فإن الإنسان مسؤول عن أداة سمعه وبصره وفؤاده فيما استعملهم، وكيف استعملهم ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ فإنه مسؤول عن جميع تلك الأعضاء، وما يكون منها. فهذه الأجزاء المؤثرة والقوية في تحصيل العلم والمعرفة تقع تحت مسؤولية العبد، وأنه سَيُسأل عنها يوم القيامة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها، من أنه سمع أو أبصر أو علم، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق[1] فلا تقل رأيت ولم تر، ولا سمعت ولم تسمع، ولا أن تصف أحداً بما ليس لك به علم، ومن ذلك شهادة الزور.

ومن جميل البيان وغور دلالاته أن أُجريت الجوارح من السمع والبصر والفؤاد في الخطاب وكأنها قائمة بذاتها، فاتصفت بالمسؤولية في العموم وفي شمول الإحاطة ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ مع ثبوت هذه المسؤولية ثبوتاً مؤكداً عن استعمالها وتوجيهها من صاحبها، وفي هذا دلالة على أنها نعمة عظيمة على العبد، إذ أن هناك من حُرم بعضها. مما يبين ويؤكد أهمية توجيهها في الخير والحق الذي خُلِقَت من أجله، وبأن لا يستعملها في الباطل، إذ أنها لم تُخلَق له، وأن صاحبها سوف يُسأل عن هذه النعمة العظيمة الجليلة، فعليه أن يوظفها ويوجهها التوجيه الذي يحقق الانتفاع بها.

ثم يتجه الخطاب من الله تبارك وتعالى إلى أدب التواضع، والنهي عن الكبر ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ فقد ورد الخطاب على وجه العموم ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ دون تحديد وتعيين المخاطب، ليعطي دلالة الشمول، فيشمل جميع المخاطبين، وورد الْمُخَاطَب في سياق المفرد ﴿وَلَا تَمۡشِ﴾ لإشعار كل أحد أنه مخاطب بنفسه من ربه تبارك وتعالى، تعظيماً لخطر الكبر ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ أي: لا تمش في خيلاء وتفاخر وتباهي، لِمَا يتضمنه من الأشر والبطر والزهو، فهو جامع لكل مفردات أوصاف الكبر وأحواله، مما يبين أهمية التواضع ووجوبه حتى في هيئة المشي، لأن النهي عن الكبر يعني الأمر بضده، وهو التواضع. واختيار كلمة ﴿مَرَحًا﴾ لغزارة وسعة معانيها، واحتوائها على الهيئة التي تتمثل فيها جميع مفردات الكبر، بحسب ما يكون من المتكبر، من الخيلاء والتفاخر

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٥٩٦)

والتباهي والتعاظم. ولأن هيئة المشي هي انعكاس لما في داخل نفس الإنسان من المشاعر، ومقدار الكبرياء أو التواضع الذي يحمله.

ومن غزارة قوة البيان أنه حدد موضع المشي، بأنه في الأرض ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بالرغم من أن المشي لا يكون إلا على الأرض أو على شيء قائم ومعتمد عليه، وفي ذلك إبراز وإظهار للأرض، فإنك تمشي على شيء لا تملكه، فإنها للجميع، وأن الناس متساوون في السير عليها، فأنت الذي اخترت ذلك النوع من المشي فيها، ولذلك ورد بعدها مباشرة محدودية قدرة الإنسان وضعفه، مقارنة بالأرض التي يمشي عليها في زهو وتفاخر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ فإنك مهما تفاخرت بمشيك وضغطك على الأرض بأرجلك، فلن تستطيع نقبها وخرقها، لضعفك أمام قوتها، فكيف تتعالى وأنت على ظهر من هو أقوى وأرسى منك؟ ففيه توجيه للمقارنة والتأمل بين من تدعس عليها بقوة المتكبر، وهي تحملك فوقها بقوتها، وبين ضعفك الذي لم يبلغ أدنى درجات التأثير على الأرض، وهي التي تمتطيها وتحملك وتمشي عليها، مما يفيد أن القائم لا يعني أنه أقوى من المنبسط، وأن المتحرك لا يعني أنه الأقوى من الثابت، وأن المستفاد منه لا يعني أنه أقل من المستفيد، فإنه التسخير من الله تعالى، فهو الذي سخر هذا لهذا، وهذا لهذا، فافهم أيها الإنسان الحقائق على حقيقتها، وليس على قصور فهمك وتفسيرك وتقييمك، إن مغزى تعيين وتسمية الأرض يحمل دلالات أخلاقية عظيمة، وفي ذلك توجيه للتأمل والتفكر، فإنها عظمة القرآن الكريم وإعجازه.

ومن غزارة البيان ودقة إعجازه أن المشي على الأرض جاء بحرف ﴿فِي﴾ في الأرض، وليس على الأرض ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لأن حرف (على) يفيد العلو عليها فقط، بينما ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل العلو عليها، ويشمل عموم السير وتنوعه وتنقله ومقاصده.

ثم يرتقي التوجيه الكريم بعقل الإنسان المتكبر إلى الجبال، حتى يتعلم المزيد من البيان بالمقارنة، والحجة البالغة ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ فمهما بلغ بك التباهي والتطاول في هيئة المشي، فلن تبلغ ارتفاع الجبال وعلوها. وفي هذا إشارة إلى زهو المتكبر بمشيه إلى درجة استطالته لهيئته وارتفاع عنقه، ورفع رأسه من شدة الكبرياء والتعالي، وهو كشف للمشاعر النفسية الداخلية، بإظهار التعاظم النفسي مقارنة بارتفاع الجبال. فإنك أيها المتبختر في مشيك، والمتطاول على غيرك حتى في نفسك وهيئتك، لن تستطيع أن تبلغ من تطاولك ارتفاع وعلو الجبال الشاهقة، فهي أرفع منك ارتفاعاً، بالرغم من أنها جماد، وأنت متحرك، وقد ترتقي عليها، فإن الثابت قد يكون أعلى قوة وارتفاعاً من الإنسان المتحرك، فلا تغتر بحركتك على الأرض، على أنك أكثر شموخاً وقوة، فإن الجبال أطول وأعلى ارتفاعاً وشموخاً، فتأمل وتدبر في المقاييس، فإنك تهتدي بها إلى ضعفك. فإنها تربية للإنسان، وكشف لحقيقته بما يتعامل معه ويشاهده، لينفتح ذهنه على الحقائق التي طمسها الكبرياء،

فانطفأ بصر المتكبر، وانطمست بصيرته. وفي ذلك بيان إلى أن الكبر يطمس حالة التأمل والتفكر، والإفادة مما حوله، لأن المتكبر متعاظم في نفسه على غيره. وفي هذا بيان لأهمية الموعظة، وأهمية اشتمالها على المقارنة التي تُبَصِّر الإنسان بالحقائق. وأن للقرآن أعظم الأساليب في توجيه العباد، وتربيتهم، وتصحيح مفاهيمهم.

ومن جميل البيان تدرجه، إذ بدأ البيان الكريم بالنهي عن الصفة المذمومة ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ثم أوضح البيان الكريم عجز المخاطب وضعفه بمقارنة حاله مع الأرض التي يتعامل معها ويشاهدها ويمشي عليها، ثم لفت انتباهه إلى الجبال التي يشاهدها ويراها ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ فمهما استشعرت في نفسك من القوة والتعاظم، فلن تستطيع أن تُحدث أثراً في الذي تمشي عليه، وتتطاول فوقه على غيرك، وهو يحملك وأنت تسير على ظهره، وهو خادمك ووسيلتك للمشي، فمع ذلك كله لا تستطيع أن تخرق في هذه الأرض خرقاً، أو تحفر فيها بقدميك حفرة أثناء مشيك عليها متعاظماً في نفسك. وكذلك الجبال الصامتة والثابتة التي لا تتحرك، فأنت مع حركتك ونطقك، واستشرافك لنفسك، واستعلائك بها، فإنك لن تستطيع بتلك المشاعر الممتلئة بالكبر، والتي دلت عليها هيئتك، وهيئة مشيك وسيرك أن تبلغ ارتفاع تلك الجبال، فليست الأمور بالمشاعر، وليست الأمور إلا بالتسخير الذي سخره الله تعالى. فتأمل وانتبه، ولا تغتر بغرور النفس، وما تملك من حطام الدنيا، أو من الصحة والعافية، أو العلم أو غيره من متاع الدنيا.

ثم يجمل تبارك وتعالى جميع ما تقدم مما نهى عنه سبحانه وتعالى في وصف دقيق، بأن ذلك ليس بموطن الرضى منه عَزَّ وجل، بل إنه موطن الكراهة له ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ فجملة ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ تجمع كل ما تقدم مما نهى عنه عَزَّ وجل وحذر منه، أو الامتناع عما أمر به، ليفيد النهي عن ضد ما أمر به، ابتداء من قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وما تلى ذلك من المعطوفات ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ فجميع ما نهى عنه ليس بموطن لمرضات الله تعالى، وكل الأفعال والأقوال المضادة لما أمر به فإنها ليست بموطن لرضاه عَزَّ وجل. فإن الفعل السيء منه مكروه ومبغوض عند ربك، وليفيد أن فعل المأمورات، واجتناب المنهيات هي المحمودة عند ربك تبارك وتعالى. وأن مجرد الكراهة من الله تعالى له توجب الكف والتوقف عنه ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ فالكراهة من الله تعالى كافية في وجوب الامتناع عنه.

وباعتبار الضمير في كلمة ﴿ سَيِّئُهُۥ ﴾ فإنها قد جمعت جميع ما نهى الله تعالى عنه من أفعال الشرك، وعقوق الوالدين، وقطع الأرحام والمسكين وابن السبيل، والبخل والإسراف وقتل الأولاد، والزنا والاقتراب

منه، وقتل النفس إلا بالحق، والاعتداء على مال اليتيم، وغيره مما نص الله تعالى عليه. فجمعت كلمة ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ جميع السيء مما نهى عنه تبارك وتعالى، وأضداد ما أمر به. ليفيد أن الشأن متعلق بالسيئات، مع تهويلها وتعظيم عاقبتها، لما يترتب عليها من غضب الله تعالى، وما يقتضيه ذلك من العقوبات، بحسب نوع المعصية والمخالفة ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ فإن كل سيء هو مكروه عند الله تعالى، فإنه ليس بموطن رضاً من الله عَزَّ وجل، بل إنه موطن كراهة له من إتيان العبد له، وقد نهى عباده عنه، فمن فعل ما يكره اللهُ تعالى فقد كره الله ذلك منه. والمؤمن الكيس لا يحب ما يكرهه الله تعالى، فيتوقف عنه ولا يفعله، بل يجاهد نفسه على عمل ما يحبه الله عَزَّ وجل، وإن حدث منه ما يكرهه سبحانه وتعالى ندم واستغفر وتاب وأناب إلى ربه عَزَّ وجل، وأقلع عنه. فالمؤمن المحب لربه تعالى يكره أن يأتي ما يكرهه مولاه وخالقه عَزَّ وجل. وفي هذا التوجيه ربط بين امتناع الفاعل وبين كره الله تعالى للفعل. فإن كنت تحب الله تعالى فاترك ما يكرهه عَزَّ وجل.

ثم يشير ويشيد تبارك وتعالى إلى ما قضى به فيما تقدم ذكره، بأن ذلك من لدنه سبحانه وتعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ فإن ذلك الذي أوضحناه وبيناه هو مما أوحى إليك به ربك تبارك وتعالى ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ لما تضمنه من المضامين المحكمة التي لا يأتيها الباطل والفساد من أي وجه كان، فهي متضمنة للخير المحض الذي لا شر فيه، وناهية عن الشر وما يؤل إليه من الفساد. وقد بدأ البيان الكريم من الله تعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ذَٰلِكَ﴾ التي أشارت إلى ما سبق بيانه من الأمر والنهي المتضمن للفرائض والسنن، والآداب والأخلاق ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ فجاء الخطاب موجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه هو الموحى إليه من ربه تبارك وتعالى، وفي ذلك امتنان على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بأن الله تعالى أوحى إليه بالعظيم الجليل من الحكمة ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فإنه متضمن للعظيم والجليل من الحكمة، وفي ذلك ثناء ومدح لما أوحى به تبارك وتعالى عل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم لن يدركوا تلك الحكمة إلا بما أوحى به سبحانه وتعالى، وليفيد تنبيه الأمة على أن تُولي اهتمامها وعنايتها بما أوحى به عَزَّ وجل، وأن تعض عليه بالنواجذ، وتعلم أنهم في علم ونهج ومنهج عظيم.

ثم عطف سبحانه وتعالى أمراً عظيماً جليلاً على هذا الثناء لِمَا أوحى به سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ فكرر جَلَّ جلاله النهي عن الشرك، والأمر بالتوحيد بعد أن ذكره سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ والخطاب للأمة، فيا أيها الإنسان لا تجعل مع الله تعالى شريكاً، بل وحده وعظمه، فلو أشركت مع الله تعالى أحداً فإن مصيرك هو جهنم ﴿ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ وفي هذا تعظيم للتوحيد، وتعظيم لخطر الشرك، وعظيم عقابه، فإن فعلت ذلك أيها الإنسان سوف تُلقى في جهنم ﴿ مَلُومًا ﴾ من اللوم والعتاب. أي: ملوماً ومعاتباً من نفسك ومن غيرك، لأنه جاءك الحق الواضح والظاهر ولم تتبعه، وكذلك ستكون ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أي: مطروداً مبعداً عن كل خير. مما يستوجب عليك إفراد ربك تبارك وتعالى بالتوحيد والعبادة والإخلاص له في ألوهيته وربوبيته وعبادته. ومن جميل البيان إفراد المخاطب ﴿ وَلَا تَجْعَلْ ﴾ ليفيد أن المخاطب هو كل فرد بعينه، فإذا سمعت أو قرأت النص الكريم ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ استشعرت أن الله تعالى يخاطبك بمفردك. وينهاك ويحذرك.

ثم يخبر الله تعالى المشركين الذين اختاروا واصطفوا لأنفسهم ما يحبون من البنين، وخصوا الملائكة بالإناث ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أخصَّكم واصطفاكم الله تعالى في عطائه بالذكور الذين هم البنين، واتخذ لنفسه على زعمكم الملائكة إناثاً، إنه سؤال استفهام، يحمل العتاب والتوبيخ والتقريع على هذا الافتراء منهم، ثم شدد في لومهم وتقريعهم ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ إنكم لتقولون بهذا الافتراء ﴿ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي: قولاً قوياً، بالغاً في الجراءة على الله تعالى، فإن في دلالة الإنكار على قولهم هو تعظيم لفساد القول المقول والقائلين، بل يزداد تعظيماً بوصفه بالعظيم ﴿ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ فهو عظيم من كل وجه، مما يدل على أن هناك من يتجرأ على الله بما لا يليق به عَزَّ في علاه، وأنهم يُفَضِّلُون الأمر كما يشتهون ويحبون، إلى درجة تقديم أنفسهم على الله تعالى بأن لهم البنين، ولله تعالى البنات. فنسأل الله تعالى الهداية والعصمة والتوفيق.

ومن دقائق البيان أن ذكر سبحانه البنين دون البنات ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ قال الزجاج رحمه الله تعالى: اختار لكم صفوة الشيء، وهذا توبيخ للكفار، والمعنى: اختار لكم البنين، وجعل البنات مشتركة

بينكم وبينه، فاختصكم بالأعلى وجعل لنفسه الأدنى[1] فكيف يخصكم بما تحبون وتفضلون، ويخص ذاته بما تكرهون؟ فإنه أمر يدعو إلى التعجب الذي يتقرر به أنكم أهل جهل وبهت، ولا ترغبون في الحق.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما تضمنه القرآن العظيم من تنوع البيان الذي يشد ذهن الإنسان ويُقَرِّبه من الحق ويدله عليه، ويبعده عن الباطل ويحذره منه، ويدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكر في مضامينه، لما فيه من العبر والقصص والأمثال والأحكام والتشريع العظيم. فقال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ابتدأ بيان الله تعالى لعباده بإيضاح عَمَّا في هذا القرآن من ضروب التصريف لمن أراد الحق وابتغاه، ومؤكداً ذلك ابتداء بأداة التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ وذلك لبيان الاهتمام بتحقق وتأكيد ما يقال لكم فيه ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ فلقد ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أي: نوعنا وأوضحنا وبينَّا ﴿ فِى هَٰذَا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨)

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ من المواعظ وضرب الأمثال، والقصص، والأحكام، والترغيب والترهيب، والبراهين والحجج، والأحكام والتشريع، ببيان ما ينفعكم وما يضركم، وما هو خير وأحسن لكم، وما يحقق لكم سعادة الدنيا والآخرة، وكل ذلك من أجل ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتعظوا ويتدبروا ما صرفنا في القرآن الكريم من التصريف الدال على إعجاز مضمون ذلك التصريف، حتى يقفوا على بطلان ما هم فيه من الشرك، والاعتقادات الباطلة، والمفاهيم الخاسرة، ومع كل هذا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فلا يزيدهم الذي فيه من إعجاز التصريف الذي صرفناه في القرآن ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: تباعداً عن القرآن، ونفوراً عما تضمنه من الحق، ومتابعتهم للغي والفساد، والتصاقهم بالباطل.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿صَرَّفْنَا﴾ أفادت قوة البيان والإظهار للحق بالتبيين والتكثير والتنويع، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى عن ﴿صَرَّفْنَا﴾: بمعنى: وجهنا...وشُدِّدَ للتكثير[1] فقد تكاثر في القرآن العظيم البيان، وتكاثر فيه التنويع من المواعظ وضرب الأمثال، والقصص، والأحكام، والترغيب والترهيب، والبراهين والحجج، والأحكام والتشريع .

وفي هذا البيان تعظيم من الله تعالى لما تضمنه القرآن الكريم، ووصف لحال كفرهم وعنادهم وإصرارهم بالرغم من وضوح الحق لهم وضوحاً لا يحتاج إلى مزيد، وبالتالي فإن أمرهم يدعو إلى التعجب، فمازالوا مصرين على شركهم وكفرهم. مما يبين أن الكفر المبني على العناد والكبرياء والحسد للنبي صلى الله عليه وسلم، إنما يجعلهم في نفور عن الحق، مع علمهم به، فيكون كفرهم هو كفر جحود.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين بما قاله سبحانه وتعالى له ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فأخبرهم أيها الرسول بحقيقة انتفاء الشريك ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ فلو أن مع الله تعالى آلهة أخرى كما تزعمون بزعمكم الكاذب ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ إذاً لطلب وبحث هؤلاء الشركاء الوسائل التي توصلهم إلى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ سبحانه وتعالى، وذلك عن طريق ومسلك العلو والارتفاع والارتقاء للوصول إلى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ باعتبار أنهم شركاء، ويكون ذلك بالمغالبة والممانعة لذي العرش سبحانه وتعالى. وهم عاجزون عن ذلك، فكيف إذاً يكونون آلهة، وهم مسلوبون من القدرة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال ابن العباس رضي الله عنهما:

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٨)

لطلبوا مع الله منازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه: المعنى: إذاً: لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه، ليزيلوا ملكه، لأنهم شركاؤه، وقال قتادة: المعنى: إذاً لابتغت الآلهة القربة إلى ذي العرش سبيلا، والتمست الزُّلفة عنده لأنهم دونه[1] وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى مثل ذلك، وقال: والظاهر المعنى الأول[2] أي: المغالبة، لأن الشريك يريد مماثلة شريكه، فعجزهم عن ذلك دليل عيني يقيني أنهم ليسوا شركاء، وإنما هو افتراء منكم على الله تعالى أيها المشركون، مما يدلل على ضلالهم، وافترائهم الكذب الذي لا يصدقه عاقل. وفي ذلك ما يفيد أهمية الأدلة العقلية العملية، والبراهين والحجج في مقارعة المكذبين، ولكن بالحكمة الموصلة إلى الحق. كما يفيد هذا البيان أن دين الله تعالى قائم على الحق والحقائق، وأن مبناه على الحجج والبراهين الواضحة الساطعة، وليس فيه غموض، ولا دواعي للشك والريبة، بل دامغ لكل شك وريبة، وماحق لها.

وفي ذكره سبحانه لذاته العظيمة بصفة ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ تعظيماً وتنزيهاً له سبحانه وتعالى بعلوه على خلقه، فهو ذو العرش الذي هو فوق كل شيء، والذي يعني السمو والرفعة، وكمال ومنتهى العلو، فلا علو لشيء بعده سبحانه وتعالى، فمن له هذا المقام وهذه الصفة، تريدون أن تجعلوا معه آلهة في الأرض. فسبحانه وتعالى عما يشركون علواً عظيماً، وتنزيهاً مجيداً. فالعرش هو أعظم المخلوقات، وفوق كل مخلوق، والذي هو سقف المخلوقات جميعاً، وأن جميع الخلائق من السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما تحت العرش، فإن كل شيء من المخلوقات دونه وتحته، فهو صاحب العرش ورَبَّ كل مخلوق.

ثم يؤكد تبارك وتعالى تَنَزّهه عَزَّ وجل عما يقولون ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فتقدس وتنزه تبارك وتعالى عما يقولون من الأقوال الشنيعة التي يقولونها، وتباعد مقامه عما يقولون تباعداً ورفعة وعلواً كبيراً. فأفادت دلالة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ كمال التنزيه ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ علواً وارتفاعاً ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عن قولهم الشنيع من الباطل في إشراكهم مع الله تعالى غيره، وفي اختصاصه سبحانه وتعالى بالملائكة الإناث، وعن كل قول ووصف لا يليق بمقامه وجنابه سبحانه وتعالى، وأفادت ﴿عُلُوًّا﴾ المبالغة في النزاهة عما يقولون، وتعالت نزاهته عَزَّ وجل بصفات العلو الكبير ﴿كَبِيرًا﴾ أي: المبالغ في علو مقامه وتنزُّهِه إلى ما لا حد له. فسبحان الله العظيم، وتقدس وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. فما أعظم حلم الله تعالى عليهم، إذ لم يسارع في هلاكهم على

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٢/٥-١٧٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٣٠/٣)

قولهم الشنيع، بل أمهلهم، وأنذرهم، وبين لهم الحق، وحذرهم وأرهبهم، ورغبهم في الحق، لعلهم يرجعون فيتوبون. فما أعظم حلم الله تعالى ورحمته جَلَّ في علاه.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم ملكه، وطاعة خلقه له، فإن كنتم أيها المشركون تقدمون الطاعة لغيره، ممن تزعمون من الشركاء، فإن خلائقه طائعة له عَزَّ وجل، وزيادة عن الطاعة تسبح وتنزه الله تعالى عن كل نقص ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ فالسماوات السبع والأرض تسبح وتنزه الله تعالى عما لا يليلق به جَلَّ جلاله، وكذلك ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أي: أن جميع المخلوقات التي في السماوات والأرض تسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً. ثم يؤكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ فليس هناك شيء إلا وهو يسبح الله تعالى بالتنزه عما لا يليق به عَزَّ في علاه. فكل شيء ينزه الله تبارك وتعالى بالتسبيح والحمد والثناء الذي يتناسب مع تسخير الله تعالى له ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ ولكنكم أيها الناس لا تفقهون ولا تفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قصر علمهم عنه، فيما ليس لهم به حق.

ثم يبين تبارك وتعالى عظيم حلمه، ومغفرته لمن تاب وأناب وأطاعه سبحانه وتعالى، وسار على مسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ فإن ربكم الله تعالى متصف بالحلم، ولولا حلمه جَلَّ جلاله لأهلك المتطاولين بكذبهم وافترائهم عليه، ولأجهز عليهم، ولم يتركهم يتنعمون في ملكه لحظة واحدة، بل ومن كرمه وجُوده وإحسانه أنه يغفر الذنوب للتائبين، فقد جمع سبحانه وتعالى إلى حلمه أنه ﴿ غَفُورٗا ﴾ أي: كثير المغفرة لمن استغفر ربه وتاب وأطاع. وفي هذا دعوة وترغيب لهم، ولكل عاص أن يتوب إلى الله تعالى، فإنه جَلَّ جلاله يقبل التوبة، ويمحوا الذنوب، ويسترها، فتوبوا إليه أيها المشركون والعصاة من عباده. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بالعباد، إذ أنه يقبل توبتهم عن ذلك التطاول والافتراء، وقوة المعصية منهم. مما يبين عظمة رحمة الله تعالى، وسعة مغفرته التي استوعبت عظائم الذنوب لمن أناب وتاب إليه عَزَّ وجل.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن عقوبته لأولئك المكذبين الذين لم يتعظوا بما صَرَّفَه الله تعالى من البينات في القرآن، ولم يزدادوا في أنفسهم بتلك الآيات إلا نفوراً عن الحق، وجرياً وراء الباطل، كما قال تعالى في سابق الآيات ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴾ فجعل الله تعالى عقابهم هو حجبهم

عن كتابه العظيم، القرآن الكريم، وإبعاد الفهم والاتعاظ به عنهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ فإذا قرأت القرآن أيها النبي، وسمعه هؤلاء المكذبين، منعنا عنهم إدراك ما فيه من الخير والهدى ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ أي: جعلنا بينك وبين أولئك الكفرة حجاباً يحجب ويمنع عقولهم عن فهم وتدبر القرآن، والاتعاظ بما فيه من المواعظ المؤثرة، وقد ذكر الماوردي رحمه الله تعالى: أنه حجاباً مستوراً عنكم، لا ترونه، وقال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: إذا قيل: الحجاب: هو الطبع على قلوبهم، فهو مستور عن الأبصار، فيكون ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ باقياً على لفظه[١] ومن دقائق البيان التنصيص على عدم إيمانهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فتكذيبهم بالبعث، ونفيهم الحساب والجزاء، وإصرارهم على ذلك منع خير القرآن العظيم عنهم، فيسمع ولا يتأثر بكلام الله تعالى، وذلك عقوبة لهم على تماديهم في اتباع الباطل ومحاربة الحق.

ومن عظيم قدرة الله تعالى أنه يجعل بينهم وبين الاتعاظ بالقرآن حجاباً ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ وصفة هذا الحجاب أنه ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ عنهم، فلا يرونه، إذ لا يمكن أن يراه من عُوقب به، ولا قدرة له على منعه أو إزالته أو أن يتوقاه بعد نزول العقوبة به، فهو حجاب مستور عن العيون، وعن جميع قدرات الإنسان، فلن يعرف كنهه وماهيته هذا الإنسان، فإنه حجاب من الله تعالى، ولكن يتجلى أثره على من سُتِر قلبه عن القرآن، فتجده معرضاً عنه.

مما يفيد أنه حجاب مستور، يمنعهم من الفهم، ويمنعهم من التأثر والاستجابة لدواعي الخير التي فيه، فهو حجاب يستر ما بين القلب وما بين الفهم، فلا يُدرك ما في القرآن الكريم من الدروس والمواعظ والعبر وغيرها من دواعي الإيمان والتصديق الذي فيه. فهو حجاب لا تراه حاسة العين، ولا بقية الحواس والمدارك البشرية، ولكن تجد وترى أثره على من حجبه الله تعالى عنه. فهو حجاب قد تبالغ في ستر المراد ستره، وكلمة ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ أفادت المبالغة في قوة ستره، لتفيد المبالغة في عدم التمكن من الوصول إليه، حتى وإن طلبه وأراده. فهو وصف بلغ الغاية في دقة دلالته، وتوصيل حقيقته للذهن. مما يفيد أهمية الحذر من الصدود والمبالغة والجرأة على الله تعالى بالمعاصي.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١/٥)

وهذا يدل على أن من أخذ بكتاب الله تعالى فُتحت له خزائنه بما يشاء الله تبارك وتعالى، وأن من صد عنه حُرِم الانتفاع به ومنه. وفي هذا تحذير من عقوبة الحجاب عن الانتفاع بالقرآن العظيم، وفيه ترغيب في تلقي القرآن والعناية به، وفيه حسرة لمن منع نفسه عن القرآن.

ومن مزيد العقوبة منع قلوبهم أن تفقه القرآن الكريم، والحيلولة بينهم وبين فهمهم ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ فقد جعل الله تعالى عقوبتين عظيمتين لهم، الأولى: متعلقة بالقلب، والثانية: متعلقة بجارحة السمع. فجعل على قلوبهم موانع تمنع فهمهم للقرآن، عقوبة لهم ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ والأكنة هي الأغطية الساترة المانعة. أي أغطية تحرمهم من الانتفاع به، فلا يُلقُون بالاً وانتباهاً لبيانه ومواعظه، ولا تتفاعل نفوسهم وقلوبهم مع ما صَرَّف الله تعالى في القرآن من الأمثال والمواعظ والعبر والوعد والوعيد. فيكرهون أن يفهموه ويفقهوه، فكان ذلك جزاء لهم على كفرهم ومقاصدهم السيئة، فعاقبهم الله تعالى بالأسباب المانعة من الانتفاع بالقرآن الكريم، وأما المانع الثاني: فهو متعلق بالسمع ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي ثقلا وصماً في أسماعهم، لعدولهم وانصرف فكرهم عن كلام الله تعالى؛ فكانت لهم سوء العاقبة، وكانوا بمنزلة من لم يعلم، ومن لم يسمع شيئاً من الحق. مما يبين أثر التمادي في جحود الحق، ومحاربته.

ومن قُبح هؤلاء المشركين هو تماديهم على محتوى القرآن الكريم ومضمونه ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ فإذا ذكرت ربك وحده أيها النبي في آيات القرآن الكريم، داعياً لتوحيده، وناهياً عن الإشراك به ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ فمن شدة حبهم لمعبوداتهم من دون الله تعالى أنهم يحبون ذكرها مع الله تعالى، فحين لا يسمعون شيئاً من ذلك يتولون عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ فيهربون مولين عن النبي صلى الله عليه وسلم. بما يبين أن هيئة مسيرتهم كانت ابتداء إلى الأمام، الذي يؤكد أنهم ساروا في الحق حتى عرفوه، ثم حصل منهم الارتداد لعدم وجود ما يحبون من الشرك ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ بما يفيد العودة والرجوع إلى الطريق الذي جاؤوا منه. وهو طريق الكفر ومنهجه. مما يدل على غرابة أمرهم. وكلمة ﴿ وَلَّوْا۟ ﴾ تفيد النكوص بعد الإقدام، والرجوع بعد القبول، والانكفاف بعد المضي، لتفيد وتعبر عن الوصف والحال التي كانوا عليها، والتعبير عن الرجوع والانكفاف بلفظة ودلالة ﴿ وَلَّوْا۟ ﴾ يدل على الرجوع المتعمد إلى الوراء، وبأسوأ حال.

ومن دقائق البيان وصف طريقة توليهم ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ فالتولي معناه الرجوع من حيث أتو، مع عدم القبول والإقبال، أي: صدوا عنك، وهذا الصدود والتولي في هيئته، أنهم على أدبارهم، أي: بياناً وتصويراً لشدة كراهتهم للتوحيد، وحبهم للشرك، فنفورهم نفور من أسرع محملاً بالخيبة، إذ رجعوا بالشرك من حيث أتوا به، وفيه كشف لشدة محبتهم للباطل وهو الشرك، وبغضهم لتوحيد الله تعالى، وكلمة ﴿نُفُورٗا﴾ تدل على النفرة التي حوت السرعة مع الكراهة لما سمعوا من الحق، أي: نافرين نفوراً بالهروب من المجلس، بسبب ما سمعوا من الحق. فهو تصوير بياني دقيق لحالتهم السيئة، وبغضهم للحق، وأنهم يريدون الحق بالصورة التي يتصورونها ويريدونها.

ثم يتدرج البيان من الله تعالى إلى إثبات علمه الشامل بدقائق ما يكون منهم ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ فابتدأ كلام الله تعالى بضمير المتكلم ﴿نَّحۡنُ﴾ ليفيد التعظيم بجلاله وجلالة ما يقوله عَزَّ وجل ويبينه لعباده عن ذاته الكريمة العظيمة ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ نحن أعلم بالذي يستمعون إليه منك، فإن سماعهم يحمل النوايا السيئة ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ فيستمعون إليك وهم يتناجون بالكلام فيما بينهم بما لا تسمعه منهم، من التكذيب والاستهزاء، ونحن أعلم بهم ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ فنحن أعلم بأن استماعهم ليس هو استماع تلقي واسترشاد وقبول للحق، وإنما هو استماع إصرار على عدم الاتباع، فنحن أعلم بالطريقة والنوايا التي يستمعون بها، والقناعات المسبقة التي هم عليها قبل سماعهم الحق. فإنهم يستمعون إليك وهم مقتنعون بأنهم على صواب لا يعتريه باطل، ولا يضاده حق أحق مما هم عليه. فقناعتهم بأن ما جئت به باطل، وأن ما تقوله باطل، قبل سماعهم منك، ولذلك يجلسون إليك وهم نجوى، فيتناجون بينهم استهزاء وتنقصاً وسخرية منك، ومما جئت به من الحق، فعقولهم منشغلة بالباطل عن الحق، ولا مكان في عقولهم للحق، فاستحقوا صفة الظالمين. مما يؤكد ويبين أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية مما يخفيه الناس عن بعضهم البعض بالنجوى، فكلمة ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ تفيد المبالغة في العلم عموماً، والعلم بما هو كائن منهم، وبنواياهم الباطلة ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ وجملة ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ توضح وتبين علم الله تعالى بالحال التي هم عليها، وما يضمرونه وما يفكرون فيه حين استماعهم إليك إيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وهم يتسارون فيما بينهم بالمناجاة، وجملة ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ تفيد المبالغة في كثرة ما يتناجون ويتسارون به بينهم، مما يدل على أنهم يُخفون أشياء في قلوبهم، ولا يُظهرونها إلا فيما بينهم. فنحن أعلم بالذي يستمعون، وبالذي يتناجون بينهم فيه.

ثم يكشف الله تعالى شيئاً مما يتناجون به فيما بينهم ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ فمما يتناجون به هو نعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل مسحور. فسماهم الله تعالى بالظالمين ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فإنهم متلبسين بالظلم من كل وجه، حتى أصبح الظلم لصيق بهم، ومُعَرِّف لهم، فهم ظالمون للنبي صلى الله عليه وسلم بما قالوا، وبما يقولون من الافتراء عليه، وظالمون لأنفسهم بالذهاب بها إلى سوء العقاب والعذاب المهين، وظالمون لغيرهم بمكرهم لهم وصدهم عن سبيل الله تعال، الذي هو سبيل النجاة، وتصوير الحق باطلاً لهم، وتصوير الباطل على أنه هو الحق الذي لا ريب ولا شك فيه.

ومن أحاد ومفردات ظلمهم هو قولهم عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه رجل مسحور ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ فيقولون لأنفسهم ولغيرهم إن اتبعتم محمداً فإنما تتبعون رجلاً مسحوراً، فإنه مصاب بالسحر، فيقولون في تناجيهم لبعضهم البعض: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قد زال وزاغ عقله من السحر. مما يبين أن الجاحد للحق، والمتكابر عليه، يتلمس التلبيس على نفسه وعلى غيره، حتى يصدق نفسه ويصدقه غيره، ويتهم أهل الحق بما يُنَفِّر نفسه عنه، وينفِّر غيره منه، وذلك بإلصاق التهم جزافاً. مما يبين أن على العاقل أن يتبع الحق بعد أن يتأمله، وأن يتنبه لهواه وللشيطان الرجيم، وأن يأخذ حذره من كلام المبطلين.

ثم يوجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتأمل ويتفكر في بهتانهم وجرأتهم في الكذب والظلم بما نسبوه إليك من السحر تارة، ومن الجنون تارة، ومن الشعر تارة أخرى ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ فتأمل كيف استخرجوا الأمثال وضربوها فيك مثلاً، بالشعر، وبالجنون، وبالسحر والكهانة، فإنهم يتقلبون في الأمثال كيفما أرادوا، وهو توبيخ وتعيير لهم، واستنكار واستنقاص لعقولهم وتصرفاتهم، ولِمَا ضربوه من الأمثال التي تضاد الحقائق البينة الواضحة. قال المفسرون: ومعنى ﴿ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ بينوا لك الأشباه، حتى شبهوك بالسحر والشاعر والمجنون ﴿فَضَلُّواْ ﴾ عن الحق[1] ولما أن ما ضربوه من الأمثال هو من الباطل، مع تشتتهم في ضرب الأمثال، فإن ذلك قد كشف أنهم في حيرة من شأنهم، بل هو دليل على ما هم فيه من التيه. الذي نتج عنه ضلالهم في الكفر ﴿فَضَلُّواْ فَلَا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢/٥)

﴿يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فاحتاروا في متاهات الضلالة حتى بلغ بهم الأمر أنهم لا يستطيعون الوصول إلى طريق الرشاد والهدى والسلامة. مما يدل على انغماسهم في الكفر، وأنهم تاهوا في بحره ولجحه.

وقد بدأ التوجيه الكريم بكلمة ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ التي تشد الانتباه، وتلفته نحو التأمل، بتقليب البصر، وتقليب الفكر فيما ضربوا لك به من الأمثال، لتكتشف ما هم فيه من الباطل. وتفيد لفظة ﴿ كَيۡفَ ﴾ استثارة الذهن ليتصور عليه الصلاة والسلام دلالة تلك الأمثال، وما تعبر عنه، وما تكشف له عن حقائق نفوسهم، وما انطوت عليه من الظلم. ودلالة ﴿ كَيۡفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ما يحيط ببهتانهم وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم من الفساد. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ أنها تلفِت الانتباه، كما أن كلمة ﴿ كَيۡفَ ﴾ زادت من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن يتأمل ويُمْعِن النظر في التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يكذبون كذباً لا لبس في بهتانه وظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أُنزل الحق، وعلى الرسول الذي أُنزِل عليه الحق، ويدعو إلى الحق. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿ كَيۡفَ ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى.

ثم يكشف ويوضح سبحانه وتعالى المزيد عن ضلالهم، واعتقادهم الباطل ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ فإن من تكذيبهم بالبعث بعد الموت أنهم يستنكرون ويستبعدون حصول الحياة وعودتها في الأجساد بعد الموت، فجاء وصف حالهم بصيغة ما كانوا يستنكرونه، وبسؤال استنكار، والذي يمثل الاستغراب، قياساً على قدراتهم، وجهلهم، وضحول تفكيرهم ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ فشبهتهم في قياسهم البعث بعد الموت على قدراتهم، وليس على قدرة الخالق الذي أنشأهم، فبعد أن تتآكل الأجساد، وتصبح ﴿وَرُفَٰتًا ﴾ أي: بقايا الميت من العظام المتناثرة والمتباعدة والمتآكلة ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ أيُعقل بعد هذه النتيجة للأجساد أن يكون هناك بعث جديد آخر لنا، إنه سؤال استنكار وجحود كما بينه الحق

تبارك وتعالى، وهنا يتكرر الاستنكار الاستفهامي الدال على التعجب والاستبعاد، ليكون تقريراً للاستبعاد الأول، الذي هو ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ وهذا تأكيدا له كذلك، بما يعبر أن اعتقادهم الذي هو اعتقاد جازم، نابع عن إظهارهم للاستحالة حسب مقاييسهم الناقصة. مما يفيد أن الإنسان إذا قاس الأمور على عقله المجرد من المعرفة، فإنه يخدع نفسه بالاستنتاج الباطل في أموره العامة، والحادثة في حياته، فكيف إذا كان قياسه لقدرة الله تعالى على نقصان قدرته البشرية وعقله الناقص، فلا شك أنه سيبني معارفه على جهل عميق، فلا يخرج به إلى الحقائق الساطعة التي لو قاسها على نزول الغيث، وحياة الأرض بعد موتها، وتوالد الإنسان والحيوان، وإخراج الشجرة الخضراء من النواة الميتة. وتقلب الليل والنهار، وتجدده، وطلوع الشمس وغيابها، ثم طلوعها بعد غيابها، وسقيا الزرع وإنباته، ونشأته وموته لأدرك أن الله تعالى على كل شيء قدير، ولما استبعد البعث بعد الموت.

فيجيب الله تعالى على استنكارهم لعودة خلقهم وإيجادهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: قل لهم أيها النبي كونوا بما يعظم في صدوركم من الحجارة أو الحديد إن استطعتم على ذلك، فإن الله تعالى يعيدكم كما بدأكم، لأنه هين وسهل ويسير عليه جَلَّ جلاله ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ فإن كنتم مستبعدين البعث بعد كونكم عظاماً ورفاتاً ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً ﴾ المتصفة بالصلابة. فقل لهم أيها النبي كونوا حجارة إن استطعتم التي هي مضادة لما يحصل للأجساد في قبورها ﴿ أَوْ حَدِيدًا ﴾ أو كونوا حديداً إن استطعتم، والذي هو أقوى من العظام، فإن الله تعالى لا يعجز عن إعادتكم فيما لو حصل منكم ذلك، وأنتم عاجزون عن أن يكون منكم ذلك، فلا تقيسوا قدرة ربكم على عجزكم. وكذلك بمعنى: لو كنتم حجارة متصلبة، أو حديداً، لأعادكم الله تعالى كما بدأكم، فكيف وأجسادكم أرق وألين على التحول من الحجارة الصلبة، والحديد الشديد في تماسكه وقوته. فجاء البيان والإيضاح لهم بما يناسب مفاهيمهم، ويحاكي عقولهم، وواقعهم، ومشاهداتهم مما يعرفون.

ثم يأتي خيار إعجاز ثالث لهم ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أو كونوا إن استطعتم على أي خلق غير الحجارة والحديد مما هو متعاظم في نفوسكم، فإن بعثكم حاصل بلا شك ولا ريب. وقد ترك لهم البيان الرباني حرية الخيار، من باب التحدي والتعجيز لهم، وتقريرهم بعجزهم، من أنهم لا يستطيعون أن يكونوا على غير ما هم عليه، فإن استطعتم على تغيير حالكم فقوموا بذلك، ومع ذلك سنميتكم مهما كنتم، وعلى أي هيئة تستعظمونها في نفوسكم، فإننا سنميتكم ثم نحييكم.

ثم يخبر الله تعالى بما سوف يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يقولوه ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر. فإنه سؤال استبعاد عن هذا الذي لديه القدرة على إعادة خلقنا، فإذا قالوا ذلك، فأجبهم ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: يعيدكم الذي أنشأكم من العدم أول مرة، ثم أصبحتم بشراً تنتشرون في الأرض، وتتوالدون وتتكاثرون، فهو الذي سيعيدكم حتما كما بدأكم أول مرة. فأين استبعاد البعث بعد الإيجاد؟ فإن استبعادكم للبعث بعد الإيجاد من العدم في غير مكانه. أتصدقون وتقرون بوجودكم من بعد العدم، وتنكرون إعادتكم بعد الموت؟ إنها محاجة تقريرية، وتعليمية. ليتعلم منها الإنسان الحقيقة، ويتعلم منها منهجية إثبات الحقيقة. وليتبين أن هذا الدين هو دين علم، وقائم على الحقائق التي لا ريب ولا شك فيها، وأنه يُعلِّم الإنسان بالحقائق، لأنه دين الحق والحقيقة.

ثم يخبر الله تعالى بإجابتهم، بل وتدرجهم في الإجابة، والحالة التي يكونون عليها عند محاجتك لهم أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وذلك لعلم الله تعالى المسبق بما سيكون منهم، ومع ذلك يقيم عليهم الحجة ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ فإن أول ما يكون منهم من صورة الحال الجسدية هي ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي: يحركون رؤوسهم استهزاء وتكذيباً لك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، فيحركون رؤوسهم كما يحرك الآيس رأسه استبعاداً ورفضاً، لعدم التصديق، ثم يتوجهون بعد تحريكهم رؤوسهم إلى طرح سؤال عن موعد يوم البعث ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ متى موعد يوم البعث، وذلك تأكيداً للاستهزاء الجسدي والإدراكي. فأجبهم ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي: هو قريب منكم، بما يفيد احذروا ذلك اليوم، فإنه آتيكم لا ريب ولا شك فيه.

ثم يصف لهم سرعة ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فإنه يوم يدعوكم سبحانه وتعالى من قبوركم، وهو النفخة الأخيرة ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ فتجيبون طائعين، لا يستطيع أن يمتنع أحد من عباده، مما يدل على سرعة الاستجابة، وسرعة الإحياء بعد الموت، وسرعت البعث، فلسهولته على الله تعالى، فإنه عبارة عن دعوة واستجابة ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ ثم تليها الاستجابة مباشرة ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ فلا مجال للتريث، ولا للتأخر، ولا للخيارات، فليس لأحد في ذلك شأن، بل إن الاستجابة منكم حتمية، فلا مفر منها. فإنه سياق بياني عظيم في دلالة ألفاظه، وتراكيب كلماته، وقوة معانيه وأخباره.

ويبين تبارك وتعالى أن تلك الاستجابة من الأموات هي بحمده ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تستجيبون بأمره، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة رحمه الله تعالى: تستجيبون بمعرفته وطاعته، وقال الطبري رحمه الله، وأولى الأقوال بالصواب أن يُقال: فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته، ودعائه إياكم، ولله الحمد في كل حال، كما يقول القائل: فعلت ذلك الفعل بحمد الله، يعني: ولله الحمد على كل فعل فعلته[١]

ثم يخبر الله تعالى عن استقصار العباد المبعوثين من قبورهم لما مضى من حياتهم في الدنيا، وحياتهم في البرزخ، التي في القبور ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فتحسبون أنكم ما لبثتم في الأرض إلا قليلا، فتستقصرون الحياة الدنيا، بما يفيد التعجب من سرعة انطواء الدنيا، والوصول إلى هذا اليوم العظيم، والمشهد الرهيب، وكأنهم ما لبثوا إلا يوماً أو بعض يوم. فإنها حقيقة تصور زمن الحياة الدنيا عندما يواجه الإنسان أبواب الآخرة، ليكون هذا التوجيه الكريم والبيان العظيم موعظة لكل أحد عن قصر هذه الدنيا، فلا تغتر بها، وبما فيها. كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ فأخبر الله تعالى العباد بتفاصيل ذلك حتى لا يحصل منهم الندم على ما فرطوا فيه، فإن الحقيقة واضحة تمام الإيضاح من رب العالمين.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

بعد محاجة المشركين وعموم الكافرين بإثبات البعث لهم ولغيرهم، ينتقل التوجيه من الله تعالى لعباده المؤمنين، عن أسلوب التخاطب، وذلك من خلال توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ يأمر

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٦٢١-٦٢٣)

الله تعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمؤمنين ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ إن ربكم تبارك وتعالى يأمركم أن تعتمدوا في مخاطباتكم الأسلوب والمضمون الذي يحتوي على ﴿ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي اللفظ الحسن، والمعاني الطيبة، والأسلوب الكريم، فإن جملة ﴿ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ تشمل في طياتها وضفافها كل لفظ وقول وأسلوب يحقق التواد، ويمنع التنافر ولتنائي. بل إنهم مأمورون بأن يتجاوزوا أدنى درجات الحسن، إلى أعلى وأفضل درجاته، وجميع ما يمكن أن يكون من القول الأحسن، لأن كلمة ﴿ أَحْسَنُ ﴾ تفيد التفضيل في الاختيار والانتقاء من القول الحسن أحسنه، أي: المبالغة في انتقاء الأفضل. وفي هذا إثبات تعدد الخيارات عند الحوار والتخاطب، وأن الكلام الحسن درجات في لفظه ومعناه وأسلوب طرحه، بل وحتى درجة الصوت ولحنه يتحقق فيه معنى التعالي أو التواد والتراخي.

وهذا التوجيه الكريم يدفع المؤمن إلى ضبط لسانه، وتحري أجمل الكلام وأنسبه للمخاطب. وفيه بيان لقوة عناية الإسلام بالعلاقات الأخوية بين المسلمين، مع عظيم منهجه وهديه في هداية ودلالة المؤمنين على أنجع وأنفع الأساليب، بل ويأمر بها، خاصة وقد وجَّه تبارك وتعالى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليقول للمؤمنين بذلك ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ وفي هذا رفع لمستوى الخطاب، ورفعة لمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم، ورفعة للمأمور به، وإجلالاً له، ورفعة للمؤمنين، من خلال هذا الأسلوب والمضمون الكريم. بل وعَيَّنَهُم باسم العبودية ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ وهو شرف عظيم لهم أن يخصهم بذلك الاسم. وجاء التوجيه بصيغة الأمر مرتين: الأولى للنبي عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ والثاني للمؤمنين ﴿ يَقُولُواْ ﴾ ليفيد وجوب الالتزام بهذا التوجيه الكريم، لما فيه من جلب المنفعة وتحقيقها، ودفع المفسدة ودرئها بالتي هي أحسن.

ثم علل تبارك وتعالى هذا الأمر بأسلوب التحذير، لتأكيد أهمية الالتزام به، مع أهمية الحذر من أضداده، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ فإن الشيطان يغري ويُفسد بينكم، لأن النزغ هو الإفساد، بأن يحمل بعضهم على بعض، سعياً بالوقيعة بينهم، فيغري بينهم بما يدفعهم من خلال القول إلى الوقوع في الشر، بالتلاسن والتباغض والتناحر. فهو تقرير من الله تعالى بحرص الشيطان على النزغ بينهم إلى درجة الفعل، بما يفيد الحذر من ذلك. وفي تقرير فعل الشيطان وبيانه من الله تعالى، ما يؤكد بأنه حقيقة ثابتة، ولا مجال للشك فيها، ليرفع بذلك درجة الحذر من الشيطان، ومن الأسلوب المنافي والمضاد للقول الحسن، وقد سبق البيان بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ التي تفيد التوكيد، فإن نزغه مؤكد فاحذروه، بل ويزداد التأكيد بجملة تحذيرية أخرى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ فيقرر الله تعالى لعباده أن عداوة الشيطان للإنسان ثابتة ومستمرة

لا تنتهي، فحرف ﴿إِنَّ﴾ تأكيد لدلالة ما بعده من عداوة الشيطان للإنسان، كما أن الفعل ﴿كَانَ﴾ يدل على الاستمرارية، منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة.

وأن عداوته ليست محصورة على المسلمين فقط، بل هو عدو لجنس الإنسان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ فهو يجتهد للحيلولة بين الإنسان الكافر وبين الدخول في الإسلام، ويجتهد أن يُوقع بين المؤمنين الخصام والاقتتال، والعداوة والبغضاء، وإيقاعهم في المعصية، ويشككهم في الحقائق الثابتة، ويشغلهم عن طاعة ربهم تبارك وتعالى. كما أن إيقاعهم في العداوة يشمل جميع أنواع العلاقات، سواء بين الزوجين، أو بين الأقارب، أو بين أصحاب المصالح، وفي جميع ما يتعلق بالإنسان، سواء كانوا أفراداً أو جماعات. بل إن عداوته ظاهرة بينة ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وفي هذا تأكيد وتعليل لما قبله من النهي عن أسلوب غير التي هي أحسن ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فالزموا التي هي أحسن، مع التحذير من استغلال الشيطان لغير التي هي أحسن. مما يتأكد به التحذير الشديد، والوقاية من إفساد الشيطان، بإبعاد تدخلاته الفاسدة المفسدة، وورد البيان بأسلوب دقيق في مبناه ومعناه، مما يؤكد ويبين العناية والحفاوة بأمر المؤمنين، وتوطيد المحبة بينهم، والحيلولة دون انقطاعها، أو تعثرها، أو أن تَشوبها شائبة، والتوخي عما يفسدها، مما يستوجب على المؤمنين حفظ العلاقة بينهم، والبعد عن أسباب انقطاعها، وضعفها. وكذلك في هذا النهج إعطاء الصورة الخلقية الكريمة عند التعامل مع غير المسلمين، فغالباً ما يدفعهم التعامل الحسن إلى الإسلام.

وهذه الآية الكريمة قاعدة وقائية عظيمة من كيد الشيطان، وكذلك قاعدة في ترسيخ الأخوة، وتنميتها، وقاعدة في الحذر من إفسادها، فإذا أراد المؤمن أن يتكلم مع أخيه تذكر واستحضر قوله تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وإذا رأى شخصاً يريد أن يقول غير التي هي أحسن ذَكَّره بقوله تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وإذا وجد من نفسه رغبة في الاستعلاء بالكلام تذكر واستحضر قوله تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ويجعل ذلك قاعدة في كل موقف من حياته، سواء في أسرته، أو مهنته، أو صداقاته، بل وفي جميع محاوراته ومناقشاته، وفي ميدان تجارته، ومفاوضاته، وتعاملاته مع جميع الناس، مُتذكراً قول الله تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ

ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ فإنها قاعدة غالية الثمن، وقوية الأثر، ووقاية من الشر والأذى، ومعالجة لأمراض العلاقات الإنسانية بين المؤمنين، ومع غير المسلمين، كما أن بها تتحقق المصالح وتندفع المفاسد والمضار، التي قد تصيب الدماء، وتذهب بالأرواح، بسبب كلمة خرجت من دائرة غير التي هي أحسن.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن المأمورين بها هم المؤمنون ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي ﴾ لأن غير المؤمن لم يؤمن أصلاً حتى يؤمر ويُكَلَّف بها، وفي قوله تعالى ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ﴾ أن المقول لهم عام، أي: الذين يُقال لهم القول، فيشمل بذلك المؤمن وغير المؤمن، فيتحقق للمؤمن مع غير المؤمن اجتناب شره، مع دفعه لمحبة الإسلام، وأخلاق المسلمين التي تكون مفتاحاً لقلبه نحو الإسلام. ومع المؤمن بإبقاء وحفظ مسيرة الأخوة بينهم.

وكلمة ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ تكون بين المؤمنين، وتكون بين المتخاطبين والمتكلمين والمتحاورين، سواء كانت بين المؤمنين أنفسهم، أو بين المؤمنين والكافرين، جماعة أو أفراداً. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن هناك قولان في المقول لهم: أحدهما: للمشركين، على أساس سبب النزول: بأن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية الكريمة، وقيل: أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فَهَمَّ به عمر رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية الكريمة. والقول الثاني في المقول لهم: أنهم المسلمون، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى، والمعنى: وقل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة(١) وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين، إنهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التي هي أحسن(٢) وهذا من دقائق البيان في القرآن العظيم، بأن استوعب الوجهين، لما في سعته العملية التطبيقية من الخير ودفع الشر.

والمتأمل في الآيات التي تحث على القول الحسن يجد أنها تشمل المؤمنين فيما بينهم، وتشمل كذلك تعامل المؤمنين مع الكافرين، ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ وفي سورة المؤمنون ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ ﴾ وفي سورة فصلت ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٤-٣٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٣٥)

ﱡﭐٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤ﱠ بما يتبين أهمية القول الحسن مع المؤمنين، ومع غير المؤمنين.

وبعد إيراد منهجية التعامل والتخاطب، وتقريرها، وتقرير فوائدها، يتجه الخطاب إلى بيان عظيم علم الله تعالى، وكمال إحاطته بالنوايا والمقاصد كما هو علمه بالظواهر، فكلاهما مستويان عنده سبحانه وتعالى ﱡﭐرَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﱠ فإن ربكم عليم بكم حق العلم والمعرفة، فإن يشأ يرحمكم فيوفقكم للإسلام، وإن يشأ يميتكم على الكفر، فيحق عليكم العذاب منه سبحانه وتعالى، وما أرسلناك أيها الرسول مسؤولاً عن تحقيق الهداية لهم، وإنما تحمل الرسالة وتبلغها. فالخطاب لكفار قريش الذين أنكروا البعث، فيبين لهم سبحانه وتعالى عظيم علمه بهم، وإحاطة إرادته بهم، وأنهم تحت مشيئته وقدرته، فلا ينفكون عنها أبداً ﱡﭐرَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﱠ فبدأ البيان الكريم بتقرير علمه بهم ﱡﭐرَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﱠ فربكم أعلم بكم من أنفسكم، فيقرر لهم سبحانه وتعالى تعالى أنه ربهم ﱡﭐرَّبُّكُمْ ﱠ فليس لكم رب سواه، كما يقررهم بلفظ الربوبية ﱡﭐرَّبُّكُمْ ﱠ بأن ما تدعونه من الآلهة هو افتراء من عندكم، ومن عظيم دلالة بيانه هو تقريره لهم بأنه سبحانه وتعالى الأعلم بهم على الإطلاق، فليس غيره أعلم بهم، فكلمة ﱡﭐأَعْلَمُ ﱠ تفيد المبالغة بكمال وشمول العلم والدراية بكم، فليس هناك من هو أعلم بكم منه سبحانه وتعالى.

ثم يقرر سبحانه وتعالى مشيئته المطلقة ﱡﭐإِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﱠ فإن الإرادة والمشيئة له وحده سبحانه وتعالى، بأن يهديكم برحمته وبفضله، فيتفضل عليكم بالهداية توفيقاً ورحمة وامتناناً ﱡﭐأَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﱠ وإن شاء عذبكم بكفركم الذي أنتم عليه، وإصراركم في البقاء عليه. وفي هذا تنبيه وتحذير لهم من البقاء على الكفر، مع بيان أن مشيئته فوق كل مشيئة، ولا يشاء أحد من عباده إلا أن يشاء الله تعالى. بما يفيد أنه لا معقب لحكمه، ولا مُكره له عَزَّ وجل، فهو الملك العزيز القادر، الذي يفعل ما يريد. وفي هذا تعظيم لمشيئته عَزَّ وجل، التي أظهرها وأوضحها بتكرارها مرتين، فوردت عند إرادة الرحمة ﱡﭐإِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﱠ ووردت عند العذاب ﱡﭐإِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﱠ وكل واحدة في جملة مستقلة، للإبانة والإظهار والتنبيه عليها. فلا تعتقدوا أنكم منفكون عن مشيئته سبحانه وتعالى.

ثم يبين سبحانه وتعالى حدود علاقة ومسؤولية رسوله صلى الله عليه وسلم مع من كفر، بما يبين أن الهداية لمن شاء أن يستقيم، وليس الرسول صلى الله عليه وسلم مُلزم ومكلف بها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ فما بعثناك إليهم أيها النبي لتكون مسؤولاً عن تحقيق الهداية لهم، وإنما تحمل الرسالة وتبلغها، بما يبين أنك رسول هداية إرشاد، ولكل امرئ ما اكتسب. وفي هذا رفع للكلفة والحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم، حتى لا يكلف نفسه ما لا تستطيع، وكذلك إعلام لكل من يدعو إلى الخير من الدعاة لهذا الدين، فإن عمله إرشاد وتوجيه، وأنه لا يملك هداية التوفيق، بتحقيقها فيمن يدعوهم ويرشدهم وينصحهم ويأمرهم. وهذا يفيد في أهمية تحديد المسؤولية، وإبانتها، ولا يكلف المرء إلا بما يستطيع، ويقدر عليه.

ثم يعمم سبحانه وتعالى شمولية علمه في تدرج بديع ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ فبعد بيان كمال علمه سبحانه وتعالى بالمخاطبين من كفار قريش، بقوله عَزَّ وجل ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ﴾ يتدرج البيان إلى عموم وشمولية علمه تبارك وتعالى لما في السماوات والأرض، فليس العلم بحالكم فقط، بل هو الأعلم بجميع من في السماوات والأرض، وما أنتم إلا جزء من ذلك المعلوم ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإن علمه سبحانه وتعالى تجاوز بني آدم، ليشمل جميع من في السماوات والأرض، مما لا يحصيه العادُّون من الشجر والحجر والنجوم والأفلاك والملائكة والجن والدواب والحشرات والرياح والسحاب وغيرها مما لا يحصيه إلا الله تبارك وتعالى.

وجملة ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ ﴾ تحصر وتقصر كمال العلم على الله سبحانه وتعالى، فهو الأعلم الذي ليس هناك من هو أعلم منه، وليس أحد من خلقه يبلغ كمال العلم، ليفيد أن للمخلوقين قدر من العلم لا يتجاوزونه، مع تفاوتهم فيما يعلمون، وأن كمال العلم وتمامه وشموليته لله تعالى وحده لا شريك له. وقد جاء الخطاب لعباده موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ ﴾ أي ربك يا محمد أعلم فلا يشقن ويكبرن عليك امتناع بعضهم عن اتباعك، ومعاداتهم لك، فإن ربك أعلم بمن في السماوات والأرض، ففيه توجيه للاطمئنان.

ولما أوضح تبارك وتعالى كمال علمه بمن في السماوات والأرض، ليشمل ما ظهر منهم وما بطن، يتدرج البيان الكريم إلى علمه بمن يصطفي من المرسلين، وتفضيله لمن يشاء منهم بعلم مخصوص منه سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ مما يفيد أن الأنبياء يتفاضلون بما فضلهم وخصهم به سبحانه وتعالى، وأن تفاضلهم بناء على علم وحكمة منه عَزَّ وجل، وباختيار منه جَلَّ جلاله، لمن يستحق مزيد الفضل عن غيره، وبمن تكون له رتبة أعلى من غيره. فمنهم من كلمه الله تعالى، كموسى عليه السلام، فهو كليم الله تعالى،

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الله، وعيسى عليه السلام كلمته وروحه، وأعطى سليمان ملكاً عظيماً، لا ينبغي لأحد من بعده، ورفع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فوق السماوات، وجعله سيد ولد آدم، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وخصه بأعظم الكتب، القرآن الكريم، وخصائص أخرى عديدة.

ثم بين تبارك وتعالى بما فضل به نبيه داود عليه الصلاة والسلام ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فالذي فضل داود بالزبور هو الذي اصطفى محمد صلى الله عليه وسلم وفضله على غيره من الأنبياء، وفضله بالقرآن العظيم، كما فضل داود بالزبور، وهو ما أنزله الله تعالى على داود عليه السلام. وإذا كان هذا التفاضل حاصل بين الأنبياء بحكمه وحكمته سبحانه وتعالى، فإنه كذلك كائن وحاصل بين بقية الناس، فكل له فضل بما يكون منه من طاعته وقربه من ربه تبارك وتعالى، والله تعالى أعلم بسرائر العباد، فحكمه في التفضيل بناء على علمه بدواخلهم وظواهرهم، بينما حكم الناس بينهم موقوف ومحصور على الظواهر. فعندما يرى الناس أن فلاناً أحق من فلان فهو بناء على علمهم بالظاهر منه، وهي مناط حكمهم، وبالتالي عندما يصطفي الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من بين عباده فهو لعلمه بمن يصطفي، ومن يختار، وليس لأحد أن يحكم أو أن يقترح ويختار، فله سبحانه وتعالى المشيئة الكاملة، وله العلم ببواطن العباد. اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

ثم ينتقل السياق إلى بيان عجز من يدعون من دون الله تعالى من المعبودات المختلفة، فيقول سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله لكل من أشرك بالله تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قل يا محمد للمشركين الذين يعبدون أحداً من خلقه، اطلبوا من تلك المعبودات دفع الضر عنكم حين يحصل بكم الضر، أو تحويله عنكم لغيركم، فإنهم عاجزون عن القدرة، وإنما الذي يملكه هو الذي خلقكم. ومن بلاغة السياق شموله لعموم من دخل في الشرك، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وقيل إن الذين أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة، وعزير، والمسيح، وبعضهم كان يعبد نفراً من الجن[1] فهي تشمل كل من عبد غير الله تعالى في ذلك الوقت والزمان، بل وتشمل كل الأزمان المتتالية، فكل معبود من دون الله تعالى هو عاجز، وفاقد للقدرة التي يدفع بها الضر عن من عبدوه وتوجهوا إليه، أو أن يقوم بتحويله عنهم لغيرهم. ومن دقائق الخطاب الكريم أنه سمى عبادتهم، وما يدَّعُونه بصفة الزعم ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ومعنى الزعم، أي: الادَّعَاء، بما يفيد الادعاء الذي يغلب عليه الكذب. ونعت الله تبارك وتعالى من يشركونهم مع الله تعالى بكلمة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ إثباتاً لهم بأنهم تحته، فكيف تتوجهون لمن هم دونه، وتتركون الذي هو أعلاهم ومالكهم ومالككم؟ فكيف

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٦/١٤)

تذهبون لمن هم دونه في كل شيء؟ بل إنهم عباد من عباده ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ وفي هذا الأمر تعجيز لهم، ووضعهم أمام الحقيقة.

ثم بين جَلَّ جلاله عجز كل من عُبِد من دون الله تعالى ﴿ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ فإنهم لا يملكون ﴿ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ ﴾ فإن من حقائق عجزهم أنهم لا يملكون قدرة الإزالة، فليست لديهم القدرة على التحكم في إزالة الضر، من البلاء وشدائده، عندما يصيبكم شيء من ذلك، ليستوعب النص الكريم جميع وأنواع ودرجات البلاء، مما يحصل في المال وفي الأجساد، وفي الممتلكات، وغيرها، فإن تلك المعبودات عاجزة، لأنها لا تملك حقيقة القدرة في إزالة الضر، بل وأيضاً عجزها عن الأقل منه درجة من ذلك، الذي هو تحويل الضر ﴿ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ فلا تملك القدرة على تحويله عنكم إلى غيركم أو أن تحول دون وقوعه.

ثم للمزيد من البيان وتصحيح الجهل المركب لدى المشركين عموماً، هو إعادتهم إلى عبادة من يدعونهم، فإن ما تعبدونهم من الجن والملائكة، هم في الأصل يتوسلون إلى ربهم جَلَّ في علاه، وقد ذكر ابن جرير الطبري في أولى الأقوال التي يحتملها ظاهر التنزيل الكريم: أنه كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فأسلم النفر من الجن، واستمسك الإنس بعبادتهم، فقال الله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1] وجاء في صحيح البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان ناس من الإنس يعبدون الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم[2] فاسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ يعود على المعبودين من دون الله تعالى، سواء كانوا من الأنبياء، أو من الجن، أو الملائكة، أو الصالحين، فإن صفة عبادة هؤلاء المعبودين أنهم يتوجهون إلى ربهم تبارك وتعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ فإنهم يتوجهون إلى الله تعالى، فيدعونه عَزَّ وجل، ويطلبون القرب من ربهم بالأعمال الصالحة، فلا يرجون غير الله تعالى، فإنهم موحدون له. فكيف تتوجهون لمن يتوجه لربه تبارك وتعالى، مستكيناً، ومعلناً فقره وعجزه وحاجته لربه جَلَّ في علاه. والوسيلة هي كل ما يتوسل ويتوصل به إلى رضا الله تعالى. فأنتم تعبدون من يعبد الله تعالى. أفلا تعقلون ؟

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٩/١٤)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢٥١/٣) برقم (٤٧١٤)

بل إنهم يتسابقون إلى طاعة الله تعالى ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فهذا دليل على التسابق في طاعة الله تعالى، ليكونوا الأقرب إلى الله تعالى بطاعته ورضاه، وذلك بالاجتهاد في الامتثال له سبحانه وتعالى. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ راجين بذلك التسابق في الطاعة أن يرحمهم ربهم فيدخلهم الجنة، وكذلك من صفاتهم في عبادتهم أنهم ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ خوفاً من عذابه سبحانه وتعالى، لأن عذاب الله عظيم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: إن عذاب ربكم عذاب جدير بأن يحذره العباد، وأن يتقوه بالطاعة واجتناب المعصية.

وفي هذا استنكار لكل من يعبد الذين يعبدون الله تعالى من النبيين والملائكة والصالحين، ومن عموم العباد والمخلوقين جميعاً، فكيف تتوجهون إليهم وهم يعلنون افتقارهم إلى الله تعالى، بل إنهم مخلصون في دعائهم، وفي توسلهم، وفي رجائهم لرحمة الله تعالى، فإنها محاكمة تخاطب العقل بالحقيقة، مما يبين أن منهج الله تعالى واضح، وأنه لا غموض فيه، وأنه هو الحقيقة المطلقة التي ليس فوقها حقيقة. وكذلك يفيد هذا البيان الكريم أهمية الإخلاص لله تعالى، وأهمية الدعاء، وبذل غاية ما يستطيع العبد من الطاعة، وأن ينافس في تحقيقها بقدر ما يستطيع، وأن يكون الرجاء ماثلاً في قلبه وعمله، وأن يكون شديد الرجاء في طلب الجنة ورحمة الله عموماً، وأن يخاف عذاب الله تعالى، فإن عذابه لمن عَلِمَهُ يستوجب الخوف والحذر منه عَزَّ وجل، وأن يتوقاه بالطاعة وحُسن الامتثال. اللهم اجعلنا ممن يدعوك وحدك ويرجو رحمتك ويخاف عذابك، ويعمل بطاعتك، وينافس المتنافسون في طاعتك والتماس رضاك يا رب العالمين.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

بعد تفنيد حقائق الشرك، وكشف زيفه، ومعالجة ما فيه من الكذب والتدليس وعمق الجهل عند أهله، وتقرير توحيد الألوهية بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتقرير توحيد الربوبية، بأن الله تعالى رب كل سيء ومليكه، وأن العبودية لا تكون إلا لله تعالى وحده لا شريك له، ينتقل السياق إلى التهديد المباشر لمن لم يتب من الشرك والكفر عموماً، وذلك بالاستئصال والاجتثاث بالعذاب، كما استأصل القرى التي كذبت

بالرسل، وبما جاءهم من عند الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ فما من قرية كذبت الرسل، وكفرت بالله تعالى وبما جاءهم من الحق، إلا وأهلكهم الله تعالى، وأبادهم بالاستئصال في الدنيا قبل عذاب يوم القيامة، فإن لم يهلكها سبحانه وتعالى ويستأصلها بالموت وأسبابه، فإنه يعذبها بأشد من ذلك ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فيعذبها الله تعالى عذاباً شديداً.

ثم يبين عَزَّ وجل أن ما قرره أمر ثابت، قد قضى به ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ فهذا حكم قد حكم الله تعالى به في اللوح المحفوظ، فهو مكتوب عنده. وبالتالي فعلى المشركين أن يتقوى ويحذروا من أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم، قبل أن يحل بهم العذاب، فإنه ما من قرية ظالمة إلا ويحل عليها العذاب.

والمقصود بالقرية أهل القرية، فهم المُهلَكُون ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وهم الظالمون. وأما أهل القرى الطائعة لله تعالى فلا ينالهم عذاب الاجتثاث والاستئصال، وإنما خص بالوعيد أهل الظلم، لأن الله تعالى قال في سورة القصص ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فخص الإهلاك بالقرى التي وقع من أهلها الظلم.

ومن الفوائد البيانية أنه قد يُطلق اسم المكان على قاطنيه، فيقال: اسأل القرية، والمقصود اسأل أهل القرية، ويقال: اسأل العير، ويقصد بها: أهل العير وراكبيها، ويقال مثلاً: أعط القافلة، ويقصد بذلك أهل القافلة.

وأفاد قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الإبلاغ والإنذار لأهل القرى الكافرة بما سبق وحل بمن قبلهم من المكذبين من أهلها، ليعطي دلالة الإنذار والتهديد. بل ومن شدة التهويل أن أظهر الله تعالى شديد غضبه ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ فنسب إيقاع الإهلاك لهم منه مباشرة سبحانه وتعالى، وأيضاً بخطاب التعظيم ﴿نَحْنُ﴾ فقد جاء ضمير المتكلم بصيغة التعظيم والتفخيم، ليتبين للمخاطبين عظمة الله تعالى وجلالته، وجلالة ما يقوله عَزَّ وجل ويبينه لعباده عن ذاته الكريمة العظيمة.

والهلاك بمعنى الإفناء والإبادة بسبب الظلم والمعاصي والضلال، ومن شدة الإنذار أنه أفاد التعجيل به قبل يوم القيامة ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأما النوع الثاني: فهو العذاب الشديد ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فإن لم يكن بالهلاك والفناء لهم فإنه يكون بالعذاب الموعودون به، وهو أشد من الهلاك، لأنه موصوف بالشدة. ومن أوجه العذاب: الأسر، والأمراض والأوبئة، والجوع، والقحط وغيرها من أسباب العذاب

بما يشاء سبحانه وتعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم، أو يعذبهم إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء[١]

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن عظيم علمه بما يكون قبل أن يكون، فقال عَزَّ وجل ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي: في اللوح المحفوظ مكتوباً. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: في الكتاب الذي كتب فيه كلَّ ما هو كائن، وذلك اللوح المحفوظ[٢]

ثم يخبر الله تعالى بشأن ما كان يطلبه المشركون من المعجزات، قال أهل التفسير: إن أهل مكة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو ربه تبارك وتعالى فيجعل الصفا ذهباً[٣] فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن الذي يمنع من إنزال ما يطلبون من المعجزات هو كفر غيرهم ممن من سبقهم بما طلبوا ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ فيخبر الله تبارك وتعالى أن المانع من إنزال المعجزات التي يطلبونها هو علم الله تعالى بما سيكون منهم من التكذيب، كما كذب بها الذين من قبلهم ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ فتكذيب الأولين ممن سبقهم من الأمم بعد إنزال الآيات هو شأن المكذبين المعاندين، فإن ما طلبه المشركون هو مثل ما طلب غيرهم ممن سبقهم من الأمم، وبالتالي يحق عليهم العذاب بتكذيبهم. إذ بعد أن أجاب الله تعالى تلك الأمم بما طلبوا، كذبوا بها، فأهلكهم الله تعالى بما كذبوا من قبل. ومن أولئك قوم نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام، فقد سألوه آية،: بأن تخرج ناقة من صخرة عينوها، فدعا صالح ربه تبارك وتعالى، فأخرج الله تعالى لهم منها ناقة ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فأعطى سبحانه وتعالى قوم ثمود الناقة، فكذبوا بها، فأهلكناهم، وقد كانت هذه الناقة واضحة الدلالة ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ فكلمة ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ تفيد انتفاء الغموض والشك والريب، فهي واضحة وباهرة الدلالة، ويقينية الحجة، بأنها آية من آيات الله تعالى ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: فجحدوا بها، فوقع ظُلمهم بهذه الآية العظيمة، فاستحقوا على كفرهم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٣٠/١٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١/٣)

العذاب. ولعل في تخصيص آية قوم ثمود بالذكر من بين كثرة الأمم المكذبة هو باعتبار قربها من طريق أسفار أهل مكة إلى الشام، وشهرتها بينهم. مما يفيد رحمة الله تعالى بالعباد، وحلمه عليهم، إذ ليس الغاية هو العذاب، بل الغاية إخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق، ليكون مصيرهم إلى الجنة بدل العذاب المهين.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن سبب إرسال الآيات ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فإن إرسال الآيات والمعجزات والعبر تخويفاً من عاقبة الكفر والتكذيب، ومن أجل حث العباد على الطاعة، والانقياد له سبحانه وتعالى، باتباع لمرسلين وطاعتهم، وكذلك تذكيرهم بقدرة الله تعالى، ولتكون حجة بينة على صدق المرسلين، ليحصل الخوف عندهم من غضب الله تعالى ومقته وعذابه، فينزجروا ويتوقفوا عن التمرد والعصيان، ويُقبِلُوا على طاعة الله تعالى.

وفي تعميم البيان قوة بلاغية عظيمة، إذ لم يحدد تبارك وتعالى زمناً ولا مكاناً ولا نبياً بعينه فيما يخص إرسال الآيات، فقال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ لتشمل جميع ما يرسله عَزَّ وجل، سواء ما كان عن طريق الأنبياء والمرسلين، أو ما يرسله عموماً، كالخسف والزلازل، والفيضانات، والأوبئة، والقحط والجفاف، وما يحدث من الحروب، وغيرها من الآيات. والتي مفادها أهمية الانتباه لما يحصل من الآيات، وعلاقتها بواقع العباد. وكذلك التنبيه على أهمية استلهام المواعظ والعبر مما يحدث من الحوادث، وأن ما يحدث في الكون عبرة وإنذاراً من الله تعالى. وأن المقصد من الآيات هو التخويف، والتنبيه ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ وأن الغاية هو تحصيل الاتعاظ والطاعة والامتثال لله تعالى.

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن امتناع تحقيق الآيات التي اقترحها المشركون، لما سيلحق المكذبين بها من العذاب، كما هو شأن من سبقهم من أهل القرى التي كذبت بها فأهلكهم الله تعالى، انتقل السياق بالإخبار عن كمال علمه سبحانه وتعالى، وإحاطته بالناس علماً وقدرة، ومخاطباً بذلك نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ ﴾ أي: أذكر أيها النبي حين قلنا لك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ إن ربك أحاط بالناس قدرة وعلماً، فإنهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه. ومن دقائق السياق أن ابتداء البيان كان بحرف التوكيد ﴿إِنَّ ﴾ التي أفادت توكيد ما بعدها من الإحاطة بالناس ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ والتي وردت من دون تحديد لنوع الإحاطة، ولا لنهايتها، لتعطي كمال وشمول الإحاطة من غير تخصيص ولا تعيين، فتشمل بذلك جميع جنس الإنسان، فإنهم في قبضته وتحت إرادته سبحانه وتعالى، وورد التعيين بجنس الإنسان، ليشمل الجميع، سابقهم ولاحقهم، وما أهل مكة إلا جزء من جنس الإنسان الذين أحاطت بهم قدرته وعلمه جَلَّ جلاله.
بل ووردت كلمة ﴿أَحَاطَ ﴾ بصيغة الماضي، لتعطي دلالة كمال التحقق والثبوت المستمر الذي لا ينقطع أبداً.

وفي هذا تثبيت وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، من أن الله تعالى مطلع على ما يقوم به أعداؤك، وما يخططون له، ويفكرون فيه وينون القيام به، بما يفيد: فلا تُشغل ذهنك بهم أيها النبي، وبما يمكرون، فإن الله تعالى مانعهم عنك، وعاصمك منهم. فإن سندك ووليك هو الله تعالى، خاصة وقد أضيف الضمير المتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الرب عَزَّ وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ففي ذلك بيان إلى معية الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، وفيه كذلك تكريم وإيناس له عليه الصلاة والسلام. وقد قال عروة بن الزبير رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ منعك من الناس[١] مما يفيد أن من كان وليه الله تعالى، فإنه كافيه شر الأشرار، وفيه معالجة لكل مؤمن يخاف بطش وظلم غيره له، بأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية عن الناس والخلق أجمعين، فهو الذي أحاط بهم علماً وقدرة.

ثم يُشير اللهُ تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن المشاهدات التي شاهدها ليلة الإسراء، والتي رأى فيها من عجائب قدرته وآياته عَزَّ وجل ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فما رأيته أيها النبي من العجائب والآيات ليلة الإسراء، وأخبرت بها الناس، إلا كان اختباراً وامتحاناً لهم، ليثبت المؤمن، ويظهر المشرك. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: كان ذلك ليلة أسري به إلى بيت المقدس، فرأى ما رأى، فكذبه المشركون حين أخبرهم[٢] فكانت فتنة واختباراً للمشركين، وكذلك هي تمحيص للمسلمين، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أن أناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله تعالى ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين[٣] وذكر ابن جرير أن عكرمة رحمه الله تعالى روى عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: هي رؤيا أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به، وليست برؤيا منام[٤] وذكر ابن الجوزي أن الرؤيا هي رؤيا عين، وهي ما رأى صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به من العجائب والآيات، وهو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم كثير[٥] مما يدل على عظيم الآيات التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي وردت تفاصيلها في الأحاديث النبوية الكريمة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٦٤٠)
(٢) المرجع السابق (١٤/٦٤٢)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٢)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٦٤١)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٩)

ومن جميل البيان ودقة دلالة ألفاظه أن لفظة ﴿ ٱلرُّءۡيَا ﴾ ولفظة ﴿ أَرَيۡنَٰكَ ﴾ قد أفادت المشاهدة والمعاينة، وأن هذه المعاينة تفضلاً من الله تعالى ﴿ أَرَيۡنَٰكَ ﴾ فما كان لك أن تراها لولا أن الله تعالى هو الذي مكنك منها، بما يشير إلى منزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم عند ربه عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن الآيات، والتي منها ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم(١) وهي فتنة واختبار للناس، وَوُصِفَت بالملعونة، لأنها طعام عذاب للكافرين. وذكر ابن جرير الطبري عن قتادة رحمهم الله تعالى عن الزقوم أنه: خَوَّف اللهُ بها عباده، فافتتنوا بذلك، حتى قال قائلهم، وهو: أبو جهل بن هشام: زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر(٢) مما يفيد أن واجب الإنسان عموماً، والمؤمن خاصة أن لا يقيس قدرة الله تعالى على قدرة المخلوقين فيضل ويشقى، بل إن قدرة الله تعالى عظيمة ليس لها قياس، ولا مثيل، فقد جعل النار سلاماً على إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، فالذي وضع الخصائص للمخلوقات، هو الذي يسلبها ويحيلها ويحولها كيف شاء عَزَّ وجل. فقدرة الله تعالى أعظم من أن يحيط بها المخلوق، فليتأملها الإنسان في مخلوقات الله تعالى، والتي منها الليل والنهار، والشمس والقمر، وفي السحاب ونزول الأمطار، وفي النبات والإنبات، وفي نفسه، وفي سائر المخلوقات. ومن ذلك أن الله تعالى يُخرِج من الشجرة النواة الميتة، ويخرج من هذه النواة الميتة الشجرة.

ثم يخبر الله تعالى عن تخويفه للكفار بأنواع العذاب، لعلهم يتوبون من كفرهم ﴿ وَنُخَوِّفُهُمۡ ﴾ أي: نخوف الكافرين بالوعيد والعذاب والنكال، ولكن من شدة عنادهم وتكبرهم فإن هذا التخويف لا ينفع فيهم، بل يزدادون به عناداً ﴿ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ فلا يزيدهم التخويف إلا تمادياً في الباطل والكفر والضلال، والجحود، ومحاربة الحق. مما يبين أن الله تعالى يريد لعباده الخير والحق، بالترغيب والترهيب، ولكن بعضهم يتمادى في الطغيان. وبالتالي فلا يلوم الإنسان إلا نفسه.

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾
قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا
﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥٠/١٤)

مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن الشيطان العدو اللدود للإنسان، منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام، فقال تعالى ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾ فقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم سجود تكريم وتفضيل، بما يفيد أن الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد، فيأمر من يشاء بما يشاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء لمن يشاء، فأطاعت الملائكة كلهم أجمعين بما أمر الله تبارك وتعالى به إلا إبليس ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ فاذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وأيها المؤمنون حين قلنا للملائكة ﴿ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ وهو فعل أمر يقتضي الوجوب، فاسجدوا له سجود تكريم، لا سجود عبادة، ولله تعالى أن يفضل من يشاء على من يشاء من عباده، فليس للمخلوق حق الاعتراض. وفي دلالة قوله تعالى ﴿ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ ما يفيد الوجوب اللازم الذي لا مناص ولا عذر منه، كما يدل على سرعة التنفيذ المباشر. وهنا أطاعت الملائكة ﴿ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ امتثالاً وطاعة، من غير سؤال عن علة السجود، وهذا غاية الطاعة والامتثال التي تمثلت به الملائكة عليهم السلام. مما يبين مكانة الإنسان عند الله تعالى، إذ أمر الملائكة أن تسجد لأبيهم آدم عليه السلام، إكراماً له وعبودية لله تعالى، لأن طاعة الله تعالى عبادة له جَلّ جلاله. كما تفيد امتثال الملائكة لأمر ربهم دون اعتراض، فهم يفعلون ما يؤمرون، بما يؤكد أهمية الطاعة لله تعالى دون احتجاج عقلي، وبما يفيد ويؤكد وجوب تقديم النقل عن الله تعالى على العقل. لكمال النقل عن الله تعالى وقصور العقل.

فأطاعت الملائكة عليهم السلام أمر ربهم تبارك وتعالى، وأما إبليس فامتنع عليه لعنة الله ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ فامتنع إبليس عن السجود استكباراً، واستعلاء. وكان امتناعه من غير تردد، على نقيض الملائكة التي سجدت من غير تردد، فهو المستثنى من الساجدين. بل من كبريائه أنه يسأل ربه تبارك وتعالى سؤال اعتراض وامتناع واستكبار ﴿ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾ وفي هذا استنقاص منه للمادة التي خلق اللهُ تعالى منها آدم عليه السلام. واعتراض منه على أمر الله تعالى. مما يدل على جرأته عليه لعنة الله تعالى، وخطورته، وعصيانه، وتمرده، بالرغم من علمه وعلم الملائكة من الله تعالى أنه عَزَّ وجل سيخلق بشراً من طين، كما جاء في

سورة الحج ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فبذلك علم إبليس بمشيئة وقدرة الله تعالى بما هو صانع قبل أن يصنع، وما هو خالق قبل أن يخلق. مما يدل على عداوته وحقده وحسده لآدم وذريته منذ أن خلقه الله تعالى. مما يُوجِب على الإنسان أن يتخذه عدواً مبيناً. كما لا يُقدم عقله على شرع الله تعالى، وأن ذلك منهج إبليس لعنه الله تعالى، وليعلم أن تفاضل المخلوقات راجع إلى الله عَزَّ وجل، وليس للمخلوقين، مما يعطي درساً في منهجية التعامل مع من يفضلهم الله تعالى في أمور الحياة المتنوعة، فلا يتجاهل ولا يحسد أحداً، فإنما المخلوق تابع في تفضيله لما فضل الله تعالى. فالكبر مانع للخير، حيث يمنع الإنسانَ عن مصالحه وفوزه ونجاته، كما امتنع بعض من شاهد الرُّسُل وقامت عليهم الحجة والأدلة، وكذلك مِثلُ من استكبر من كفار قريش وغيرهم بعد أن عرفوا الحق، وشاهدوا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وخَبَرُوه وعرفوا حقيقته وما اتصف به قبل بعثته وبعد بعثته من الأمانة وكريم الصفات والأخلاق والتواضع.

وفي الآيات إثبات الكلام لله تعالى. وأن لله الأمر والنهي، وأنه لا يُسأل عما يفعل تبارك وتعالى، والعباد يُسألُون ويُحَاسَبُون. وأن لله الحكمة البالغة فيما يأمر وينهى. وكذلك قصور علم من خلق من المخلوقات.

ويخبر الله تعالى بما رد به إبليس على ربه تبارك وتعالى ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال إبليس لربه جَلَّ جلاله: أرأيت هذا الذي فضلته عليَّ، فإن أبقيتني حياً إلى يوم القيامة لاستولين على ذريته بالإغواء إلا القليل منهم، وهم المؤمنون، المخلصون لله تعالى. فبدأ الكلام بالتعليل الإنكاري ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ وحذف الجواب الذي هو متعلق بهذا الاستنكار. أي: أخبرني. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال: آسجد لمن خلقت طيناً، وأرأيتك، وهي في معنى: أخبرني، والكاف ذكرت في المخاطبة توكيداً، والجواب محذوف، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كَرَّمت عليَّ، وقد خلقتني من نار، وخلقته من طين؟ فحذف هذا، لأن في الكلام دليلاً عليه[1] فالكلام دليل على أن المحذوف هو: خلقتني من نار، وخلقته من طين. فيعترف إبليس بأن الله تعالى قد كَرَّم آدم عليه السلام، بما أمر له من السجود، وأنه سجود تكريم لا عبادة ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ وهذا سؤال استنكار، وتعجب من إبليس، واعتراض، بل من شدت حسده، أنه يتكلم بصيغة الاحتقار لآدم عليه السلام، فاسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ يفيد الاحتقار، والاستصغار بحسب السياق، مما يدل على أنه وضع نفسه في رتبة عالية، وحكم على نفسه بالرفعة على آدم عليه السلام، فمنحها وأعطاها حكماً من عنده. بينما الحكم لله سبحانه وتعالى

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤١/٥)

بما يشاء، وبالتالي على الإنسان ألا يتعالى ويستنكف على من خصهم الله تعالى بفضل، خاصة في الأرزاق والمناصب والولاية والإمارة، وكثرة الذرية، وغيرها من أنواع الفضل، وإن رأى من نفسه أو أن غيره أحسن منه، فليمتثل، ولا يستنكف ويناكف، فربما هناك خصائص خفية لا يعلمها إلا الله تعالى، بل عليه أن يُعين ويسدد مَن فَضَّلَهُ اللهُ تعالى عليه، ويعينه وينصح له.

ومن جراءة إبليس أنه يتوعد ذرية آدم عليه السلام ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فهذا الكلام من إبليس يوضح ويبين ويكشف ما يضمره لبني آدم حال إن مكنه اللهُ تعالى من البقاء حياً، ومعترفاً بأن بقاءه حياً منوط بإرادة ربه تبارك وتعالى ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فهو يؤمن بأن الحياة والموت بيد الله عَزَّ وجل، ويعترف بقدرة الله تعالى، ولكنه يعصي الله تعالى مع علمه بعظيم عزة وقدرة الله جَلَّ في علاه، وذلك بسبب حسده وكبريائه، مما يبين مخاطر الكبر والحسد، فإنها تجعل المتكبر والحاسد يعاند الحق، بالرغم من معرفته له، ومعرفته بعاقبته، مما يوجب الانتباه والوقاية والحذر.

فإن حصل هذا التأخير ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: لاستولين عليهم بالإضلال، ولأقودَّنهم إلى المعاصي بالتزيين والترغيب، والحث عليها، واستثنى القليل من عباد الله تعالى ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهم المؤمنون، المخلصون في طاعتهم لله تعالى. فغوايته للمؤمنين لا تجدي ولا تنفع معهم، ولا يحصل بها مراده، لحماية الله تعالى لهم، وعصمته لهم من الشيطان. وتؤكد الآية التي بعدها ذلك.

وفي هذا البيان توضيح شامل وكامل بأن الشيطان عدو للإنسان منذ أن خَلَق اللهُ تعالى أبينا آدم عليه السلام. وفيه كذلك بيان وإعلام لذرية آدم من بعده أن يتخذوا الشيطان عدواً، ويحذروا من وسوسته وتزيينه الباطل، وجميع أنواع وسائل غوايته، التي يريد منها إخراجهم عن طاعة الله تعالى، وإبعادهم عنها وعن الجنة. ويدل ويبين استثنائه القليل ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾ على معرفته بعجزه عن المؤمنين، وعدم قدرته في التسلط عليهم ابتداء.

ومن مسلك إبليس يتضح ويتبين أنه يُقر ويعترف بأن الله تعالى هو الذي له حق التفضيل بين الخلق، فيقر بأن الله تعالى هو الذي فضل آدم عليه ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ فيقر لله تعالى بأنه هو الذي يُكرم من يشاء، ويذل من يشاء، كما يُقر ويعترف بأن أجله بيد الله تعالى ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ ففي هذا اعتراف منه بأن أجله بيد الله تعالى، ويقر ويعترف بيوم القيامة ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ومع

هذا يمتنع عن طاعة الله تعالى بالسجود لآدم، ويتعهد بأن يجر ذرية آدم إلى معصية الله تعالى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ومع جميع هذه الاعترافات والاقرارات من إبليس فإنه يجاهر بالعناد والمكابرة بسبب تفضيل الله تعالى لعبده آدم عليه، فالسبب إذاً هو رؤيته لنفسه بمعزل عن منهج الله تعالى، فبنى ذلك على أصل الخلقة والتكوين، بأنه من نار، وآدم من طين، فبنى على هذه الرؤية أفضليته، التي جَرَّته للاستنكاف والتكبر، فلا يرى في آدم فضل. مما يبين أهمية بناء المفاضلة على منهج الله تعالى، ومراد الله عَزَّ وجل، وأن على الإنسان ألا يسلك مسلك إبليس، بل يتجنب ذلك ويحذر منه، فالمفاهيم الخاطئة تجر إلى الاقرارات الخاطئة، ثم التصرفات التي تَصْرِف الإنسانَ عن الاستقامة، وعن لزوم الحق، سواء كان ذلك في حق الله تعالى، أو حقوق الآخرين. وقد تم التوسع بالمزيد عن هذا في سورة الأعراف.

فأجاب الله تعالى إبليس بقوله عَزَّ وجل ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ فقال له تبارك وتعالى ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ فامض في شأنك الذي أردته، بما يفيد الإمهال والإنظار لإبليس، وفائدة هذا الإذن له بالإنظار ليزداد ضلالاً وإثماً، وعقوبة له، فيزداد عذابه، وفي إبقاء إبليس وإنظاره اختبار لعباده سبحانه وتعالى من الإنس، ليتبين من يطيع الله تعالى، ومن يطيع الشيطان ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي: فمن أطاعك من ذرية آدم، فإن الجزاء هو الجزاء المستوفي لكمال ما تستحقون ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ فإن جزاؤكم جميعاً هو ورود جهنم، لتكون مقاماً دائماً لكم، وهو ﴿ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أي: جزاء مستوفي ما تستحقون من العذاب، فهو وافر مستوفي لاستحقاقكم بما يحصل منكم من العصيان والتمرد. مما يفيد التحذير منه، وأن أمام الإنسان مسلكين، إما مسلك الطاعة لله تعالى، فيجزيه بخير الجزاء، أو أن يسلك مسلك المصاحبة والطاعة لإبليس، فيجازيهم بجهنم، جزاء مستوفياً لما يستحق صاحبه من العذاب، فلكل مسلك ما يناسبه من الجزاء المستوفي لما يستحق، والذي لا نقص فيه البتة. وهذا من عدل الله تبارك وتعالى.

ثم يفسح الله تعالى لإبليس في الأجل، ويأذن بما يكون منه مع ذرية آدم عليه السلام ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وفي هذا تأكيد للإمهال والإنظار، مع بيان ما يُمْكِنُه أن يقوم به مع ذرية آدم عليه السلام إن تمكن من ذلك ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ فيا إبليس استنفر

بالاستفزاز، واستنهض من استطعت من ذرية آدم، إن استطعت ذلك. وجملة ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ على سبيل التعجيز، والتهديد له بالعقاب إن فعل ذلك. وتفيد بيان ضعف استطاعته، وتقليل أثر قدرته، فورود سياقها جاء على سبيل التقليل، لأن جملة ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ تفيد التبعيض فيما لو استطعت، وتقليل أثره، فإنك إن استطعت أن تصنع شيئاً فاستفزز من استطعت إن استطعت على شيء منهم. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أمر تعجيز، أي: أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان، فافعل ما شئت[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن: هذه الآية، لفظها لفظ الأمر، ومعناها التهديد، قال ابن الأنباري: هذا أمر معناه التهديد، تقديره: إن فعلت هذا عاقبناك وعذبناك[٢]وبلا شك أنها تحمل الإذن الذي يحمل التهديد والوعيد، لأن الله تعالى قال في الآية الكريمة التي قبلها ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ فتكون الآية بالإذن المشتمل على التهديد والوعيد، فإن فعلت ذلك الاستفزاز والغواية لهم، جازيتك على فعلك بما تستحق من العذاب، لأن كل ظالم لا بد أن ينتقم الله تعالى منه بما ظلم. ولأنه لا يكون في الكون شيء إلا بإذن الله تعالى ومشيئته. فتأجيل القضاء على إبليس ومعاقبته كانت بحكمة الله تعالى وتدبيره، ولذلك طلب إبليس من الله جَلَّ جلاله أن يؤخره إلى يوم القيامة، فأخره الله تعالى ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فتأخير الله تعالى لإبليس هو عن مشيئته وحكمته سبحانه وتعالى. ولذلك عندما نفى سبحانه وتعالى سلطان إبليس على عباده في سورة الحجر استثنى عَزَّ وجل من يتبعه من الغاوين، إذ قال تبارك وتعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ فإن الضالين عن طاعته سبحانه وتعالى يتبعون الشيطان، ويتولونه حين يستفزهم ويستنفرهم بصوته وخيله ورجله، وبالتالي يتسلط عليهم، ويتمكن منهم. فهم الذين أطاعوا دعوة إبليس، وكان بإمكانهم ألا ينقادوا له.

ومن باب التعجيز ذكر سبحانه وتعالى لإبليس مشارب ومواطن الاستفزاز التي يمكن أن يقوم بها إن استطاع إلى ذلك سبيلا ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهذه ستة طرائق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٨٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٤٣)

يستخدمها الشيطان، ليتبين له من يطيعه ومن يعصيه، وهي في نفس الوقت تحذير للإنسان من أن يتولى الشيطان، مبيناً جَلَّ جلاله لعباده مسالك هذا الشيطان الرجيم. فمن سلك مسلك الشيطان، ولم يسلك طاعة الله تعالى، فإن الله عَزَّ وجل لا يبالي بمن عصاه، واتبع مسلك الشيطان الرجيم، لأنه أصبح معاد لله تعالى وللمرسلين وللحق.

فالوسيلة الأول ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ فالوسيلة الأولى هي: الاستفزاز بالصوت، ولم يحدد ويخصص تبارك وتعالى نوعاً من الأصوات، لتشمل كل صوت يستطيع عليه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولم يخصص من ذلك صوتاً دون صوت، فكل صوت كان دعا إليه وإلى عمله وطاعته[1] فيدخل في ذلك كل صوت يحقق مراده من الغواية.

والوسيلة الثانية ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ ﴾ أي: واجمع عليهم كل ما تستطيع من مكائدك التي تستطيع عليها خيلك، ومعنى الاجلاب: الجمع، أي: اجمع عليهم بخيلك، التي هي وسائله.

وأما الوسيلة الثالثة: هي الاجلاب برجاله، أو مُشاتِه ﴿وَرَجِلِكَ ﴾ أي من يطيعونك من الجن والإنس. قال قتادة رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ إن له خيلاً ورجالاً، جنوداً من الجن والإنس، وقال ابن عباس رضي الله عنه لمعنى ﴿وَرَجِلِكَ ﴾ الرجال المشاة، وعنه أيضاً: خيله: كل راكب في معصية الله، ورجله كل راجل في معصية الله[2] فشملت بذلك كل من ركب مركوباً في معصية الله تعالى، لتستوفي ما استجد وما يستجد من المخترعات في المراكب والرواحل.

والوسيلة الرابعة ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ ﴾ وذلك بتزيين وتبرير الاكتساب الخبيث الحرام، والإنفاق فيما حرَّم الله تبارك وتعالى، فمشاركته في الأموال، هي تزيينه للمكاسب والمصارف المحرمة، فتكون في الخبائث من المحرمات والمكروهات من المعاصي، وما يتحقق به الشر، ويمنع به الخير.

والوسيلة الخامسة: مشاركته في الأولاد ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ بأن يشاركهم في أولادهم، بما يحقق في أولادهم الفساد، سواء من جهة تربيتهم وتنشئتهم على الباطل، أو من جهة إطعامهم الخبائث، وعموم الحرام، أو من جهة تزيين معصية الأولاد لوالديهم، وعدم طاعتهم، وجلب الشر وما يكرهون

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥٨/١٤)

(٢) المرجع السابق (٦٥٩/١٤)

لوالديهم، فهي عامة لا حصر لها، فيدخل في ذلك الوقوع في الزنا، وتحصيل الولد من غير وجه شرعي، وقتل الآباء لأولادهم، وقتل الأولاد لآبائهم، فهي مشاركة مستوفية لكل شر يتحقق في الأولاد. وذلك بما يزينه من تحصيل الحرام وابتغائه والبحث عنه، وعدم الاكتراث بكونه حراماً أو حلالاً، وربما زين لهم الكفر، وغير ذلك مما لا حصر له.

والوسيلة السادسة، هي: الأماني الكاذبة والباطلة ﴿وَعِدۡهُمۡ﴾ أي: عدهم بالوعود الكاذبة، والأمنيات الخائبة، التي تُطَمّعْهُم في طاعتك، والتمادي في المعصية، فأتيحت له الفرصة بتلك الأسباب والوسائل، ولكنها في حق من يطيعه ويتبع أمره. وفي هذا تعجيز للشيطان من تحصيل ذلك من المؤمنين، لأن ليس للشيطان عليهم سلطان، وإنما سلطانه على الذين يتولونه. كما أن في هذا البيان من الله تعالى ما يفيد التحذير من الشطان، بعد إبانة وسائله الخبيثة.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة وعود إبليس وأعوانه، فيكشفها لعباده أجمعين ﴿وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فوعود الشيطان عبارة عن غرور، والغرور هو تزيين الخطأ والباطل، بما يوهم أنه الصواب والحق. أي: أن وعود الشيطان واهية لا حقيقة لها، فيغرر بالإنسان، إذ يجعل وعوده في صورة حقيقية جارية ومقبلة وزاهية، ثم لا يحصل منها شيء إلا الباطل والإثم، فيوقعهم في المصائد الشيطانية، إذ يجعل الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل. ويجعل للحرام زينة وشهوة، ورغبة للنفس فيه، ويضع المخارج الخادعة، ويلبسها بالشبهات، ليصطاد بها من يتبعه. فإنه استجلاب واستدفاع للإنسان من الشيطان نحو الباطل. ومن ذلك تزيين العقائد الفاسدة، والمعاصي، والفواحش، والمنكرات، والشك المفضي للكفر. ولذلك وجب على الإنسان الحذر منه، بعد أن كشف الله تعالى حقيقة عداوته، ووسائله التي يستخدمها مع من يواليه، وفي هذا اختبار للإنسان، وتمحيص له، ليتبين المؤمن من الفاسق، فيظهر مكنون العباد على حقيقتهم، من حيث طاعتهم وإخلاصهم لله تعالى، أو طاعتهم للشيطان والهوى.

ثم يخبر الله تعالى بحصانة عباده من الشيطان، وهم الذين يعبدونه ويطيعونه وفق ما أمر سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ فإن عبادي المؤمنين العابدين الطائعين له جَلَّ في علاه ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ ليس لك عليهم سلطة، ولا تسلط، ولا طريقة، ولا حجة تغويهم بها، فإن حجة الشيطان التي هي سلطانه من تزيين المعاصي والخبائث، والوسوسة، والتشكيك من أجل إشغالهم بها عن طاعة الله تعالى وعن الآخرة، فإنها غير متحققة في عباد الله تعالى، المطيعون له عَزَّ وجل. وفي هذا تطمين لعباده الصالحين، بأنهم في ولاية الله تعالى وحرزه. وقد شرفهم الله تعالى بإضافتهم له تبارك وتعالى، بأن أضافهم إليه ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ فلا تستطيع أيها الشيطان أن تغويهم في

ذنب لا يغفره الله تعالى بالتوبة والإنابة والاستغفار. فإنه ليس للشيطان القدرة على ذلك، ولا حجة يستطيع أن يُغويهم بها. فليس له سلطان على قلوبهم، ولا على إيمانهم، ولا يُلقِيهم في ذنب يؤدي بهم إلى عدم قبولهم، بل تزيله التوبة، وتمحوه الأوبة والاستغفار.

ثم يخبر الله تعالى بأنه هو الكافي الذي يكفيهم الشرور ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ فكفى بالله تعالى وكيلاً لأوليائه، فإنهم يتوكلون عليه فيعصمهم من طاعة إبليس. فإن عباد الله تعالى الذين هم أهل الإيمان يتوكلون عليه عَزَّ وجل، ويستعيذون به من الشيطان الرجيم، ويستعينون به على جميع أمورهم، وأن الله تعالى كافيهم، فكفى به وكيلاً عن كل وكيل ومعين. فهو الذي يحيطهم برعايته ومعيته، ويحفظهم من الشيطان وغيره. مما يبين ويوضح أهمية طاعة الله تعالى والتوكل عليه عَزَّ وجل، والاستعانة به جَلَّ جلاله، فإنه كاف عباده المؤمنين إذا توكلوا عليه عَزَّ وجل. وكفى به وكيلاً عن كل وكيل، ومغنياً وحافظاً وناصراً لهم.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا
﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا
﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ
لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

وينتقل السياق الكريم إلى بيان عظيم قدرته جَلَّ جلاله، وعظيم نعمته التي يراها الإنسان ويتنعم بها في لأسفار ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴾ فإن الله تعالى بقدرته وفضله يُسَيِّر الفلك بالرياح التي تهب في البحر من اتجاه لآخر، ومن جهة لأخرى، لتحققوا مرادكم من ابتغاء فضله من المعيشة ومن عموم الرزق ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ ونسب سبحانه وتعالى ما يطلبونه ويبتغونه له وحده عَزَّ وجل ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ فالذي تطلبونه هو ملكه ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ إذ هيأه وسخره لكم، ومن ذلك الذي تتخذونه وسيلة، وهي ﴿ٱلۡفُلۡكَ ﴾ فإنها من فضله، إذ هو الذي يزجيها بِسوقها لكم ﴿يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ وكلمة ﴿يُزۡجِى ﴾ بمعنى: يقدمه ويسوقه لكم، فهو الذي جعل تلك السفن تطفو فوق البحر، بالرغم من كبر حجمها، وعظيم ما تحمله من الأثقال، سواء من البضائع والأرزاق، أو مما ينتفع به الإنسان، فينقله من مكان لآخر، من التجارة أو الاستخدام والانتفاع، وهو

الذي هداكم لصنعها واتخاذها سيارة تسير بكم في البحر، لتبلغوا وتبتغوا بها مبتغاكم من الفضل، وكلمة ﴿فَضۡلِهِۦ﴾ تدل على أن الله تعالى هو المتفضل عليكم بما هيأه لكم من جميع الأرزاق، ومن سُبل تحصيلها.

وأفاد حرف ﴿مِن﴾ في جملة ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ التبعيض، بما يدل على أن فضل الله تعالى عظيم وكثير، لا يحصيه ولا يحيط به أحد من خلقه، فالذي تبتغونه هو شيء من فضله العظيم، وليس جميع فضله الذي لا يحيط به أحد من خلقه تبارك وتعالى. وفي هذا تعظيم لما خلق الله تعالى وهيأ من الأرزاق والمعايش المتنوعة والمتكاثرة. فإن فضل الله تعالى عظيم، لا يحده ولا يحصيه أحد. اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم. والحمد لله على فضله وامتنانه وإحسانه.

فأكد وبين سبحانه وتعالى انفراده بما أنعم على عباده، وأنه هو الذي هداكم أيها الناس بالعلم والتعليم، فصنعتم الفلك، وعرفتم حركة النجوم، والاتجاهات، وابتغاء الفضل وطلبه بالتجارة وغيرها من المعارف. وهو الذي سخر لكم البحر، وجعله مطية للسفن، دون أن تتأثر بأمواج البحر، مما يدل على عظيم إتقان الله تبارك وتعالى لما خلق وهيأ، وأنه حكيم عليم في تصريفه وتهيئته للأشياء والأمور، مما يستوجب عليكم شكر ربكم بما أنعم به عليكم، وأن تؤمنوا به، وتطيعوه، وأن تُفْرِدُوه بالعبادة، وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. كما قرر سبحانه وتعالى ربوبيته بِتَصَدُّرِهَا الآية الكريمة ﴿رَّبُّكُمُ﴾ فهو ربكم ومالككم، الذي له حق الطاعة منكم له، فهو الذي يربيكم بإنعامه وخيراته وأرزاقه وهدايته وتوفيقه، وبشرعه وكتبه ورسله.

وفي تتابع بليغ وبديع يربط سبحانه وتعالى بين نعمة التسخير فيما سبق وبين نعمة الغوث والإنجاء حال ما يصيب الإنسان الهلع والفزع عند خوضهم البحر ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ فإذا مسكم الضر أثناء إبحاركم في البحر عدلتم عن دعاء الذين كنتم تدعونها في الرخاء من الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله تعالى، وكنتم تلوذون بها، وتقدمون لها القرابين، وتستنجدون بها في البر، واليوم عندما مسكم الضر في البحر اتجهتم إلى الله تعالى وحده لا شريك له، فقد ذهب عن خواطركم كل معبود في تلك الحظة، التي هي حالة الفزع ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا الله سبحانه وتعالى، إذ عقدتم رجاءكم في الله تعالى وحده لا شريك له، وفقدتم من تدعون من دونه سبحانه وتعالى. فأوقفهم عَزَّ وجل على حقيقتهم، وحقيقة شركهم في الرخاء، وحقيقة توحيدهم لله تعالى في الشدائد.

فبدأ النص الكريم بإيقافهم أولاً: على حالهم في الشدائد ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾ والمس هو الإصابة، الملامسة للقلوب في هذا السياق، لما يصيبهم من الهلع والخوف، وهو الضر ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ الذي

هو خوف الغرق. باعتبار أنه ضر في البحر ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ ومن دقة البيان أن قصر الضر على البحر، بتعيينه وتحديده، ليتبين أن المقصود به ما يصيب الإنسان من هول البحر والخوف من الغرق، بسبب ارتفاع وهيجان الأمواج من كل جانب. وهنا كان من حالكم هو أن ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ تاه وذهب عن قلوبكم وخواطركم كل من كنتم تدعونهم من دون الله تعالى إلا الله عَزَّ وجل، فكان حاضراً في قلوبكم وقت شدة الضر في البحر.

وجاء تحديد المدعوين من دون الله تعالى على وجه العموم، ليستجمع ويستوفي جميع أصناف من يدعونهم ويتقربون إليهم من دون الله تعالى، من الأصنام، والأوثان، والجان، والإنس، والشجر والحجر، والأولياء، وغيرهم ممن يستجدي بهم الإنسان المشرك، فلم يتذكر تلك اللحظة إلا الله تعالى ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وفي ذلك إيقاف الإنسان على الحقيقة، فلماذا يا أيها المشرك لا تستنجد به سبحانه وتعالى إلا عند حلول الكرب؟ بينما حال الرخاء تعبد غيره، ليبين للكافر والمشرك حقيقة التوحيد التي فُطِر عليها، ويصحح له المذهب الفكري، بإعادته إلى الحقيقة الفطرية. ولتظهر لهم حقارة أنفسهم فيما يعبدون من دون الله تعالى. وهذا يدل على أن منهج الله تعالى قائم على الحقائق، وأن الدعوة الإسلامية مبنية على الوضوح والحق. وأن دين الله تعالى واضح لا لبس ولا خفاء فيه. وكذلك أهمية المحاجة بالحق، وأن الأدلة الشرعية كافية في بيان الحق، وأهمية أسلوب الحوار. كما يستفيد المؤمن من هذا البيان الكريم أن يحرص على أن يكون ملجأه إلى الله تعالى، ثم الأخذ بالأسباب.

ثم يبين تبارك وتعالى انطماس فكر المشركين، بعودتهم إلى الضلال بعد أن نجاهم الله تعالى، وفرَّج عنهم الضر والكرب الذي مسهم، وأحاط بهم ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ فلما أنجاكم من هول ما كنتم فيه، وأبلغكم ما تحبون من الأمن، رجعتم إلى الإعراض عن إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية والعبودية، وتركتم الإخلاص في الدعاء الذي بذلتموه حال مسكم الضر في البحر، ثم رجعتم لمعبوداتكم من دون الله تعالى، وأصبحتم ترجونها وتعبدونها. مما يبين عمق ظلم الإنسان لنفسه.

ثم يبين عَزَّ وجل حقيقة الإنسان ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ أي: كثير النكران والجحود للنعم. وهو أمر يثير التعجب من حال هذا الإنسان الذي يجحد نِعَم الْمُنْعِم، بل يبلغ من كفره بالله تعال أن يبالغ في ذلك، لشدة طغيانه في الكفر، لأن ﴿ كَفُورًا ﴾ تفيد المبالغة، إلا من آمن واهتدى إلى صراط الله المستقيم. وأما علة عودة هذا الإنسان المشرك إلى الكفر بعد إذ نجاه الله تعالى مما كان فيه من الضُر هو كثرة إنكاره وجحوده لمن أنعم عليه. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد التنبيه والتحذير من هذا الْخُلُق الذميم، الذي اتصف به

الإنسان، وكل بحسب ما فيه من هذه الخصلة الذميمة. والتي قد تكون منه مع خالقه تبارك وتعالى، وكذلك تكون من الإنسان مع غيره من الناس، فتظهر في حاله مع من أحسن وتفضل إليه بفضل من الناس. فكثيراً ما يتناسى فضائل من تفضل عليه من غيره. وكثيراً ما يعصي العبد ربَّه تبارك وتعالى، والذي أنعم عليه بنعمه التي لا تُعد، وإحسانه الذي لا يُحد، فيتغافل عنها وهو يعيش بها وبينها، وفي ظلالها.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما يستثير عقولهم نحو التفكر فيما كان منهم من جسامة المعصية، حينما اشتدت بهم الشدائد في البحر، فأخلصوا الدعاء لله تعالى، ثم عادوا إلى لشرك بعدما أنزلهم ربهم البر بفضله وكرمه، ليتدرج بهم البيان إلى السؤال الاستنكاري لفكرهم وما يعتقدون. فهل تعتقدون أيها المشركون أنه بنزولكم البر قد أصبحتم في مأمن وسلامة من عذاب الله تعالى، ومكره بكم ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ فهل تعتقدون أنكم في مأمن من عذاب الله تعالى حين نزلتم إلى البر بعد أن كنتم في ضر البحر وأهواله ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ فهل تعتقدون أن الأرض أمان لكم من عذاب الله تعالى؟ فهل أنتم في مأمن من أن تنهار بكم الأرض، فينقلب ظاهرها إلى باطنها؟ إنه سؤال استنكار لعقولهم التي تلبست بالشرك في الرخاء، بعد أن كانت موحدة لله تعالى في شدائد البحر وأهواله، حيث أحاطت بهم أمواج البحر وكرباته. إنه سؤال يستدعي التأمل والتفكر، فإنه سؤال يستثير في الذهن الحقيقة، ويُخرِج الخطأ، ويُظهره من تخفيه بغطاء الجهل إلى منصة الشعور والتفكر، حتى يتأمله المشرك، ويدرك انحرافه عن الحق، ليعود إلى صوابه إن أراد الحق والصواب.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ جَانِبَ ﴾ في جملة ﴿ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ تفيد الطرف البري الذي أنتم تعيشون عليه، والذي ليس ببعيد عن البحر، وتفيد كذلك الطرف المقابل لطرف البحر الذي نجاكم منه، فليس البر كله، بل طرفه الذي أنتم عليه، فإنها دقة في البيان، إذ لم يقل تبارك وتعالى: أو يخسف بكم البر، بل قال تعالى ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ فإنها دقة متناهية في تحرير مقصد الكلام، وتحديد مكان الفعل دون غيره، فإنها بلاغة بيانية عظيمة. فليس البر هو مأمن من عذاب الله تعالى. فكلا الجانبين لله تعالى، وقدرته مستوفية للبر والبحر.

ثم تنتقل الاستثارة الفكرية إلى وجه آخر ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أو يمطر عليكم من السماء حجارة فتهلككم، دون أن تجدوا من يتوكل عنكم فيحفظكم من عذاب الله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ فلا تجدون من يتوكل عنكم فيحفظكم من عذاب الله تعالى،

فيدفع عنكم ما يصيبكم، ويحجبه بأي وسيلة كانت. وكلمة ﴿ حَاصِبًا ﴾ تفيد الرمي بالحصباء، التي هي الحجارة، وهي التي تحملها الريح الحاصبة الشديدة، فيرميهم بها، فتحصبهم وتهلكهم بما تحمله من الحجارة. ومن قوتها أنها تقصف الشجر، فتقتلعه من جذوره، أو تفصله عن جذوره قطعاً، نتيجة قوتها وشدة سرعتها. فتجدوا أنفسكم أمام العذاب الذي أصابكم من غير واق ولا ساتر ولا مانع ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ ثم بعد ذلك لا تجدون وكيلاً ينوب ويتوكل عنكم، فيدفع عنكم العذاب. وهو بيان وتصوير لمشاهد الضعف فيما لو حل بهم عذاب الله تعالى. وفي هذا البيان إيقاف لهم على الحقائق، وعلى ما يمكن أن يصيبهم من العذاب. فهل أنتم في مأمن من ذلك؟ إنه سؤال يستثير الذهن، مما يبين أن منهج دين الله تعالى في الدعوة والتربية قائم على إظهار وإبراز الحقائق.

مما يبين أن مِن أقوى أنواع وسائل إقامة الحجة، هو السؤال الذي يستثير فكر الإنسان نحو الحقيقة، ويرده إلى الحق من خلال كشف زيف الباطل، لما في السؤال من استثارة التأمل والتفكر في الحقائق الغائبة عن الذهن، ودفعها للخروج من مكمن الظلمات إلى نور الحق. فإن الرخاء ليس دلالة على الأمن من عذاب الله تعالى. فإن عذاب الله تعالى لا يرده الأمن والأمان. وفي هذا لفت الانتباه إلى نعمة الاستقرار، وأن نعمة الأمن إنما تكون عند تحصيل طاعة الله عَزَّ وجل. بما يفيد الإنسان والفراد والجماعة والأمة أن لا يأمنوا عذاب الله تعالى عند المعصية، مهما كانت أسباب الأمان عالية ومرتفعة.

ثم ينقل السياق الكريم إلى دائرة ومحطة تفكيرهم بوجه آخر من البيان، ليستثير المزيد من تأملهم للحق ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ أو هل تظنون أنكم في مأمن من أن يعيدكم ربكم إلى البحر مرة أخرى، فيبث فيكم ما يستدعي ركوبكم البحر، بدواعي حاجتكم إليه، وطمأنينتكم إليه، ليجعلكم تُبحرون فيه، فَيُحقق مراده منكم بما تستحقون من العذاب.

ومن دقائق البيان أن جملة ﴿ يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ غير جملة: يعيدكم إليه، فجملة ﴿ يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ تستغرق البقاء فيه، فتدل على البقاء، نتيجة الإهلاك الذي يميتكم فيه، فلا تخرجون منه ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ فعند إبحاركم يُرسِل عليكم عَزَّ وجل ﴿ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ أي ريحاً شديدة، قد اتصفت بالقطع والكسر، الذي هو القصف، فهي من شدتها تكسر الأشياء وتحطمها بشدة وقوة، إذ لها صوت شديد من قوة وشدة سرعتها. وهو سؤال استفهامي استنكاري، لاستثارة التأمل ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ

فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ إنه سؤال استنكار، يستثير به سبحانه وتعالى عقولهم نحو التفكير والتأمل، واستدراك الحقيقة، وعدم تفويتها، والرجوع للحق وقبوله، وترك الباطل والمكابرة بالكفر والعناد.

فيتحقق فيكم بهذا السبب من قوة الريح حصول الغرق ﴿ فَيُغْرِقَكُم ﴾ فيغرقكم بأمواج البحر، لعلة كفركم ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ فإن كفركم هو علة وسبب إغراقكم، وبما يعني أنه في حال إسلامكم وإيمانكم فإنكم لا تتعرضون لما في ذلك الوعيد والتهديد من العذاب. فلا تظنوا أنكم في مأمن من عذاب الله تعالى إذا أراد بكم العذاب. ليتبين لكل أحد أن الأسباب بيد الله تعالى، وأنه قادر وحكيم في اختيار ما يعاقب به العبد أو العباد.

ثم يُخبر تبارك وتعالى عن انتفاء حجتهم فيما لو حصل لهم العذاب بعد هذا البيان والإنذار ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ فلن تجدوا لكم على الله تعالى حجة تحتجون بها، لأنكم ظلمتم أنفسكم بالكفر، بعدما تبين لكم الحق واضحاً جلياً. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن معنى ﴿ تَبِيعًا ﴾ أي: نصيرا. وعن قتادة رحمه الله تعالى، أي: لا يتبعنا أحد بشيء من ذلك[1] أي يطالب بمطالبة ما حصل لكم من العذاب، لأن الله تعالى لم يظلمهم بما أخذهم من العذاب.

ومن جميل البيان أنه في الآية التي قبلها قال تعالى ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ فلا تجدون وكيلاً ينوب ويتوكل عنكم، فيحفظكم من أمرنا، بينما في هذه الآية قال تعالى ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ أي: لا تجدون حقاً لكم علينا لم نستوفيه لكم، ولا تجدوا وكيلا لكم بما أخذناكم به من العذاب. فجميع حقوقكم مستوفاة من ربكم سبحانه وتعالى، إذ أرسل لكم نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم، وبالآيات والحجج والبراهين، والترغيب والترهيب، وضرب الأمثال، والبيان العظيم، ولكنكم كذبتم، فحق عليكم العذاب بظلمكم لأنفسكم، فما ظلمكم الله تعالى، ولكنكم ظلمتم أنفسكم.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى ذكر الريح الحاصب في عذاب البر ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ بينما ذكر الريح القاصف في عذاب البحر ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٢/١٤)

فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ﴾ لأن الحاصب لا تكون إلا في البر، لما تحمله من حجارة وأتربة، بينما القاصف قوة في سرعة الريح من غير إثارة لما على الأرض في البحر، فهي تستخدم نوع ما هي عليه من الأمواج. ومن فوائد أسماء وأنواع الريح، ما قاله الصحابي الجليل عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: ريح العذاب أربع: اثنتان في البر، واثنتان في البحر، فاللتان في البر: الصرصر والعقيم، واللتان في البحر العاصف والقاصف[1] وهذه من دقائق الأسماء، ودقائق استخدامها. وعلاقة الترابط بين الاسم وبين دلالة محتوى اللفظ ومضمونه.

﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ
مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا
غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا
٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ وَإِن
كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦
سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظيم امتنانه سبحانه وتعالى على عباده أجمعين، مُذَكِّراً لهم بها في موعظة عظيمة جليلة، وبليغة المعنى والدلالة، ومؤثرة في القلوب التي تُصغي وتتعظ بها ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ فقد أجمل تبارك وتعالى عظيم نعمه في أربع موسوعات، تجمع ما أنعم به تبارك وتعالى على بني آدم، من التكريم والتشريف وسعة العطاء، وعظيم الإنعام، وجليل التسخير، فبدأت الآية الكريمة بفضيلة التكريم ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ حيث كرم جَلَّ جلاله بني آدم بجميع أوجه الإكرام، وقد جمع نص التكريم جميع ما شَرَّف اللهُ تعالى به بني آدم، والذي أكده بأداة التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ وشمل هذا التكريم جميع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٤٥)

ذرية بني آدم، كافرهم ومؤمنهم، فَوَحَّد بينهم في التكريم العام، المشترك بينهم، ومن ذلك كمال الخلقة، التي جاءت في أحسن تقويم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، والقدرة على التفكير، وتحصيل العلم، والإفادة منه، بالتطوير والابتكار والإنتاج، وجعلهم يمشون سيراً على الأقدام، باعتدال القامة واستقامتها، بينما كثير من خلقه يمشون على أربع، أو زحفاً على بطونهم، كما جعل بني آدم يتناولون ما يأكلون بأيديهم، بينما جعل الكثير من خلقه يأكلون ويشربون بأفواههم مباشرة، وجعل لبني آدم اتخاذ الزينة من الملابس وغيرها، فيسترون أجسامهم بما يلبسون. وجعلهم يغتسلون وينتعلون، ويتكلمون. وكرمهم بإرسال المرسلين، وأنزل معهم الكتب والآيات والحجج، ليكونوا على هدى من رب العالمين، وأعلمهم بالحق والخير، ودلهم عليه. وبين لهم الشر وحذرهم منه. ووضع لهم الشرع والتشريع الذي تستقيم به حالهم في الدنيا والآخرة، وسخر لهم ما في البر والبحر مما لا يحصيه الإنسان، وغير ذلك من صنوف التكريم التي يعجز عن تحديدها وتعدادها الإنسان.

ومن البلاغة البيانية ما قاله أبو عبيدة رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿كَرَّمْنَا﴾ أنها أشد مبالغة من أكرمنا[١] ومن دلائلها كذلك، أنها أفادت التخصيص، من أن المتفضل عليهم بالتكريم هو ربنا تبارك وتعالى، كما أفادت كلمة ﴿كَرَّمْنَا﴾ التشريف والإكرام لبني آدم، لأنه سبحانه وتعالى ألحق التكريم به جَلَّ جلاله، تشريفاً وإكراماً لهذا الإنسان، وهذا التكريم يدل على نفاسة الإنسان من بين غيره من المخلوقات، ويدل على رفعة المنزلة والمكانة من بين المخلوقات، حتى أنه عَزَّ وجل سخر له ما في السماوات وما في الأرض. مما يُوجب على هذا الإنسان بهذا البيان الكريم أن يُجِلّ ربه جَلَّ جلاله، الذي أكرمه ولم يذله ويهينه، فوجب عليه أن يوحده، ويُذعِنُ له، وأن يسبحه وينزهه من كل نقص وعيب، وأن يشكره ويطيعه، ويطيع رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله هادياً ومبشراً ونذيرا.

ومن دقائق البيان أن جمع محتوى السياق بين الإجمال والتفصيل، فذكر سبحانه وتعالى تفصيلاً مجملاً لعظيم إنعامه وإكرامه، فإجمالاً باعتبار ما جمعت جُمَل الآية الكريمة لكل نوع من الإحسان والإنعام في بيان قليل الألفاظ، وعظيم المبنى، وكثير الدلالة والمعنى، وهي ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وكذلك ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وكذلك ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وقبل هذا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وأما بلاغة التفصيل فجاء باعتبار ما اشتملت عليه كل جملة من الأنواع والأصناف. ففي قوله تعالى ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ جمعت مفردات ما عنته واشتملت عليه من أجناس وأنواع ما يحمل الإنسان من المسخرات المتنوعة والمتعددة، وسواء ما كان منها في البر أو البحر. وتعني جملة

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٥/٥)

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ جميع ما يحمل بني آدم على المراكب من الدواب، والعربات التي تجرها البغال والحمير وغيرها، إضافة إلى ما يدخل تحت ذلك مما يستجد من المخترعات: كالدراجات والسيارات والطائرات والقطارات، ومما يفتح الله تعالى به على بني آدم. وأما حملهم في البحر، فهو ما سخره لهم جَلَّ جلاله من السفن والمراكب البحرية الشراعية، أو الكهربائية، والقوارب واليخوت، على اختلاف أنواعها وسعتها، وغاية استخدامها. فلولا أن الله تعالى سخرها لبني آدم، لما استطاع أن يركب البحر في أمواجه الهائلة المتحركة، ولَمَا استطاع أن يسير في البر لولا أن جعل سبحانه وتعالى في الأرض فجاجاً وسبلاً، إضافة إلى ما منح الإنسان من القدرة على تعبيد الطرق في البر، ونحت الأنفاق في الجبال، وعمل الجسور لتقريب المسافات، فجميعها نعم من الله تعالى.

ومن دقائق البيان، وبلاغة الكلام أنه سبحانه وتعالى لم يذكر الحامل الذي يحمل بني آدم، ولكن ذكر لعباده ما يفيد التسخير ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ وذكر لهم أيضاً المحمول عليه ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ولم يذكر لهم الحامل الذي يحمل عليه بني آدم، لتظهر بلاغة الإعجاز البياني في استيعابها لكل ما يحمل الإنسان ويرفعه سيراً به على البر، وإبحاراً له فوق سطح البحر، فاستوفى بذلك السياق جميع ما كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم، وما يستجد من مخترعات ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وكذلك استوعب الأنواع والأحجام.

ومن إنعامه تبارك وتعالى على بني آدم أن أوجد لهم الرزق ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فأنبت لهم الأشجار بجميع أنواعها، وأخرج لهم من الأرض سنابل القمح والحبوب بجميع أنواعها، وأنبت لهم المعروشات من الأشجار وغير المعروشات، وما يكون في داخل الأرض وما يعلو فوق سطحها من الخضار، والفواكه والثمرات، وما يستخدمونه من المشروبات التي يتخذونها من الفواكه والثمرات، إضافة إلى ما يتخذونه من الألبان والأجبان، وما يشتقونه ويخرجونه من تلك الألبان، وخلق لهم ما يأكلون من لحوم الأغنام والأبقار والجمال والطيور، وما ينتج عنها من البيض المتنوع في الأحجام، وغير ذلك مما أباحه الله تعالى للأنام، حتى أنه ليصعب استقصاء تفاصيل ذلك بالتعداد.

ووصف سبحانه وتعالى ذلك الرزق بالطيبات ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي المباركات والمستلذات من الأرزاق. فشملت لذيذ المطاعم والمشارب، التي يستمتع بطعمها الإنسان، بل ومن طِيبها أنها تتفاوت في مذاقها وأحجامها وألوانها وأصناف أنواعها، بل يُخرج الله تعالى من النوع الواحد عشرات الأصناف، حجماً ومذاقاً، وتغايراً وتوافقاً. وكلمة ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ تفيد أنها طيبة في ذاتها، وطيبة في أكلها، وفي استخدامها وادخارها. وكذلك طيبة في حفظ وبناء وعلاج الأجسام، وكذلك طيبة فيما يطعمونه لمواشيهم وحيواناتهم.

بل ومن غزارة البيان أن في إطلاق الرزق ما يستوعب ويشمل كل ما يتم نقله من مكان إلى آخر، ومن بلد إلى بلد، من عموم الطيبات. وفي هذا استثارة للذهن نحو ما يراه ويسمعه ويحسه ويشاهده الإنسان من أرزاق الله تعالى، ليعلم أن الله تعالى هو الواحد الرزاق، الذي هيأ للإنسان ما يحتاج إليه في تنوع بديع عظيم، بل جانس بين حاجة بني آدم، وبين ما أوجده له من الطيبات، وكذلك جانس بين ذائقة اللسان وتلذذها، وبين تنوع مذاق الأصناف والأنواع، مما يبين أهمية لفت الانتباه عند التعليم والتوجيه والتذكير إلى ما يغيب ويفوت على الإنسان.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى تكريمه لبني آدم بإظهار شأن التفضيل على غيره ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ فقد فضل الله تعالى بني آدم على كثير من أصناف مخلوقاته، فهو فاضل على الكثير من خلقه، وهناك القليل ممن هم أفضل منه، ولكن أكثر الخلق هم أقل منه تفضيلا. فإنها درجة عالية، ومنقبة جليلة وعظيمة أن يخص ربنا تبارك وتعالى الإنسان بهذا الفضل العظيم من بين مخلوقاته. مما يدل على عظيم التفضل الذي ناله وحظي به الإنسان من ربه تبارك وتعالى. مما يوجب على بني آدم أن يستقبلوا هذا الإكرام والتفضيل، وما سخره لهم، وما رزقهم به من الطيبات، أن يقابلوه بالحمد والشكر والثناء والمحبة والانقياد له بالتوحيد، والتسبيح والتكبير والطاعة والامتثال، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد عرض ما امتن الله تعالى به على بني آدم من الإكرام والإنعام، ينتقل السياق إلى إعلامهم وإفهامهم بالنتيجة التي يكون الناس عليها يوم القيامة، ليجدوا نتيجة تحصيلهم. وفي هذا تنبيه لما يجب أن يكونوا عليه من في الدنيا، من الحرص على استثمار أعمارهم وأوقاتهم فيه. وبيان لما سيكون عليه الحال يوم القيامة، ليكون إنذاراً وتحذيراً لهم قبل أن يغادروا الحياة الدنيا، ويخسروا ويُفَوِّتُوا دار التحصيل والانتفاع الذي من فاته فإنه لا يمكن له أن يعوضه ويسترجعه. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ فاذكروا ذلك اليوم، وهو يوم القيامة ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ وهو يوم يدعو الله تبارك وتعالى كل أناس، ومعهم إمامهم وهاديهم من المرسلين، وتُعرض عليهم أعمالهم ومدى موافقتها لما دعاهم إليه، أو مخالفتهم لكتابهم الذي أنزله سبحانه وتعالى على رسوله الذي أُرسل إليهم.

وابتدأ النص الكريم بكلمة ﴿ يَوْمَ ﴾ وفي ذلك شد للانتباه لذلك اليوم الذي هو يوم القيامة. فأغنى الافتتاح به عن أن يسبقه فعل الأمر: اذكروا يوم القيامة. فأصبح هذا اليوم يوماً مشهوراً لكثرة بيانه، ومعروفاً لديهم، سواء مَن آمن به أو لم يؤمن به، خاصة بما ورد بعده من السياق ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ

﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ وفي هذا بلاغة بيان في الخطاب. وتفيد كلمة ﴿نَدْعُواْ﴾ أن الله جَلَّ جلاله هو الذي يدعو عباده، وهو الذي يحاسب عباده، وأنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير، مهما كثر الناس، ومهما تعددت الأقوام واختلفت الملل، فإن الله تعالى داعيهم جميعاً، وأنهم مُوَزَّعُون توزيعاً بحسب ملتهم. وقد وردت ﴿نَدْعُواْ﴾ بصيغة التفخيم والتعظيم والإجلال لله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ وجملة ﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ أي كل أمة، أو كل ملة، وقد ألصقهم سبحانه وتعالى وربطهم بإمامهم ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ فهو التصاق ترابط، لوجود العلاقة الترابطية بين كل أناس وبين إمامهم، وما يحمله لهم، حتى من حيث بنية الكلمة، فإنها التصقت بحرف الباء، وحرف الباء في كلمة ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ يفيد الالتصاق والترابط، كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى بأن: الباء في إمامهم للإلصاق، كما تقول أدعوك باسمك[١] بلاغة بيان، وبلاغة في المعاني والدلالات ليوم هوله عظيم.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ تعدد الدلالات وتنوعها، وشموليتها لأوجه ما يكون في ذلك اليوم، فالمعاني المستنبطة من العلماء متوافقة غير متعارضة مع دلالة النص الكريم عليها، لأن دلالة الآية الكريمة تعطي هذه المعاني والأوجه، فلا يمنع أن بلاغة البيان في كتاب الله تعالى تعطي هذه الغزارة من الأوجه المتعددة والمتظافرة غير المتعارضة، ليظهر الإعجاز في كثرة دلالة النص من غير تعارض بينها، بل إن الجمع بينها حاصل فيها ومتحقق. قال مجاهد عن ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: نبيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنها: أن الإمام ما عَمِلَ وأمْلَى، فَكُتِبَ عليه. أي: بكتاب أعمالهم، وقال آخرون: يوم ندعو كل أناس بكتابهم الذي أنزل عليهم، ورجح ابن جرير رحمه الله تعالى أنه: يوم ندعو كل أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا[٢] فالإمام هو الذي يُؤتم ويُقتدى به. ورجح ابن كثير رحمه الله تعالى قول ابن عباس رضي الله عنه، فقال: أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك، وهذا القول هو الأرجح[٣] وبالتالي يمكن الجمع بينها بأن كل أناس يُدعون بمن اتبعوه من المرسلين الذين أُرسلوا إليهم، أو من الذين اتبعوهم من دعاة الضلال، وتعرض كتبهم التي فيها أعمالهم، وما كان مخالف منها، وما كان منها موافق لما أنزل الله تعالى. وهو ما يقتضيه معنى الإمام، كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى بأن: الإمام في اللغة كل ما يُؤتم به من نبي أو مُقَدَّم في

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٤٦/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١٥-٨)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦/٣)

الدين، أو كتاب[١] ويضاف إلى ذلك الكتاب الذي أُنزل عليهم، قاله الضحاك وابن زيد[٢] وفي هذا استيعاب النص الكريم لجميع ما سيكون يوم القيامة من جمع كل أناس بإمامهم، وما أنزل عليهم من كتاب، وكتاب أعمالهم، فجميعها حاصلة يوم القيامة. وفي دعاء كل أمة بإمامها ما يفيد أن الأمر ذلك اليوم قائم على شأن الدين، فإما تابع للحق، وإما تابع للباطل.

وقد عين تبارك وتعالى كتاب أعمال الإنسان الذي يستلمه يوم القيام، بقوله عَزَّ وجل ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم المفلحون الذين اتبعوا الحق، فإنهم يُعطَون كتبهم بأيمانهم، ثم يُخبر ويبين جَلَّ جلاله مبادرتهم لقراءة كتبهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ فإن من سرورهم بكتبهم أنهم يُبادرون إلى قراءته، فيتحقق لهم الفرح والغبطة بأعمالهم الطيبة الزكية، ومن عدل الله تعالى أنهم لا يُظلمون شيئاً ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا يُظلمون من أعمالهم الطيبة شيئاً ولو كان يسيراً، ولا يبخسهم ربهم شيئاً مما وعدهم به ولو كان قدر ﴿فَتِيلًا﴾ والفتيل هي القشرة التي تكون في شق النواة، للدلالة على كمال الوفاء، ودقة الإحصاء، وأن على الإنسان أن لا يترك من عمل الخير شيئاً ولو كان يسيراً لا قيمة له في ذهنه وتصوره، فإن الله تعالى يجازي به، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. ويُفهم بذلك أن من لم يأخذ كتابه بيمينه فسوف يأخذ كتابه بشماله، من وراء ظهره، وهم الذين لم يتبعوا المرسلين، فيجدون كتبهم قد استوفت وحصرت كل أعمالهم. ولا يظلم سبحانه وتعالى أحداً من العباد.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء بصفة العمى ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فالذي كان في الدنيا أعمى عن الحق، فإنه يكون كذلك أعمى في الآخرة عن الجنة، فمن تعامى بقلبه وبصره عن حجج الله تعالى وقدرته وآياته في الدنيا، فإنه في الآخرة يكون بنفس الحال التي كان عليها في الدنيا، من عدم تحصيل طريق الجنة، فالجزاء من جنس العمل. فإنه أعمى عن الجنة ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ فهو مُبعَد ومستبعد عنها، كما بعُد وضل عن الحق في الدنيا. وهي أيضاً تشمل دلالات أخرى، جمعها ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فمن كان أعمى عن معرفة قدرة الله في خلق الأشياء، فهو عما وُصِف له في الآخرة أعمى بالكفر. ومن عمي عن نِعَم الله تعالى التي بينها، فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه، ومن كان فيها

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٤٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٤٧)

أعمى عن الحجة، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة[١] ولا تعارض بين جميع تلك الدلالات، فالنص الكريم يحتملها جميعاً، مما يفيد غزارة عطاء النص لتلك الحقائق المتوافقة من غير أدنى تعارض بينها، مما يدل على بلاغة البيان، وإعجازه في شموليته للحقائق المتوافقة.

ثم يؤكد الله تعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فكما أنه أضل نفسه عن طريق الحق في الدنيا، فإنه في أبعد طريق عن النجاة وعن النعيم المقيم، وكلمة ﴿وَأَضَلُّ﴾ تدل على أقصى البعد ومنتهاه في الضلال، وأغور عمقاً. قال السعدي رحمه الله تعالى: وهذه الآية دليل على أن كل أمة تُدعى إلى دينها وكتابها، هل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يُؤمروا باتباعه، وأن الله لا يُعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، ومخالفته له، وأن أهل الخير يُعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور الشيء العظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك[٢] وفي دعاء كل أمة بإمامها ما يفيد أن الأمر في ذلك اليوم قائم على شأن الدين، وأنه إما تابع للحق، وإما تابع للباطل.

ومن دقائق البيان أن الدنيا قد ذُكِرت باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ باعتبار أنه معلوم من سياق ما قبلها، وباعتبار ما بعدها من تخصيص الآخرة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ ووصفهم بالعمى باعتبار شأنهم مع الحق، ومع آيات الله تعالى، كشأن الأعمى الذي لا يبصر المحسوسات، فمن تعامى بقلبه وبصره عن حجج الله تعالى وقدرته وآياته في الدنيا، فإن حاله في الآخرة مماثل لحاله في الدنيا، فكما كان أعمى عن الحق، فإنه يكون أعمى عن طريق الجنة، فلن يرى إلا ما يقابل عماه وعمله في الدنيا، فمأواه النار.

وتفيد كلمة ﴿وَأَضَلُّ﴾ الاشتداد، فإنه أشد ضلالة عما كان عليه في الدنيا، لأنه كان لديه متسع وإمهال في الدنيا، وأما في الآخرة فليس هناك متسع للتوبة، وليس هناك إمهال وتأخير، بل حساب وجزاء متتابعان. فنسأل الله تعالى العافية وحُسن الخاتمة. وفيما سبق من بيان الله تعالى لعباده، وما كشفه لهم من حقائق الدنيا والآخرة، ما يبين أن الحجة قد قامت على الإنسان، وأن الحقائق قد تبينت من بدايتها في الدنيا إلى حال الآخرة. فليس له عذر بعد هذا البيان الشامل الوافي. وهذا البيان يدل على رحمة الله تعالى، إذ يبين للناس ما هم قادمون عليه قبل أن يقدموا عليه، فواجبهم الاتعاظ، وبأن لا يلوم الإنسان إلا نفسه.

ومن شدة ضلال وعمى الكافرين عن الحق، أنهم طمعوا في أن يسايرهم النبي صلى الله عليه وسلم في ضلالهم وباطلهم، فاشتدت محاولتهم في أن يكون الحق على مذهبهم الباطل، وأن ينحرفوا به لما هم عليه من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٨/٥)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٢٤/٣)

العمى والضلال، فقال عزَّ وجل ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾ فيخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما امتن به عليه من التثبيت، وعصمته من شر المشركين الذين كادوا له من الفتنة كيداً عظيماً ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ ﴾ ففي ظنهم أنهم قاربوا من تحقيق مرادهم بما كادوا لك من الفتنة ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ وهو المكر والمخادعة، وأما الهدف فهو ﴿ لَيَفۡتِنُونَكَ ﴾ أي: بقصد أن يضلوك عن دينك ورسالتك التي أرسلك الله تعالى بها أيها النبي صلى الله عليه وسلم. ففي ظن المشركين الباطل أنهم قد قاربوا بكيدهم من الخداع أن يفتنوك فيما أُوحينا إليك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم. ولكن لم يصلوا إلى مرادهم وأطماعهم فيك.

فأعطى هذا البيان من الله تعالى أن كيدهم كان كيداً عظيماً، وأنهم بلغوا من كثرة جهدهم ما شعروا بأنهم قد وصلوا وقاربوا تحصيل مرادهم، ولكن الله تعالى عاصم نبيه صلى الله عليه وسلم، وكافيه شرهم، مما يكشف عن شدة مكرهم وعظيم فتنتهم، وقوة حيلهم، ومحاولتهم فيما كانوا يحبون أن يصلوا إليه بالنبي صلى الله عليه وسلم. قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: قد كادوا لك أمراً لم يدركوه، وتحيلوا لك على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك[1] وفي هذا وصف للحالة التي كانت من أولئك المشركين في شأن خداع النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كانت محاولاتهم قوية في تأثيرها، ولكن قوة الله تعالى أعظم من كيدهم ومكرهم. ليفيد أن مَن كان الله تعالى معه فإنه في حصن حصين.

والهدف الذي يزعمون تحقيقه هو ﴿ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ ﴾ أي: لتختلق وتفتري غير الذي أوحيناه إليك، فتكذب على الله تعالى، فتقول ما لم يقله الله عزَّ وجل، ولو فعلت ذلك ﴿ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾ ولو طاوعتهم لاتخذوك صديقاً، حبيباً خالصاً، مخلصين لك. وفي هذا تحذير من فتنة ووساوس الأشقياء من الجن والإنس. فهذا وصف لما كان من حال المشركين، وشدة محاولتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر قتادة رحمه الله تعالى: أن قريشاً خَلَوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح، يكلمونه ويُفخمُونه ويُسودونه، فأرادوه على بعض ما يريدون[2] مما يدل على أن هناك محاولات متكررة، تبين وتكشف عن طمعهم في أن ينحرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى مرادهم وأهوائهم.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/١٢٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/١٤)

ثم يخبر الله تعالى عن حال وواقع النبي صلى الله عليه وسلم مع مكر أولئك المشركين، وفضل معية الله تعالى عليه، بتسديده، ودفع الشر عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ فمن قوة حيلهم التي يحتالون بها على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لولا أن عصمناك وثبتناك على الحق الذي أنزلناه عليك إيها النبي ﴿كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ فإن من شدة احتيالهم عليك فقد قاربت أن تميل ميلاً قليلاً، لشدة خداعهم ومكرهم. ولكن لم يحدث ذلك لعصمة الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام. مما يبرئ ساحة النبي عليه الصلاة والسلام من مقاربة الركون إليهم. فإن ﴿ وَلَوْلَآ ﴾ تفيد الامتناع، أي: امتناعاً عن حُدُوث الركون إليهم، وبأنهم لم يحصلوا على شيء من مرادهم. لعصمته عليه الصلاة والسلام من ذلك. وفي هذا بيان للجهود الكبيرة التي كانت تواجه النبي صلى الله عليه وسلم من المشركين، فإنه مِن عَمَى قلوبهم عن الحق المبين، أنهم لا يرون الحق إلا في ظلمة جهلهم، فكانت محاولاتهم قوية ومتتابعة في إقناع النبي صلى الله عليه وسلم بأن يركن إليهم ولو شيئاً قليلا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه[١] بما يبين شدة محاولاتهم التي قد تؤثر على الإنسان، ولكن الله تعالى عاصم نبيه صلى الله عليه وسلم من ذلك. وفي هذا تنبيه لكل مسلم بأن يحذر أشد الحذر من كيد الكافرين، بأن لا يركن إلى قوة نفسه، بل يفوض أمره إلى لله تعالى، ويلوذ به، ويسأله الثبات على الحق، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن الجزاء فيما لو حصل ركون من الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين ومرادهم ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ أي: لو ركنت إليهم لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب المات في الآخرة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغيرهم، وهذه غاية الوعيد[٢] فيضاعف العذاب المستحق في الدنيا، ويضاعف العذاب المستحق في الآخرة، جزاء لتلك المخالفة فيما لو حصلت، لأنه كلما عظمت منزلة المرء عظم الجزاء، قال القرطبي رحمه الله تعالى: وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم[٣] وذلك لكمال وعظمة نعمة الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم، وكمال معرفته بربه تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ ثم لا تجد أحداً

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٩٥)
(٢) المرجع السابق (١٠/١٩٥)
(٣) المرجع السابق (١٠/١٩٥)

ينصرك وينقذك ويدفع عنك ما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عاصم نبيه صلى الله عليه وسلم من أسباب الشر، وذلك بدفعه وحجبه عن دواعيها، والحيلولة دون وقوعها، وفي هذا امتنان عظيم على النبي صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى باندفاع وامتناع ما يُوجب إيقاع تلك العقوبة. ليتعلم المؤمن بهذا البيان ألا يركن إلى أهل الكفر والزيغ والضلال، ولا يعتمد على قوته وعلمه وما يراه من نفسه، بل يلوذ بربه ويتوكل عليه، ويسأله عونه وتسديده، فإذا لم يكن معه ربه تبارك وتعالى مؤيداً ونصيراً فقد يقع في الشرور التي لا حصر لها، فيلزم المؤمن أن يُكثر من الدعاء، والالتجاء إلى الله تعالى كما كان منه صلى الله عليه وسلم في كثرة دعائه، والتجائه إلى ربه عَزَّ وجل. وليعلم ويتعلم المؤمن من ذلك أنه لا قوة لأحد من الإنس والجن على نصرة وإنجاء من حل به عذاب الله تعالى إذا وقع به. فلا ملجأ ولا منجى من الله سبحانه وتعالى إلا إليه عَزَّ وجل. وفي هذا ترهيب وتحذير للأمة ولأهل العلم من الغرور بأفكار أهل الضلال والكفر، ومسايرتهم في تحريف دين الله تعالى بالأساليب الماكرة.

كما أن في هذا شدة الترهيب والتهديد لكل من يساير أهل الباطل على حساب الدين، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم على عظيم منزلته ومكانته بأنه لو حصل منه شيء من ذلك لنال أقصى العقوبة، فكيف بمن هم دونه، وجميع الناس دونه صلى الله عليه وسلم.

ثم يكشف الله تعالى المزيد من مضايقة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم، ليتضح قدر ما كان يعاني منه عليه الصلاة والسلام، وما كان يواجه من كفار قومه ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلما عجزوا عن تحقيق مرادهم بالملاينة والحيل، والدهاء من المكر، والجذب للقول على الله تعالى بما لم يقله عَزَّ وجل، تحولوا إلى الاستفزاز ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ فقد قاربوا أن يصلوا باستفزازهم إلى حملك على الخروج من مكة، فعلة الاستفزاز، والهدف منه هو ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ أي: ليخرجوك من مكة التي هي موطنك. ومن قوة ودقة تحليل البيان هو ورود كلمة ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ المعبرة والواصفة لقوة فعلهم، وقوة تأثيره على النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الاستفزاز يحدث عن طريق المتابعة والتكرار والتوالي في إيقاع الأذى، مع التركيز على ما يستفز النبي عليه الصلاة والسلام ويقلقه، حتى يحمله على الانتقال والرحيل من مكة، وهو افتعال متعمد، مع الإصرار والتكرار من المستفز إلى الْمُسْتَفَز به وهو النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك من أجل إزعاجه، فاتخذوا الاستفزاز سبباً لإخراجه عليه الصلاة والسلام من مكة، وهو الهدف والغاية لتحقيق المراد ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ أي: من مكة، وجملة ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ تفيد المقاربة من تحصيل مرادهم بخروجك

من مكة. وجاء بيان وتحديد مكة بكلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ باعتبار المقام، وباعتبار عدم التحمل الذي يحمل جنس الإنسان إلى الرحيل عن أرضه ومقامه، مهما كانت صفتها، وأينما كانت من أرض الله تعالى الواسعة. فهو بيان يفيد تعميم الأرض، وتعميم قوة التصاق الإنسان بأرضه التي يعيش فيها، وتعميم قوة الأثر من الاستفزاز الذي يُخرج الإنسان أياً كان هذا الإنسان من موطنه.

ثم يخبر الله تعالى بما سيعاقبهم به لو خرج عليه الصلاة والسلام من مكة ذلك الوقت، بما يبين ويوضح مقام نبيه ومنزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلو حصل أن أخرجوك من مكة باستفزازهم، فخرجت منها، فلن يمكثوا بعدك إلا زمناً يسيراً، وذلك أن الله تعالى سيبادرهم بما يستحقون من النكال والعذاب. وفي هذا تحذير وتهديد وزجر لهم، ولكنهم لم يعتبروا، فاشتد أذاهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، فأذن الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بالهجرة بعد أن حماه سبحانه وتعالى منهم حين إقامته بمكة صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أنها: نزلت في كفار قريش، هَمُّوا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم، من بين أظهرهم، فتوعدهم الله تعالى بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا، وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله تعالى وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم، وسلَّطَهُ عليهم، وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم[1] فلحقهم عذاب القتل والأسر في غزوة بدر، إذ مَكَّن اللهُ تعالى رسوله ومن معه من المؤمنين من قتل صناديدهم وكبرائهم، وكسر شوكتهم، فَقُتِل منهم سبعون، وأسر سبعون، فتكون المدة التي لبثوها بعد هجرته صلى الله عليه وسلم سنة ونصف، وهي اللبث القليل كما ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: وأما القليل الذي استثناه الله جَلَّ ذكره ﴿وَإِذَا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإنه فيما قيل: ما بين خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى أن قَتَل اللهُ مَنْ قُتِل من مشركيهم ببدر[2] وهي مدة قليلة من عمر الإنسان.

ثم يخبر الله تعالى بِسُنَّتِه فيمن كان قبل النبي صلى الله عليه وسلم من المرسلين وأقوامهم عليهم الصلاة والسلام ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ فإن سنة الله تعالى التي جرت فيمن كان قبلكم هو إهلاك الأمة التي تُخرج رسولها من أرضه. بما يبين أنهم لو أخرجوك لأجرينا فيهم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٠)

سنتنا، بأن نهلكهم، فلا يبقى منهم أحد أبداً. وفي هذا إنذار وتحذير للمشركين من استفزازه ومرادهم، وبيان لمنزلة ومكانة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومكانة دينه عَزَّ وجل، وأنه سبحانه وتعالى مُعز دينه ونبيه عليه الصلاة والسلام، وناصره على الدين كله ولو كره المشركون. مؤكداً سبحانه وتعالى إمضاء سنته بأنها لا تتبدل ولا تتغير ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ فإنها ثابتة فلا تتغير، ولا أحد يستطيع أن يحول دونها، فيغيرها، فإن سنة الله تعالى ثابتة في إهلاك الأمة التي تُخرج رسولها من بين أظهرهم. بما يبين الوعيد والتهديد والإنذار.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى توجيه النبي والمؤمنون تبع له عليه الصلاة والسلام إلى إقامة الصلاة في عموم أوقاتها، مع تخصيص الفجر من بين عموم الأوقات، لبيان فضله ومرتبته، ومزية ذلك الوقت من بين الأوقات ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فبعد أن ذكر الله تعالى امتنانه على رسوله صلى الله عليه وسلم بعصمته من مراد المشركين من قومه، يتوجَّه الخطاب من الله عَزَّ وجل إلى رسوله عليه الصلاة والسلام بالأمر بإقامة الصلاة ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإقامة الصلاة: أداؤها وإتمامها على الوجه الذي يجب، مع المداومة عليها في الأوقات المحددة.

ومن دقائق التوجيه الكريم أن فعل الأمر ﴿ أَقِمِ ﴾ يدل معناه على الوجوب، أي: وجوب أداء الصلاة، لأن الأمر يعطي دلالة الوجوب، ويدل كذلك معنى ﴿ أَقِمِ ﴾ على إنشاء قياماً خاصاً لها، فتكون هي السبب في قيام من قام لها، وليس القيام من أجل غيرها، فتكون هي تابعة لما قام له المصلي، بحيث لو لم يكن هناك أمر وشأن لما قام لها المصلي، فلا تكن تابعة لغيرها من حاجات الإنسان التي قام لأجلها، فإنها هي الأساس وإن اقترن بها غيرها وتبعها من الشؤون العامة، لأنها هي أصل القيام، فهي متبوعة وليست تابعة، وفي هذا دلالة على مكانتها ومنزلتها. ويدل لفظ القيام على الإجلال القلبي والحسي، من الخشوع وأداء الأركان

والواجبات، والسنن. كما أن جملة ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ تتضمن النية، لأن القيام لها مقترن بنية القيام، فلم يقم لغيرها، بل قام لها، حتى وإن فعل شيئاً أثناء قيامه لها، فلا ينصرف أصل القيام إلا لها. وفي التعبير بلفظ القيام ﴿ أَقِمِ ﴾ ما يدل على منزلتها وعظمتها، فاللفظ في القرآن مقصود بعينه، لما فيه من الدلالة على المقصد والمعنى. ويدخل في ذلك إقامتها بأداء شروطها وأركانها وواجباتها، كالنية والوضوء ونيته، لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فلا يكن ما قام به من الوضوء هو من أجل الاستبراد، أو للنظافة العامة، بل أن ما قام به هو للطهارة المخصوصة، بالكيفية المخصوصة التي شرعها الله تعالى في الوضوء.

وورد الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والمؤمنون تبعٌ لما أُمر به عليه الصلاة والسلام، وفي توجيه الأمر له عليه الصلاة والسلام إعلاء لشأن الصلاة، ورفع لمنزلتها ومكانتها. فهو المكلف عليه الصلاة والسلام ببيان التشريع وتفاصيله.

وبينت الآية الكريمة أوقات الصلوات، ابتداء بصلاة الظهر والعصر، ثم المغرب والعشاء، ثم صلاة الفجر. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة[١] حيث قال تبارك وتعالى ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ودلوك الشمس ميلها، جاء في لسان العرب لابن منظور رحمه الله تعالى، بعد أن ذَكَرَ الآية الكريمة ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾: وقد دَلَكَت: زالت عن كبد السماء، واسم ذلك الوقت الدَّلَك، وعن ابن عباس في دلوك الشمس: أنه زوالها الظهر، قال: ورأيت العرب يذهبون بالدلوك إلى غياب الشمس[٢] وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى، قول: ابن عباس رضي الله عنهما، أن: دلوكها: زوالها. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: دلوكها: ميلها[٣] وقال ابن جرير رحمه الله تعالى أنها: صلاة الظهر، وذلك أن الدلوك في كلام العرب الميل. يُقال منه: دلك فلان إلى كذا، إذا مال إليه[٤] فتبدأ الصلاة الواجبة نهاراً بصلاة الظهر، حيث يبدأ الدلوك، إلى أن يصير ظل كل شيء مثله، ثم تحين صلاة العصر، بعد أن يصبح ظل كل شيء مثليه، إلى أن تصفر الشمس، وبلا شك أن الأفضل أداء الصلاة في أول وقتها. وبالتالي جمع لفظ الدلوك صلاة الظهر، وصلاة العصر. قال ابن عطية: الدلوك الميل في اللغة، فأول

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٩٦)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (١٠/٤٢٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٥)

(٤) المرجع السابق (١٥/٢٧)

الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب. ومن قوت الزوال إلى الغروب يُسمى دلوكاً، لأنها في حالة ميل[١] فتكون صلاة الظهر في أول الدلوك، وصلاة العصر قبل نهايته.

ثم أوضح تبارك وتعالى موعد صلاة المغرب والعشاء ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: غسق الليل: بُدُوءُ الليل. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: غسق الليل: غروب الشمس. وقال قتادة رحمه الله تعالى: غسق الليل: صلاة المغرب[٢] فيكون في أول الغسق صلاة المغرب، فبعد أن دخل الغسق حان وجاء موعد صلاة المغرب، ويستمر إلى غروب الشفق. فإذا غاب الشفق الأحمر دخل وقت العشاء، ويستمر إلى نصف الليل. قال السعدي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب، وصلاة العشاء[٣] فاشتمل كل وقت من الوقتين المذكورين في الآية الكريمة على صلاتين من الصلوات الخمس. ويُحمل تفاصيل مجمل هذه الآية الكريمة على ما بينته سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وأما صلاة الفجر فقال عنها سبحانه وتعالى ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ فدلت جملة ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ على صلاة الفجر، باعتبار ما قبلها من السياق، بمعنى وأَقِم صلاة الفجر، وكذلك باعتبار أنها الصلاة الخارجة عن الدلوك وعن الغسق، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح[٤] وفي تسمية صلاة الفجر بالقرآن دلالة على تميزها بطول القراءة فيها من القرآن العظيم، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدراً لا يضر بمن خلفه، يقرأ فيها بطول المفصل، ويليها الظهر والجمعة، وتخفيف القراءة في المغرب، وتوسطها في العصر والعشاء[٥] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ أن المعنى: أَقِم قراءة الفجر. قال المفسرون: المراد به صلاة الفجر. وقال الزجاج: وفي هذا فائدة عظيمة، تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة، حين سُمِّيت الصلاة قرآناً[٦] وقال القرطبي رحمه الله تعالى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٧/١٠)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١/١٥)
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٢٦/٣)
(٤) الشوكاني، فتح القدير (٢٥١/٣)
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/١٠)
(٦) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٣/٥)

عن قوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أنه دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة، لأنه سمى الصلاة قرآناً، وذكر كذلك: أنه ذهب جمهور العلماء إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفذ في كل ركعة[١]

ثم زاد من منزلة صلاة الفجر قوله تعالى ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فصلاة الفجر مشهودة من ملائكة الليل وملائكة النهار كما جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قال: (تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار)[٢] وهذا يدل على عظيم مكانتها ومنزلتها، فإن في تسميتها بقرآن الفجر، وكذلك حضور ملائكة الليل وملائكة النهار ليشهدوها، دليل على عظيم شأنها، ومنزلتها، وجلالة قدرها، ومما يدل كذلك على فضل صلاة الفجر أن وقتها هو وقت ختام الثلث الأخير من الليل، الذي فضله ورفع منزلته ربنا تبارك وتعالى بنزوله فيه نزولاً يليق بجلاله وعظمته. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة للسماء الدنيا، حين يبقى ثُلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجب له! ومن يسألني فأعطيه! ومن يستغفرني فأغفر له)[٣] وقوله صلى الله عليه وسلم عن فضل صلاة الفجر (من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة. من صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة) [٤] وقوله صلى الله عليه وسلم (من صلى الصبح فهو في ذمة الله) [٥] أي: في أمان الله تعالى وضمانه. مما يدل على أنه تجتمع في صلاة الفجر وفي هذا الوقت فضائل عظيمة، فحري بالمؤمن أن يغتنمها، ويغتنم فضل صلاة الفجر.

ويوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قيام الليل، مع بيان عظيم الأجر ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ والتهجد هو: الصلاة أثناء الليل، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والتهجد ما كان بعد نوم، قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعي، وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان يتهجد بعد نومه[٦] وقال الأزهري رحمه الله تعالى: المتهجد: القائم إلى الصلاة من النوم. وقيل له: مُتهجد، لإلقائه الهُجُود

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/١٠)

(٢) الترمذي، سنن الترمذي (٢٨٢/٤) برقم (٣١٣٥)

(٣) مسلم، صحيح مسلم (٥٢١/١) برقم (٧٥٨)

(٤) الدارمي، سنن الدارمي (٧٨٠/٢) برقم (١٢٦٠)

(٥)مسلم، صحيح مسلم (٤٥٤/١) برقم (٦٥٧)

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨/٣)

عن نفسه، كما يُقال: تَحَرَّج وتأَثَّم[١] فهو متهجد لأنه ترك الهجود الذي هو النوم. فسمى الله تعالى صلاة الليل تهجداً، باعتبار حالة المصلي ليلاً.

وفي بنية كلمة ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ ما يفيد التفعل والتَّكَلُّف، الذي يدل على التيقُّظ، لأن التهجد بمعنى التيقُّظُ، والتهجد من الهجود، وهو النوم، وهو فعل أمر يفيد الاستحباب، لأن الله تعالى قال ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً﴾ فالنافلة تفيد الاستحباب. وسمى الله تعالى المتهجد به: القرآن، فاسم الإشارة في قوله تعالى ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن الكريم، أي: فتهجد بعض الليل بالقرآن. وحرف **(من)** في قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يفيد بعض أجزاء الليل وليس الليل كله، لأن حرف **(من)** يفيد التبعيض. وفي تسميت صلاة الليل بالقرآن ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً﴾ ما يفيد أن القرآن هو رمز الصلاة، وأنه مقصود بعينه في صلاة الليل، ليعطي دلالة الاهتمام به من حيث الإطالة به عن بقية الصلوات. فحوى النص الكريم واشتمل على دقائق من البيان، وغزارة في الدلالات، ليظهر الإعجاز بكل دقة ومن كل وجه في كتاب الله العظيم.

وسَمَّى الله تبارك وتعالى صلاة الليل التي أمر بها ﴿نَافِلَةً﴾ والنافلة ما زاد عن الأصل، أي بمعنى: ما زاد عن الفرض من الصلوات المفروضة. فتهجده صلى الله عليه وسلم بالصلاة يكون نافلة، ويرتقي باعتبار فعل الأمر ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ إلى ما يدل على عظيم فضل التهجد واستحبابه، وأنه طريق لمزيد الخير، كما قال سبحانه وتعالى في الآية الكريمة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فالمعنى أنها للنبي صلى الله عليه وسلم نافلة زائدة على الفرض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر[٢] وقد سأل سعد بن هشام رضي الله عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن تهجد النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لها: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ألست تقرأ **(يا أيها المزمل)** قلت: بلى. قالت: فإن الله عَزَّ وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً، وأمسك اللهُ خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة[٣] فدل ذلك على انتقاله من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٥٣-٥٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٥١)

(٣) مسلم، صحيح مسلم (١/٥١٢-٥١٤) برقم (٧٤٦)

الوجوب إلى النفل، فيكون تهجده صلى الله عليه وسلم بالصلاة نافلة وليس بفرض، ولكن يرتقي باعتبار فعل الأمر ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ إلى ما يدل على عظيم فضل التهجد واستحبابه، وأنه طريق لمزيد الخير، كما قال سبحانه وتعالى في الآية الكريمة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فيا أيها النبي أنت مقصود من بين المؤمنين بالمقام المحمود يوم القيامة، الذي يحمدك فيه جميع الخلائق. وهناك من العلماء من قال بأن القيام كان واجباً في حقه صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى قولين في ذلك: أنها تأتي بمعنى: فريضة عليك، وقد كان فُرِض عليه صلى الله عليه وسلم قيام الليل، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقول الثاني: أنها زائدة على الفرض، وليست فرضاً، فالمعنى تطوعاً وفضيلة، قاله أبو أمامة، والحسن، ومجاهد[١] وقد خَلُص الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى أن التنفل على جهة الندب، ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه مغفور له. فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات. وغيره من الأمة تطوعهم كفارات، وتدارك لخلل يقع في الفرض، قال معناه مجاهد وغيره[٢]

وقد أخبر سبحانه وتعالى بعلة نفل التهجد للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ليدل على أنه سيحصل على زيادة في الثواب ورفع الدرجات، وعلو المنزلة والقدر، ومنها المقام المحمود، وهو أن يكون شافعاً للناس يوم القيامة، وهي منزلة لا تكون لأحد غير النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيرحم اللهُ تبارك وتعالى عموم الخلق من كربات موقف يوم القيامة بشفاعته عليه الصلاة والسلام، فيحمده جميع الخلائق. وفي ذلك دليل على أن التخصيص بالتكليف هو زيادة شرف، وعلو منزلة، وحظوة له دون غيره صلى الله عليه وسلم من المقامات المحمودة التي تستوجب ما يقابلها من العبادات، وهي لغيره من المؤمنين زيادة في الأجور، وتكفير للسيئات. وفي هذا بيان لمنزلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربنا تبارك وتعالى، وأنه سيد ولد آدم، وأن له المقام المحمود الذي يتوقف عنه جميع الأنبياء والمرسلين، وهو الشفاعة عند الله تعالى لفصل القضاء، فيقول عليه الصلاة والسلام (أنا لها) كما جاء في صحيح البخاري[٣] والوعد من الله تعالى بكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ تفيد التحقق والثبوت من الله تعالى، فهي من العزيز الكريم اطماع للعبد، متحقق الوقوع، بينما من المخلوق تفيد الرجاء، والله سبحانه وتعالى يقضي بما يريد، وهو الذي يُرجى ولا يرجو عَزَّ وجل في علاه.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٥٤)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٠٠)
(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٤٠٥) برقم (٧٥١٠)

ثم يأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يسأله داعيا راغباً بأن يعينه ويؤازره عند الدخول في كل أمر وشأن، وعند الخروج منه، بأن يكون موفقاً بتوفيقه وعونه عزَّ وجل ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ وفي هذا الدعاء ترابط بينه وبين ما سبقه من الأمر بالصلاة ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً ﴾ ففيهما بيان لكثرة اللجوء إليه سبحانه وتعالى بفعل الطاعة، وبالمسألة المتمثلة في الدعاء. فبالعمل كالصلاة ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً ﴾ وبالمسألة كالدعاء ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ وهو الدعاء باللسان واعتقاد القلب. وأيضاً هناك ترابط بين هذا الدعاء وبين ما سبق من عطاء الله تعالى وهو ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ فهذا عطاء امتنان من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، بينما هذا دعاء طلب واستجداء التسديد في جميع الأمور والأحوال، وفي شأنه كله صلى الله عليه وسلم، لأن التوفيق للحق والصواب مفتاح لتحصيل المقام المحمود. فَعَلَّم سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم كمال الدعاء، كما علمه كمال الأفعال. ليكون قد جميع دخوله وخروجه في طاعته سبحانه وتعالى، وقد تضمنت المنهج وإخلاص النية لله جَلَّ جلاله.

والآية باعتبار نزولها فإن المقصود بها دخول المدينة والخروج من مكة كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة، ثم أُمِر بالهجرة، فأنزل الله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[1] وسياق الآية الكريمة يعطي دلالة العموم، كما قال الإمام الشوكاني وغيره: وقيل الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور، فهي دعاء[2] فهي دعاء بأن يكون الإدخال مرضياً في كل شأن ومكان يدخل فيه ويلابسه عليه الصلاة والسلام، وأن يكون خروجه خروجاً مرضياً من كل مكان وشأن، ومنه خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة، وهجرته إلى المدينة، فيكون شاملاً لسبب النزول ولعموم شأنه كله عليه الصلاة والسلام. فهو دخول وخروج عز ونصر، وتحوط من الوقوع في الإثم والخطأ والزلل حين الدخول وحين الخروج. فهو دعاء عام لا حصر لما يستوفيه من الشمولية، وهذا من بلاغة الدعاء وجوامعه المباركة التي يدعو بها المسلم في حياته وجميع شؤونه، لما فيه من طلب التسديد

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٥٢/٣)

والتوفيق من الله تعالى. اللهم استجب دعاءنا واستغاثتنا بك، وما نطلبه منك من خير الدنيا والآخرة. اللهم أدخلنا مُدخل صدق وأخرجنا مُخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيرا.

وفي إضافة المدخل إلى الصدق ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ ما يفيد المبالغة في تحصيل صدق صواب؛ الموافق للحقيقة والحق، وهو البعيد عن الباطل بجميع أنواعه، بأن يكون بعيداً عن الباطل، ويكون على الوجه المحمود عواقبه ونتائجه. كما أفاد التصاق الدخول والولوج والخروج لأي أمر بأن يكون على الوجه المحمود ابتداء ونهاية ونتيجة، والصدق هو المحمود عواقبه ونتائجه. ومن الفوائد أن في إضافة الصدق إلى المدخل، وإلى المخرج ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ما يفيد المدح والثناء لهما، مع المبالغة في تحقيق الحق، سواء كان في المدخل أو في المخرج، بحيث لا يشوب المدخل ولا المخرج شيء مخالف للصدق. فكل شيء أضيف للصدق فهو مدح وثناء، فتعلق المدح والثناء هنا بِحُسن المدخل والمخرج. كما أن عموم السياق يفيد عموم الدعاء وشموليته.

كما تضمن هذا الدعاء الكريم سؤال الله تعالى أن يسنده بالحجة البالغة الظهور، والبرهان القاطع لكل باطل، والقوة التي ينتصر بها على من عاداه وخالفه صلى الله عليه وسلم، ولم يتبع أمر الله تعالى ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ وكلمة ﴿ نَّصِيرًا ﴾ تفيد المبالغة في الناصر، من العون والتأييد، أي: سلطاناً أنتصر به على الباطل انتصاراً ظاهراً، فهو نصر مقتصر على تحقيق الحق، وليس للتطاول، وإنما فيما هو قائم به صلى الله عليه وسلم في شأن أداء الرسالة. مما يفيد أن النصر الحقيقي هو إحقاق الحق، وليس التطاول والتجاوز في الحق، وأنه مهما كان هدف الإنسان نبيلاً فإن هناك من يعاديه حسداً، أو استكباراً، أو تخوفاً على مكانة أو حصول ما يفقده ويذهب عنه من الأمور، مما يفيد أنه مهما كان المنهج والنية متظافرة في الحسن، فإن فقر الداعي إلى خالقه ظاهر ولا غنى له عنه، فهو الذي يعلم الخفايا وما تُخفي الصدور، وهو القاهر فوق عباده، وهو الخبير البصير، وهو القادر على إذلال الباطل، وإعزاز الحق.

وبعد الأمر بالدعاء الذي يسدد النبي صلى الله عليه وسلم في كل شأن، وفي كل مكان يدخله، أو يخرج منه، عليه الصلاة والسلام، بعد ذلك عُطِف عليه وأُلْحِقَ به الأمر بالدعاء الذي يفيد تحصيل نتيجة ما دعا به عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فهو بمثابة النتيجة لما سبقه من الطلب ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ وقل يا أيها النبي تحقق دين الله تعالى، وتحقق الحق به، واضمحل الباطل، وتبدد شأن الكفر به ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ والزهوق بمعنى الزوال، أي: زال واضمحل وبَطُل الباطل، فاضمحل وتلاشى الكفر والباطل بعد ظهور الحق واعتلائه، فشملت دلالة دخول الحق كل خير، والذي ذروته

الإسلام، والقرآن، والتوحيد والعبادات، وجميع ما أوحى الله تعالى به، وشرعه لعباده، فهي حقائق الإسلام وتعاليمه وآدابه وأخلاقه. وأما الباطل فهو شامل لجميع أنواعه من الشرك وعموم الكفر، والبغي والفساد، ومنكرات الأخلاق، وغيرها من الشرور والمعاصي. وقد أفاد هذا البيان من الله الرحمن الرحيم أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كلها حق، وأن جميع ما يناقضها باطل، وبالتالي فإن دين الله تعالى، ومنهج نبيه صلى الله عليه وسلم كله حق، وموافق للفطرة، ويحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وأن هدفه وغايته إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وأن دين الإسلام خير لا شر فيه البتة.

وفيها بشارة بظهور دين الله تعالى على الشرك والكفر عموماً، وفيه تقوية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه، وأما لأهل الباطل فذلك إنذار وتحذير وتنبيه للكفر والكافرين، وهو تقرير وحكم من الله تعالى ما بقيت الدنيا، بأن دين الله تعالى ظاهر على كل باطل، وأن من عداه فهو زهاق ومتولي أمام ظهوره، وأنه لا نصرة ولا انتصار للباطل على الحق أبداً، فقد حكم الله تعالى بذلك من فوق سبع سماوات، كما أن في هذا الإعلان وهذا الحكم من الله تعالى آية إعجاز، باقية ما بقيت الدنيا. فسبحان الله العظيم. وجاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُباً، فجعل يطعنها بعود في يده، وجعل يقول ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[1] فتحقق قوله تعالى، وامتد تحققه، وسيظل يتحقق في إزهاق الباطل واعتلاء الحق عليه إلى قيام الساعة. فآمنتُ وصدقت بما قاله تبارك وتعالى العلي العظيم.

ويخبر الله تعالى بحال الباطل أمام الحق، بأنه زاهق، فلا بقاء له ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ فهي قاعدة وتقرير من الله تعالى بأن كل باطل زاهق وزائل أمام الحق، ولا بقاء له البتة، ولا قدرة له في مواجهة الحق، فأينما ظهر الحق زهق الباطل الذي أمامه لا محالة. فإن الله تعالى ناصر الحق على الباطل. ليعطي بذلك قاعدة في حياة المسلم، وقاعدة في التعامل، وقاعدة في المعالجة، وتقرير لواقع الباطل، وضعفه وانهزامه أمام الحق، فإن الله تعالى قرر وحكم بأنه لا صمود للباطل أمام الحق. وبالتالي فإن كل منكر يزول بإظهار الحق، فإنه سيتآكل ويتلاشى أمامه. وبالتالي فإن الباطل الذي لا يقابله حق يظهر ويترعرع، ويبقى، بسبب انتفاء ما يزهقه من الحق، أي لعدم وجود الحق الهالك للباطل. فإذا التقيا الحق والباطل، ثبت الحق، وزهق البطل.
فصفة الباطل من حيث الوجود والبقاء أنه زاهق ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ وجملة ﴿كَانَ زَهُوقٗا﴾ حكم على تبدده وزواله، فوجود الباطل وظهوره لا يعني البقاء والثبوت، بل إذا قَدِم عليه الحق أزهقه وأباده، وقد ورد تأكيد زهوقه بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ التي سبقته، مع المبالغة في التلاشي والذهاب التي تحمله بُنية كلمة

[1] البخاري، الجامع الصحيح (٢٠١/٢) برقم (٢٤٧٨)

﴿ زَهُوقًا ﴾ التي تفيد المبالغة في زوال الباطل أمام ظهور الحق. فأثبت النص الكريم أن زهوق الباطل ثابت ومُتَأَكَّد بقيام الحق وظهوره.

ثم يؤكد الله تعالى زهوق الباطل حتى من الأجسام إذا ورد عليها القرآن، الذي هو الحق المتلو، بل وإنه رحمة لمن أخذ به، ليهلك به كل ضر ومكر، ويزيد به خسارة الظالمين خسارة على خسارتهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فورد الإخبار عن القرآن الكريم وتدميره للباطل بصيغة الاستمرار ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ والتي تفيد التتابع في الشفاء بعد الشفاء، والرحمة بعد الرحمة، وإلحاق الخسارة بالظالمين بعد الخسارة، ففعله وأثره دائم بالتكرار والتجدد، وكثرة الأثر وقوته، واستهل سبحانه وتعالى أثر وقوة القرآن في التأثير بشفاء المؤمنين ثم برحمتهم، ثم بخسارة الظالمين ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ فهو شفاء عام دائم ومستمر، ليشمل هذا الشفاء: الأمراض والأسقام والعلل، وكذلك لما في القلوب من أمراض الشك والنفاق والزيغ والضلال، وما يصيبها من الخوف والوساوس الشيطانية، وما يلحقها من الجهل بالحق، وغيرها مما قد يحدث للإنسان المؤمن. وأيضاً يشفي صدورهم بإحقاق الحق، وبما فيه من آيات الدعاء، التي إذا دعا بها المكروب انكشف ما به من كرب، وإذا دعا بها المظلوم انكشف عنه الظلم، كقوله تعالى في هذه السورة المباركة ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ وهذا الشفاء مخصوص به المؤمنين ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فآيات القرآن وسوره تعالج ما في الأبدان وما في القلوب، وما هو متعلق بالأفكار والعقول من الجهل والشك والنفاق، والضعف والقلق، وغيرها.

وكذلك فإن القرآن الكريم رحمة للمؤمنين ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما فيه من العلم الجالب للمنافع والمحقق للمصالح، والذي فيه صلاح الدين والدنيا وصلاح الآخرة، ولما في تلاوته من البركة، ورفع الدرجات، ولما في تدبره من مزيد الهداية وتحصيل العلم الذي يزيد به الإيمان والأنس والاطمئنان، ويرتقي به الفكر في معالجات أمور الدين والدنيا، وهو سبب لتزول رحمة الله تعالى على المؤمنين، والفوز برضى الله تعالى، فهو كتاب مبارك على كل مؤمن، فلا يسع المؤمن إلا أن يرافق هذا القرآن مرافقة تلازم، ففيه وبه الخير كله، عاجله وآجله، وفيه ما يصد الشر، ويجلب الخير، وتتحقق به رحمة الله تعالى على عبده المؤمن.

ومن قوة أثر القرآن الكريم أنه زيادة في خسارة الظالمين ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فقد أثبتت وبينت الآية الكريمة أن الأصل في الظالمين أنهم واقعون في الخسارة، ففي الأصل هم واقعون فيها بسبب كفرهم، وبعدم إيمانهم، وأما بعد نزول القرآن فإنهم يزدادون خسارة على ما هم فيه من الخسارة، بسبب ما يصيبهم من الغبن، لعدم إيمانهم وانتفاعهم بهذا القرآن الذي أمامهم، والذي يَسَّر وسَهَّل اللهُ تعالى عليهم الأخذ به. ففي عدم انتفاعهم بالقرآن العظيم خسارة إضافية على خسارتهم، فتحققت عليهم الخسارة في الشفاء، وخسارة في الرحمة، وخسارة في الهداية. فإن خسارة عدم انتفاعهم بالقرآن العظيم خسارة عظيمة، وبالتالي فإن الظالمين يَتَرَدّون في ظلالهم وجهلهم، ثم يزدادون خسارة على خسارتهم بعدم انتفاعهم بالقرآن العظيم، ونيل ما فيه من الهداية والشفاء والرحمة والبركة.

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ ﴾

يُخبر الله تعالى بطبيعة من طبائع جنس الإنسان العامة، والتي تحتاج إلى يقظة وانتباه ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾ فإذا أحسن الله تعالى على جنس الإنسان بنعمة كالمال والعافية، أو غيرها، انشغل بها، وتولى وأعرض عن الذي أنعم بها عليه، فأعرض عن طاعة ربه، وشكره وحمده، وكثرة الذكر له عَزَّ وجل. وحين تصيبه شدة من المرض أو الفقر أو نحوه يحصل له اليأس والقنوط، ومن جليل فوائد هذه الآية الكريمة أنها تحلل شخصية جنس الإنسان، وتكشف بأن الإنسان مفتقر إلى ما يهذب سلوكه، وينمي ويصحح فكره، ولا يهذبه إلا الذي يعلم ويعرف حقيقة هذا الإنسان معرفة حقيقية، وليس أحد أعرف بهذا الإنسان من خالقه الذي أنشأه، فتبارك الله أحسن الخالقين. كما أنها تبين وتوضح قوة الترابط بين مسلك الظالمين المذكورين في الآية السابقة وبين التفافهم حول نعمة الشهوات وإعراضهم عن طاعة الله تعالى. مما يدل على أن المؤمن على نقيض ذلك، لما عرف من شريعة الله تعالى، فهذب نفسه، وبالتالي يغلب عليه الشكر حال النعمة، مع مزيد الطاعة، والصبر والالتجاء إلى الله تعالى حال الشدة، لثقته بالله عَزَّ وجل، وكرمه وسعة فضله.

وقد جاء البيان الكريم متقدماً بقوله تعالى ﴿ وَإِذَآ ﴾ والتي تفيد المفاجأة، وتفيد المستقبل، وتعطي صفة الشرط، فإنه إذا تفاجأ الإنسان بنعمة، تَغَيَّر حال هذا الإنسان عما كان عليه وفق ما بينته الآية الكريمة.

فقد أفادت ﴿ وَإِذَآ ﴾ دلالة المفاجأة. وكذلك أفادت الكشف عن حال هذا الإنسان فيما يُستقبل من شأنه عند حصول النعمة. وكذلك أعطت صفة الشرط، أنه ينتابه ذلك السلوك حال حصول النعمة، وهذا من غزارة البيان وقوته وسعة مساحته، لتستوعب جميع الأحوال المنوطة بحصول النعمة. ويفيد البيان الكريم الكشف عن سلوك هذا الإنسان فيما يُستقبل من حياته. فإنه عندما يُنعِمُ الله تعالى عليه، فإنه يطغى، بنأيه عن طاعة الله تعالى.

وتعطي كلمة ﴿ أَنْعَمْنَا ﴾ أن المتفضل بالعطاء هو الله سبحانه وتعالى، وتوضح بأن ما يكتسبه الإنسان من النعمة بالأسباب هو بتوفيق الله تعالى، وبكريم عطائه، ولو شاء الله عَزَّ وجل لما تحصل على نتيجة الأخذ بالأسباب، وربما كانت الأسباب عليه على عكس ما يريد، فكم من ساع أدركته ولحقته الخسارة من سعيه، وكم من ساع في الأرض لا يدرك من سعيه ربحاً ولا خسارة. وكم من ساع بجهد قليل، فيأتيه الربح الكثير، مما يفيد أن الإنعام هو من المنعم سبحانه وتعالى، فاطلبه أيها العبد من الله عَزَّ وجل.

وتفيد كلمة ﴿ ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ جنس الإنسان عموماً، فإنها حقيقة تكشف عن طبيعة هذا المخلوق، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر الله تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي السراء والضراء(١) وقال السعدي رحمه الله تعالى: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله تعالى(٢) كما بينت كلمة ﴿ أَعْرَضَ ﴾ الحالة الفعلية والعملية لسلوك هذا الإنسان، وهو الصدود المضاد والمنافي للإقبال على الله تعالى، بالإعراض عن الشكر، وعدم الطاعة، بل قد تمادى في الإعراض إلى درجة المبالغة فيه، حتى وصل إلى حد التنائي ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ فإضافة إلى ما كان منه من الإعراض، أضاف وجمع إليه الاستغناء، فجمع بين الإعراض والمبالغة في البعد. إذ أن النأي بمعنى التمادي في البعد المتلبس بالاستغناء والكبرياء، فيتمادى في البُعْد عن طاعة ربه عَزَّ وجل، وعن شكره والثناء عليه بما هو أهله، لفضله وامتنانه على عبده.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٣/٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٢٨/٣-١٢٩)

وفي جملة ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ كشف لنوع الإعراض وهيئته، أي: ابتعد والتف حول نفسه بما عنده، وهي صورة المستغني عمن أنعم عليه، فابتعد عن طاعة الله تعالى، فبدلاً من أن يزيده ذلك قرباً من ربه بالطاعة والامتثال والمبالغة في الشكر، ينأى بجانبه، كمن يعطي الشيء ظهره تكبراً واستغناء، وانشغالاً بما عنده عمن أنعم عليه به.

وأعطت كلمة ﴿مَسَّهُ﴾ صفة الملابسة والملاصقة، التي التصقت به، بما يبين صفة وشدة الشر الذي وقع به. كما جمعت كلمة ﴿ٱلشَّرُّ﴾ جميع أنواعه، من الضر أو الفقر أو المرض، وغيرها من مصائب الدنيا، وكلمة ﴿ٱلشَّرُّ﴾ جامعة لكل ما يكره الإنسان مما يصيبه في الدنيا، فحين يحل به الشر يكون في حالة اليأس الذي ليس له رجاء في خير بعده ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي كثير القنوط، فيستبعد زوال الشر، وعودة النعمة، بل تَرَسَّخ في ذهنه واعتقاده اليأس الذي يحمل القنوط، وكلمة ﴿يَـُٔوسًا﴾ تفيد شدة اليأس، لأنها من صيغ المبالغة، وإذا سبقتها ﴿كَانَ﴾ دلت على رسوخ هذا اليأس وتمكنه من صاحبه.

وفي هذا البيان العظيم من الله تعالى تحليل دقيق لنفسية هذا المخلوق، حين يأتيه الخير، وحين يأتيه ما يكره من الشر، ليتبن بذلك حاجة الإنسان لربه تبارك وتعالى في إصلاح وتهذيب تعامله، وحاجته لمنهجه القويم، الذي يهذب سلوكه، وأخلاقه، ويصحح له فكره. كما يجد المتأمل أن مِن أسباب ذلك المسلك هو جهل الإنسان بالمنعم سبحانه وتعالى، وجهله بالابتلاء، وجهله بمنزلة الشكر، ومنزلة الصبر، وجهله بمنهجية التعامل مع النعمة عندما تحل، وجهله بمنهجية التعامل مع الشر عندما يلامسه. ولا يصحح ويزيل هذا الجهل إلا العلم بشريعة الله تعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأثر النشأة والمخالطة على سيرة الإنسان ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ فإن كل أحد يعمل على طريقته التي توافق وتُشَاكِل أخلاقه، فالكافر يعمل بما يُشابه ويلائم طريقته من الإعراض عند النعم، واليأس عند الشدة. بينما المؤمن يعمل بما يشابه طريقته من الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء. والله ربكم يعلم بالأهدى، ليترتب الجزاء بما يناسب كل فريق. ونقل ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه قال ابن عباس رضي الله عنهما. أي: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: دينه. وكل هذه الأقوال متقاربة[1] مما يفيد استيعاب دلالة

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٦٤)

﴿ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ لكامل مؤثرات النشأة التي يكتسبها الإنسان بالمخالطة، أو ما يستهويه من الأفكار والعقائد التي في مجتمعه، والتي نشأ عليها.

وقد بدأت الآية الكريمة بالأمر ﴿ قُلْ ﴾ أي: قل يا أيها النبي بما يبين للناس حقيقة سلوكهم، وفيه كشف لما يخفى على الإنسان من نفسه، ليتنبه له، فإن معرفة الحقيقة، تكشف للإنسان قصوره، ومواقع الخطأ، والحذر منه. كما تصدر هذا التعميم لعموم الجنس البشري ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل أحد من الناس سيعمل على ﴿ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ أي على طريقته ومنهجه الذي اعتاد عليه ونشأ فيه. والشكل هو الْمِثْل والنظير. وهذا يبين أثر البيئة والمخالطة والأفكار والتصورات على مسلك الإنسان وتصرفاته، سواء كان في الدين والأخلاق، أو غيرها من جميع أحوال ومسالك الإنسان. وفي هذا تنبيه للإنسان بأن لا يغتر بما نشأ عليه، بل ينظر إلى الحق فيتبعه، وإن خالف هواه، وخالف ما نشأ عليه. وهي مبينة بأن المؤمن الذي أَلِف أخلاق الإسلام وآدابه ومنهجه، سيعمل على ذلك، وهذا مدح وثناء له، وأما الكافر الذي ألف الكفر والمعاصي فإنه سيعمل بما ألفه، وفي هذا ذم له، وتحذير وتنبيه وإيقاظ للإنسان من مخاطر ما يألفه، صغيراً كان أو كبيراً، فإنه مؤثر عليه تأثيراً قوياً.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال علمه بعباده ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ فليس هناك أعلم بكم من ربكم، فإن الله تعالى أعلم بما تفاضلتم فيه من الهداية، وسلوك المسلك الصحيح عند حصول النعمة، وعند حصول الشر، وقد أفادت جملة ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أن هناك تباين في مقدار سُبُل الهداية، وتفاوت بين الناس على درجات كثيرة، نزولاً وصعوداً. فإن دلالة ﴿ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ قد أعطت دلالة أن هناك الأفضل وهناك المفضول، وهناك المضاد لذلك. فعلى كثرة وتعدد هذا التفاوت، فإن الله تعالى محيط بهم علماً وقدرة وجزاء وثواباً، مما يبين جلالة علم الله تعالى ودقته، حتى في دقائق التفاوت بين الناس، طاعة أو معصية.

ثم يتوجه السياق الكريم إلى الإجابة عن ماهية الروح التي بوجودها يحيا البدن، وبرفاقها يموت الإنسان ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيجيب البيان الكريم عن سؤال السائلين عن الروح ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ وهو سؤال تعنت من الذين سألوا، سواء من المشركين، أو من غيرهم من الكفار، وواقع سؤالهم هو عن ماهية الروح ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ التي هي مبعث الحياة في الإنسان، وبخروجها يموت هذا الإنسان المتحرك، فيصبح جسداً لا حراك له. فيخبر

الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله للسائلين ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ أخبرهم بأن الروح من شأن ربي، وليس من شأني ولا من شأنكم أن تعرفوها، بما يفيد ليس لأحد من خلقه أن يسأل ويعرف حقائق ما أخفاه الله عَزَّ وجل عن خلقه. ليدرك المخلوق عظمة تدبيره سبحانه وتعالى، وقصور علم الإنسان وجهله بأدق ما يخصه، فإن في إخفائها ما يستثير الذهن والفكر نحو عجز هذا المخلوق عن معرفة ما يخصه من نفسه، ليدرك قدر جهله، وعظمة خالقه جَلَّ في علاه ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ فإن العلم الذي أعطاكم ومنحكم ربكم إيها قليل جداً. فعليكم أن تُدركوا بأن ما أعطاكم ربكم من العلم والمعرفة إلا الشيء القليل واليسير.

ومن دقائق البيان في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أن العلم الذي عند الإنسان ليس هو من كسبه، بل هو من الله تعالى، لأن كلمة ﴿ أُوتِيتُم ﴾ تفيد أن الإنسان متلقي للعلم، وأن العلم الذي عند الإنسان ليس هو من ذاته، بل بتفضل وعطاء من الله سبحانه وتعالى، ومِنَّة منه عَزَّ وجل. فهو الذي يهدي، ويوفق للمعرفة. ومن الأدلة الحسية على ذلك، ما يلاحظه الإنسان في نفسه وغيره. فقد يرى من أقرانه من يتفوق عليه علماً، ومن وجه آخر يجد أنه متفوق على غيره في ناحية، بالرغم من التساوي بينه وبين غيره في أسباب طلب العلم. ليدرك الإنسان أن العلم فضل من الله تعالى، وليس بتحصيلهم، وإنما يأخذون بالأسباب، والله تعالى هو المعطي. كما أفادت دلالة ﴿ وَمَآ ﴾ النفي، وبترابطها مع ﴿ إِلَّا ﴾ التي أفادت الاستثناء، أعطت دلالة الحصر، فقصرت قلة العلم الذي عندكم على القلة، وليس الكثرة، فإن الذي أعطيتم من العلم قليل جداً، كما أفادت صيغة ﴿ قَلِيلٗا ﴾ المبالغة في القلة، فهو يسير جداً جداً، فإن كمال العلم وجوامعه عند الله تعالى، وأن ما عندكم من العلم أيها الناس فهو قليل ونزر يسير من تدبير الله العليم الخبير الذي منحكم إياه.

وفي هذ الآية الكريمة توجيه وتنبيه وتعليم وتحذير، فهي توجه الإنسان وتعلمه أن يدرك قصور علمه، ومحدوديته، وتحذره من التطاول في السؤال عما لا يمكن له أن يدركه، وأن حواس ومدارك الإنسان لا تستوعب بعض ما يجهل، لأن مداركه لا تستطيع أن تستوعب ما يعلو عنها، فإن الإنسان قد يعجز عن استيعاب ما يخفى عليه في بعض الأمور، بل في كثير منها، ولذلك يلزمه الإيمان بالغيب، ولا يحاول أن يبحث عن ماهية بعض المغيبات التي يعجز ذهنه عن استيعابها. ليتحقق منه الإيمان بالغيب، كأحد أركان الإيمان. مما يفيد أن على الإنسان أن يسأل فيما يهمه، ويستفيد منه، لا أن يسأل عما ليس فيه نفع أو لا قدرة له على استيعابه.

ثم يشير وينوه سبحانه وتعالى بما أنعم وامتن به على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، وغيره مما أوحى به إليه من غير القرآن العظيم. لأن ﴿ أَوۡحَيۡنَآ ﴾ تفيد عموم الوحي، وخاصة القرآن،

باعتباره أعظم علم امتن الله تعالى به على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين. وقد وردت صيغة الامتنان بأنه حال محوه من القلوب فيما لو أراد الله سبحانه وتعالى ذلك، فلن تجد من يتكفل بِرَدِّه، فإن شأنه عزيز إذا ذهب من القلوب. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ والذهاب به من القلب هو مظهر من مظاهر قدرته فيما لو أراد جَلَّ جلاله. فلو أراد سبحانه وتعالى أن يمحو ما امتن به عليك من القرآن وغيره من الوحي الذي تَرَسَّخ وتأصل في قلبك، لفعل ذلك، ويلحق به أصحابه رضي الله تعالى عنهم، فيما لو شاء الله تبارك وتعالى ذلك. مما يبين ويفيد ألا يغتر الإنسان بما يَعْلَمُه ويتعلمه من العلوم، ولا يفاخر به، فلو شاء الله تعالى أن يمحو ذلك من القلوب لفعل، فيصبح هذا الذي يعلم جاهلاً كلياً أو جزئياً ببعض مما يعلم، فيصبح لا شيء معه مما كان يعلمه، ولأصبح جاهلاً بعد علمه ومعرفته، ومنزلته ورفعته بما تعلم. فإن الذي أعطى ويعطي هو الله عَزَّ وجل. وهذا في شأن القرآن العظيم فكيف بما هو دون القرآن من العلوم. فإذا كان هذا مع نبيه صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونه من البشر، والجميع دونه صلى الله عليه وسلم. فليحذر كل أحد من قدرة الله تعالى على سلب النعمة أياً كانت، حتى في أدقها ودقائق مكانها، مما يلتصق في الصدور، ويثبت في العقول.

وفي هذا تقرير وامتنان من الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بما أنعم عليه من الوحي، وهو أعظم النعم وأجلها. وبالتالي فلا تبتئس أيها النبي من كيد المكذبين، فإن الذي ثبته في قلبك هو الذي يثبت أمرك وشأنك، وأن القادر على إزالته بعد وجوده وثبوته قادر على إزالة من يُضاد كتاب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. فَيُحرَمُون أجلَّ النِّعَم التي هي نعمة ما أوحى الله تعالى به على رسوله صلى الله عليه وسلم من القرآن وغيره من الوحي، الذي شرع به هذا الدين القويم. ولو أن الله تعالى ذهب بما أوحى به إليك فلن تجد من يرده عليك ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ فلن تجد وكيلاً عنك يستطيع أن ينصرك، فيمنع ذلك عنك، أو يُعيده إليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي ارتباط الآية الكريمة بما قبلها ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يكون في البيان المزيد من التأكيد على قدرة الله تعالى، فكما منعنا علم الروح عنك أيها النبي وعن عباده، فكذلك لو شئنا لنذهبن بما أوحينا به إليك بعد وجوده، فكما أمكنا إنزاله إليك، فإننا قادرون على إزالته من القلوب، حتى يصبح الأمر والشأن ولكأنه لم ينزل شيء من القرآن. فإنه توجيه عظيم في دلالاته ومقاصده. فانتبهوا أيها المؤمنون.

ومن جليل الفوائد في بناء كلام رب الأنام لهذه الآية الكريمة أن تصدرت بالشرط ﴿ وَلَئِن ﴾ التي تفيد اشتراط إرادة الله تعالى فيما لو أراد، ليتحقق زوال ومحو ما نزل من القرآن الكريم، ليتبين أنه ليس من

باب التهديد لرسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما لبيان القدرة والامتنان، وبيان لعظمة وشرف القرآن، وبيان للعقوبة فيما لو أراد الله تعالى أن يعاقب الجميع، فيكفيهم سلب هذا القرآن من القلوب. وربط ذلك بمشيئته سبحانه وتعالى فيما لو شاء عَزَّ وجل ﴿ وَلَئِن شِئْنَا ﴾ مما يفيد أن المشيئة لله تعالى وحده لا شريك له، وأنه إذا أراد وشاء شيئاً تحقق بالكيفية التي يريدها سبحانه وتعالى، وأن الخلق كلهم أجمعون لا يستطيعون محو وإزالة هذا القرآن، فمشيئة الإزالة قاصرة على الله تعالى وحده فقط، وهذا إعجاز من حيث التحدي والإثبات.

ويفيد السياق أن العقوبة بانتزاع القرآن العظيم أشد عقوبة. وجملة ﴿ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ تفيد التفخيم لشأن القرآن الكريم. كما أعطى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ بياناً للعجز البشري أمام قدرة الله تعالى، حتى أنه إذا ولج في داخل مكنون صدورهم، واستقر في عقولهم، ثم ذهب منهم فلا أحد يستطيع أن يسترجعه، ولا أحد يستطيع أن يمنع أخذه ومحوه من القلوب، وإذا أُخِذ فلا يستطيع أن يرده وكيل ممن يتقوى بهم الإنسان من المخلوقين، مما يفيد أن الذي يُثَبِّت العلم هو الله سبحانه وتعالى، وأن الذي يَعطي العلم هو الله عَزَّ وجل.

ولكن رحمة الله تعالى اقتضت أن لا يذهب بالقرآن وما معه من الوحي من قلبك أيها النبي، ومن قلوب المؤمنين، فإنها رحمة الله تعالى، مع عظيم الامتنان ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ فالمعنى: لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك، وقلوب المؤمنين. وقال ابن الأنباري: المعنى: ولكن رحمة من ربك تمنع من أن تُسلَب القرآن[١] ليفيد أن دلالة هذا البيان بذهاب القرآن ليس تهديداً لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، بل بيان للقدرة فيما لو شاء ذلك سبحانه وتعالى، وكذلك بيان لعظيم الامتنان، لأنه لا يهون على من عاش مع القرآن أن يذهب عنه. ولو ذهب كل شيء لكان أهون من ذهاب القرآن، إلا أن يُحرم من القرآن، فإن فوات وذهاب القرآن وحرمانه منه، موت لقلب المؤمن، ولجميع شؤونه، لأنه أعز عزيز عليه، فهو كلام رب العالمين. اللهم ثبت القرآن في قلوبنا، واحفظ علينا جميع نعمك، واجعلها الوارث منا، برحمتك وفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

وورد البيان والامتنان الكريم بالاستثناء ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ الذي يمتنع بها الذهاب بالقرآن وعموم الوحي من القلوب، فلا نشاء ذلك رحمة من الله تعالى ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فإنها رحمة الله تعالى، فإنه باق غير ذاهب من القلوب ومن المصاحف، مما يفيد بقاء القرآن الكريم محفوظاً إلى يوم القيامة،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٥٩)

حين يرفعه الله تعالى، فهو رحمة من الله تعالى ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ تفضلاً وتكرماً من ربك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين، والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ[١]

ثم يستطرد البيان في المزيد من بيان فضله سبحانه وتعالى على نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ فلن تُحرم فضل ما أوحى به إليك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم، فإن فضل ربك عليك ﴿كَبِيرٗا﴾ ومنها النبوة، والرسالة، والقرآن، والمقام المحمود، وسيد ولد آدم، والإسراء والمعراج، والنصر على الأعداء، وغير ذلك من الفضل العظيم الذي لا يستطع أن يحده ويعده ويحصيه أحد. مما يبين مكانة ومنزلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه، وما تفضل به عليه من الفضل العظيم، مما يستوجب محبته صلى الله عليه وسلم، والحرص على اتباعه، وكثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. وهذا الفضل الكبير مُؤكد حصوله وتحصيله عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، بل ورد تأكيده حتى من حيث السياق، فإن فعل ﴿كَانَ﴾ أفاد توكيد الجملة، وقبلها ورد حرف ﴿إِنَّ﴾ الذي يفيد التوكيد أيضاً ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ فهو توكيد حتى من حيث بنيان السياق، فإنها بلاغة في البيان، وبلاغة في المعاني والدلالات، وفي الآيات وقوة الامتنان، وكثرة العطاء. فسبحان من أعجز بكلامه وبيانه عباده.

ويستمر البيان في الكشف عن مقام القرآن العظيم ومنزلته ومكانته وقوته التي قَدَّرَهَا الله القوي العزيز. فقال جَلَّ جلاله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ فلو أن الإنس جميعاً، ومعهم الجن أجمعين، فاتفقوا جميعاً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المعجز، لعجزوا، فما استطاعوا، وذلك لإعجازه الذي لا يستطيع عليه المخلوقين من الإنس والجن لو اجتمعوا، وتظافرت جهودهم، وتعاونوا على ذلك. وفي هذا دلالة وحجة وبرهان ساطع على أن القرآن ليس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان الإنس والجن غير قادرين فيما لو اجتمعوا واتفقوا على أن يأتوا بمثله، فكيف بالفرد. فإنه أعجز من أن يأتي بمثله. مما يدل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن هذه شهادة وآية إعجاز وتحدي لكل من في قلبه شك وريبة. وأنه منذ أن نزل القرآن العظيم لم يتجرأ

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٦٧٥)

شخص، ولا أمة أن تقول: كتبنا شيئا مثله، ولن يستطيع أحد ذلك، بل وحفظه الله تعالى في صدور الملايين من المسلمين، وهذا خير آية ودليل. فكلام الخالق منزه من أن يأتي أحد بمثله، ولو بآية واحدة.

ومن إعجاز تراكيب كلمات هذه الآية، وغزارة بيانها، وبلاغة وفصاحة سياقها، وإعجاز دلالاتها أن بدأ النص الكريم بكلمة ﴿ قُل ﴾ فعل أمر بالإعلان والتشهير بمضمونها الذي يحمل التحدي والتعجيز، وفيه كذلك إظهار الاهتمام بالقرآن وإعجازه، مع تعزيزه في نفوس المؤمنين، بلاغاً وإنذاراً لمن لم يؤمن بهذه الآية، وهذا الإعجاز العظيم. ثم تبعها أداة الشرط ﴿لَّئِنِ ﴾ لتفيد التعجيز لما بعدها ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ وهو الإتيان بمثل القرآن فيما لو اجتمعت الإنس والجن ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ويمكن أن نستنتج تحت هذا التحدي درجات بعضها أدنى من بعض، فبالتالي يكون في اجتماع الإنس فقط تحدي أدنى من الذي قبله، وهو اجتماع الإنس مع الجن، ثم يندرج تحته تحدي أدنى، فيما لو اجتمع أهل الفصاحة من الإنس، ثم يندرج تحته تحدي أدنى، من أن يكون من أحد أفراد الإنس.

وأفادت وأعطت كلمة ﴿ٱجْتَمَعَتِ ﴾ على الاتفاق والتدارس والتباحث والتشاور والتدقيق، وإمعان النظر، وكل منهم يسند الآخر بما زوده الله تعالى من الخصائص والقدرة، فإنهم مع كل ذلك لا يستطيعون، بل عاجزون تمام العجز. كما أن التحدي ورد لهم بإيجاد المماثل ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وهذا يشمل الصياغ وجمال تراكيب الكلام، والبلاغة، وكذلك اجتماع المماثلة في الأحكام والشرائع، والآداب والأخلاق، والأحكام، والفقه، والقصص والأمثال، والمغيبات، وعمق البيان، وقوة الدلالات، وجمال السياق، وأن يكون هدى، وأن يكون رحمة للمؤمنين به، فإنه معجزة، فأنى يكون لهم ذلك؟ وجملة ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ تفيد كمال التعجيز، مع التأكد والتأكيد والتحقق من عجزهم، حتى ولو كان بعضهم لبعض ﴿ظَهِيرًا ﴾ أي: سنداً ودعماً بالعون والمشاركة الدقيقة، وانتفت بينهم الخلافات التي تعطل النتائج. فهي تشمل قوة التحدي، من كل وجه. فسبحان من أعجز بكلامه جميع عباده.

ثم بعد بيانه سبحانه وتعالى لمعجزة القرآن، وعجز الجميع على الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، يبين ويخبر سبحانه وتعالى عن مضمون القرآن الكريم، وما تضمنه من الحجج والبراهين، من خلال البيان المعجز الوجيز بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ

﴿ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ففيه لفت عقول الخلق إلى عجائب ما تضمنه القرآن الكريم. مؤكداً بذلك وجهاً من أوجه الإعجاز، وهو تنوع ضرب الأمثال ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ فبدأ البيان الكريم بأداة التحقيق والتأكيد ﴿وَلَقَدْ﴾ فقد صَرَّف اللهُ تبارك وتعالى بالتبيين المتعدد، والإيضاح الْمُفَصَّل والمتنوع، وقد أفادت كلمة ﴿صَرَّفْنَا﴾ التنقل والتعدد فيما صرفه الله تعالى للناس ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ أي جميع جنس الإنسان، بل إن سياق الآية الكريمة أظهر أن المقصود والمعني بهذا التصريف هو الإنسان بعينه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ ليدل على العناية والاهتمام بهذا الإنسان، وبنجاته وهدايته بهذا التنوع من حجج القرآن الكريم، فهذا التصريف يستوجب أن يؤمن الناس جميعاً بأن القرآن العظيم كلام الله تعالى، مما يتبين أنه حتى وإن أنكره الناكرون، فإنما إنكارهم على سبيل الاستعلاء والتكبر، وليس غير ذلك. وهذا التصريف للناس يشمل كذلك المؤمن بزيادة إيمانه، لما يرى ويجد فيه من الدلائل الباهرة، والحجج التي تزيده إيماناً ويقيناً.

وأظهر وبين النص الكريم أن موضع التصريف في تعدده وتنقله ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وأن مادة وموضوع التصريف أنها ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فليس بمثل واحد، وليست في باب واحد، بل ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فمن كل وجه تجد هناك مثل وأمثال، فإن قوله تعالى ﴿كُلِّ﴾ تفيد العموم، وحرف ﴿مِن﴾ يفيد التبعيض ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فالقرآن الكريم مشتمل على بعض من جميع أنواع الأمثال المقنعة في حجيتها، والتي تستوجب الإيمان، فهناك: القصص، وهناك ضرب الأمثال، والمواعظ، والأحكام المبهرة، ومكارم الأخلاق العالية، ووسائل غرسها في الإنسان، والتشريع المتناسق، الذي لا يمكن أن يصدر من غير الله تعالى، في أهدافه، وشموله، وما يتحقق به للإنسان من الفهم، ومن توسيع الأفق، وبما يلبي تطلعاته وأمنياته، من الأمن والنجاة والخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر الله تعالى عن كفر الإنسان بالرغم من جميع تلك الدلائل من الأمثال الباهرة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فامتنع أكثر الناس من الإيمان والتصديق بتلك الأمثال الباهرة، لتفيد التعجب من حال هذا الإنسان الذي يأبى ويمتنع عن التصديق بالحجج والبراهين، فإن أكثرهم يستمعون لتلك الحجج والبراهين الساطعة البينة، فيأبون ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وهو الجحود بما ظهر لهم من الحق المبين، فأعطت جملة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ قوة الامتناع من هذا الإنسان، مع تحقق العلم له بصدق هذا الكتاب

الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأفادت ﴿فَأَبَىٰ﴾ الامتناع، وكلمة ﴿كُفُورًا﴾ تأكيد الامتناع، والمبالغة في الإنكار، الذي تحقق به الكفر المتعمد.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ
بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن
يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ
مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ
كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ
قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

بالرغم مما بينه تبارك وتعالى عن الإعجاز العظيم في القرآن الكريم، وما لفت إليه عقول المكذبين المنكرين عن آيات القرآن الكريم، ومضامينه العظيمة المتنوعة بالحجج والبراهين إلا أن المنكرين الجاحدين تمادوا في غيهم وطغيانهم حتى قالوا بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ فاشترط عدد من كفار قريش لإيمانهم أن يُفجر الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ينبوعاً من الأرض، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أن الينبوع وإن كان واحداً في اللفظ، فالمراد به الجمع. والينبوع هو عين الماء، والجمع

الينابيع، وإنما يُقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة، من شأنها النبع من غير انقطاع[١] فقد نفوا تصديقهم بما أخبرهم به صلى الله عليه وسلم، وبالتالي نفوا إيمانهم إلا بتحقيق ما طلبوا، وعَلَّقُوا إيمانهم وربطوه بتحقيق ما طلبوا، عناداً من عند أنفسهم ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ ﴾ بما يفيد لن نؤمن لك بما ذكرت من البينات إلا بتحقيق مطلبنا وشرطنا، وبذلك يتحقق كفرهم بما سبق من البينات والحجج، وبجميع ما خاطبهم وأخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، فشرطهم من باب التمادي في الكفر والاستهزاء ﴿ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴾ وهذا من باب العناد.

ثم وضعوا خياراً وشرطاً آخر، بديل عن الأول ﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴾ أو أن يكون لك بستان من النخيل والأعناب، وتفجر في هذه الجنة المياه، وهي تجري كالأنهار بين النخيل والأعناب، بل ومن تعنتهم أن وصفوا أيضاً تلك الأنهار بالمشهد والهيئة التي يريدونها ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴾ فتفجر الأنهار فيها ﴿ تَفۡجِيرًا ﴾ أي: تجعلها تجري بقوة وبكثرة، لأن كلمة ﴿ تَفۡجِيرًا ﴾ تفيد المبالغة في القوة والكثرة، التي من قوتها تتكاثر بين هذا البستان. ولو شاء الله تعالى لأجابهم لما طلبوا، ولكن لأنهم يقولون ذلك من باب العناد، بل إنهم أدركوا في حقيقة الأمر أن القرآن معجز في بيانه وأحكامه وأخباره، فمن لم يؤمن بمعجزة القرآن وهم أهل العربية والفصاحة والبيان، والعقول فلن يؤمنوا بغيره من الآيات، فقد يقولون ساحر فيما لو تحققت مطالبهم، كما قالوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يقولون أن الجن تخدمه، لأن وسائل التكذيب تسهل على المعاند المستكبر الجاحد كما قال تعالى عنهم في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ثم انتقلوا إلى خيار وشرط ثالث بديل عن الأول والثاني ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ فقد انتقلوا مما له نفع إلى الذي فيه هلاكهم ودمارهم، مما يدل على قوة الكبرياء، وعنفهم، وجحودهم الذي بلغ بهم أن يُهلَكُوا دون أن يؤمنوا، ويخسروا الفوز بالدنيا والآخرة، فطلبوا إسقاط العذاب عليهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ ﴾ أو تُسقط يا محمد السماء كسفاً، أي قطعاً من العذاب. فالخطاب منهم موجه للنبي عليه الصلاة والسلام، بأن تُسقط علينا يا محمد قطعاً من السماء، أي: تُسقط السماء قِطَعاً من العذاب، قال مجاهد رحمه الله تعالى: أي: السماء جميعاً.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٥٧)

وقال قتادة رحمه الله تعالى: أي قطعاً[١] ويعنون بقولهم ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ كما ذكره الإمام الشوكاني هو قوله تعالى في سورة سبأ ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾[٢] وفي هذا تمادي في التكذيب إلى درجة أنهم لا يكترثون ولا يهتمون بالعذاب فيما لو وقع بهم، مما يبين مقدار تكبرهم وحسدهم إلى درجة الاستخفاف بالعذاب، وقبوله مقابل أن يحصل منهم التصديق والإيمان بمحمد رسولاً من الله تعالى. مما يبين أن الكبر والحسد مهلكة للإنسان، وجارف لصاحبه نحو المهالك، ومانع لصاحبه من قبول الحق، ولو فيه نجاته وخلاصه وصلاحه. بل من تماديهم أن انتقلوا إلى خيار رابع: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: فتأتي بالله تعالى وبالملائكة جميعاً، فنشاهدهم مقابلة ومعاينة، فيشهدون لك بما جئت به. وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى في ذلك قولين: الأول: حتى تأتي بالله والملائكة كل قبيلة منا قبيلة، قبيلة، فيعاينونهم. والقول الثاني: تأتي بالله والملائكة عياناً تقابلهم مقابلة، فنعاينهم معاينة[٣] وهذا زيادة في المبالغة والتحدي في الكفر. مما يوضح درجة الكبر والحسد، وأنها مهلكة للإنسان. مما يلزم الإنسان أن يتنبه لها، ويتعلم التواضع، ويعمل به في حياته.

ثم انتقلوا إلى خيار خامس: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: أن يكون لك بيت من ذهب، وهو الزخرف. ثم انتقلوا إلى خيار سادس: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فتعلو في السماء بالصعود إليها، وكلمة ﴿تَرْقَىٰ﴾ تعطي دلالة التدرج في الصعود، وهو الانتقال، كمن يصعد الدرج، وهذا العلو مشروط، فلن نصدقك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ ولن نصدقك حال صعودك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ حتى تنزل لنا من السماء منشوراً نقرأه في شأننا، بأن نتبعك ونؤمن بك، وهذا نوع من التنطّع والتجبر والتكبر، وإلا في القرآن العظيم ما يُوجب إيمانهم. وغالباً ما تكون هذه المطالب من الذين يريدون الانحراف بالعقول عن الحقية، وشدها إلى الباطل، واشغال الفكر بالباطل عن الحق والحقيقة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨١/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٥٨/٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٢/١٥-٨٣)

فيأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يَرُدُّ عليهم، وجاء النص الكريم بصيغة التعجب والإنكار على مطالبهم ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يقول لهم ﴿ قُلْ ﴾ قل لهم يا محمد ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ أي: أجب ورُدَّ عليهم بالتسبيح والتمجيد والتنزيه لله تعالى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ أنزه ربي عن مطالبكم، وتماديكم، وأنزه ربي من أن يكون لي من الأمر والقدرة ما هو لله تعالى.

ثم ينفي عليه الصلاة والسلام عن نفسه جميع ما يتجاوز بشريته وإنسانيته، ويعود بهم إلى الحقيقة التي يعرفونها عنه ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ سؤال تقريري، يقررهم بما يعرفون عنه صلى الله عليه وسلم من الحقيقة البشرية. فكيف تطلبون مني ما ليس لي به قدرة؟ فأنا بشر من البشر، غير أن رسول من الله تعالى، فلا أتصرف بما هو حق لله تعالى، فإن خصائص البشر هي التي تنطبق على إنسانيتي، وأن ما طلبتموه هو ملك لله تعالى، فإن الرسول بشر من جنسكم، ولكن يُوحَى إليه من الله تعالى بما يقوم به، مع الأدلة والبراهين والحجج التي تُثبت ذلك، وليس للعباد أن يشرطوا شروطاً على ربهم، ولا على نبيهم، وإلا لأصبح لكل أحد شروطه الخاصة به والمخالفة لغيره، ولأصبح الأمر فوضى بين الناس. ولكن دين وشَرْع الله تعالى وفق تدبيره، ووفق حكمته العظيمة، ووفق الحجج والبراهين التي يختارها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولعباده.

ثم يأتي المزيد من التعقيب الاستنكاري لمسلك الإنسان، وتمنّعِه عن قبول الحق ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فما الذي يمنع الناس عموماً، ومنهم أهل مكة على الخصوص من الإيمان بالقرآن المعجز، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ بعد أن وصلتهم هداية الله تعالى بالبراهين، وهو ما أوحاه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم. فما المانع لهم من الإيمان حين نزل عليهم الهدى؟ فيؤمنوا بالقرآن ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم. فإنه سؤال تعجب واستنكار لحال مَن كفر ولم يؤمن أمام هذا الهدى الواضح والمعجز، وهو سؤال يستثير العقول للتأمل والتفكر في جنوح هذا الإنسان للباطل، وترك الحق المبين. فما منعهم إلا استنكارهم من أن يكون الرسول من جنس البشر ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فهو سؤال استنكار من الكافرين على جنس الرسول. إذ منعهم ذلك من قبول الحق، مع قوة حجة التي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، من البراهين الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام. فتعجبهم لا يتجاوز كونه قولاً قالوه بأفواههم، منافياً للحقيقة التي أدركوها. فليس للعبد أن يحدد من يبعثه الله تعالى نبياً ورسولاً. مما يفيد إدراكهم للحقيقة، ولكن نتيجة لجحودهم وتكذيبهم،

بنو إنكارهم على قول قالوه افتراء وبهة، فهو مجرد قول، لا حقيقة له، ولكن ليتحقق به مآرب أخرى، وهو إشغال الناس عن الحق.

ويرد الله تعالى على استنكارهم بحقيقة التجانس بين الرسول والمرسل إليهم ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ فإن اشتراط الجنس بين الرسول والمرسل إليهم في غاية الأهمية، إذ كيف يفهمون ويتفهمون من غير جنسهم، فقد اقتضت حكمة الله تعالى وتدبيره أنه لو كان في الأرض ملائكة لأنزل عليهم ملائكة مثلهم. وفي هذا تصحيح لعقولهم. فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يوضح ويبين لهم ذلك ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ فلو كان هناك ملائكة يعيشون على الأرض مستقرين ومستوطنين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ فلكان الرسول من جنسهم، فننزل عليهم ملكاً من السماء، ليكون رسولاً إليهم، وذلك لوحدة الجنس، والقدرة على التعامل معهم في تطبيق الأحكام والممارسات التي تتوافق مع حال جنسهم. مما يبين حكمة الله تعالى، وكذلك أهمية التجانس، وأثره في التطبيق والممارسة، فلو كان الرسول من الملائكة، ثم عمل شيئاً يليق به، ومن خصائصه، لاستنكروا عليه ذلك، ولتعذر أن يقوم به الإنسان، للمفارقة بين الجنسين، وقالوا: لا يمكننا القيام بهذا، لقصور قدراتنا. وفي هذا دحر لحجتهم، وفي ذلك بيان لعناية الله تعالى في الإجابة عليهم، بأنه لم يتجاهلهم سبحانه وتعالى بالرغم من علمه عَزَّ وجل بأنهم معاندون جاحدون، مما يفيد أهمية مقارعة الباطل بالحجة، وعدم تجاهل أهله، وأن يكون مقارعة الباطل بالحجة الصحيحة الدَّامغة التي ينتفي بها الاعتذار منهم، كما أن في مقارعة الحجة بالحجة كشف الحقيقة للجاهل، وتنوير العقول بالحقائق، وتنمية الفكر حتى يواجه الباطل ولا يقبله.

ومن معجزات البيان الكريم توصيف الملائكة فيما لو كانوا يعيشون في الأرض بصفة المشي ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ أي متصفون بما هو متصف به البشر، من المشي على الأرجل. وكذلك صفة أخرى وهي ﴿مُطْمَئِنِّينَ ﴾ والطمأنينة تستدعي الإقامة والسكن والاستقرار في الأرض. وهما صفتان من صفات حال الإنسان في الأرض، فاحتجتم لمثلكم من البشر، كما احتاجت الملائكة لمثلهم من جنس الملائكة. وفي هذا بلاغة وقوة حجة، وإعجاز في المحاجة من جميع صورها.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمعاندين، أصحاب الاقتراحات ما يبين لهم أن الحق قد تبين لكم تماماً، وتكفي شهادة الله تعالى على الجميع، بما يعطي دلالة التحذير ﴿ قُلْ كَفَىٰ

بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ فإن الحجة قد اتضحت لكم، وليس للمحاج إلزام من قامت عليه الحجة بأن يقبل الحق وينصاع له، بل يكفي المواجهة والبيان. ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ فيكفيني ويسددني الله تعالى فيما أمرني به، فإن الله تعالى شاهد على إبلاغي لكم ما أُرسلت لكم به، ومن جميل البيان ودقائقه هو دلالة جملة ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ إذ لم يقل: بيننا، لوجود المفارقة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكافرين، وتحقيقاً لتلك المفارقة وإثباتاً له حتى في السياق، ليظهر دقة الإعجاز.

ثم علل الاكتفاء بأن الله تعالى خبير بصير ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ فإن الله تعالى عليم بعباده من جميع أحوالهم، سواء ما كان من ظواهرهم، أو ما كان من بواطنهم، ونواياهم ومقاصدهم، وما تضمره صدورهم، فلا يخفى عليه شيء منهم، وهو بصير بما كان منهم وما يكون.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ﴾ أي: أن الله تعالى موصوف بأنه جَلَّ جلاله ﴿ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ فهما صفتان ثابتتان لا تتغير. ومؤكداً ذلك بحرف **(إن)** الملتحق بضمير الجلالة ﴿إِنَّهُۥ﴾ وثبوت صفة ﴿ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ بحرف ﴿كَانَ ﴾ التي أفادت أنه منذ الأزل. وقد أعطت دلالة ﴿ خَبِيرَۢا ﴾ كمال العلم: فهو عَزَّ وجل العالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فهو الخبير بدقائق وحقائق الأشياء، والذي ليس مثله أحد في ذلك، مما يُوجب عليكم فهم واتباع ما وجهكم إليه، وأخبركم بما أنتم عليه من الحقائق. فاعبدوا ربكم، واتبعوا رسولكم الذي يرشدكم بإرشاد الخبير العليم. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فإنه هو الأعلم بمصالحكم، وهو الخبير بموضعها، مهما كان حال العباد، وفي أي موضع كانوا. وبالتالي فإنه يحصي عليكم دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزون على ذلك.

وأعطت دلالة ﴿بَصِيرٗا ﴾ أنه سبحانه وتعالى بصير بأعمالكم وأقوالكم، وبالتالي مراقب عليكم، فلا يخفى عن علمه شيء مما يكون منكم، ومن غيركم. فهو البصير بالعباد وما يصلح لهم، وهو الذي يعلم ما لا يعلم الإنسان من نفسه ومصالحه، وما هو كائن لعباده، وما يمكر به الماكرون، وهو الذي يدفع ويقطع ويمنع ما تكرهون. وبالتالي فأطيعوا ربكم وتوكلوا عليه، فإنه بصير بجميع خلقه. كما أن دلالة ﴿بَصِيرٗا ﴾ تجمع رؤية ربنا للعباد، وتجمع معها المعرفة بتدبير شؤون العباد، وما يصلح وما لا يصلح لهم. فيحقق لهم الخير إن كانوا مطيعين له سبحانه وتعالى، لأنه عَزَّ وجل بصير بما كان ويكون وبما سيكون، وبما عليه مستقبلهم قبل أن يكون. وهو

البصير بكيف يحقق لعباده ما يحتاجونه في كل شأن. فإن في دلالتها لطائف عظيمة كريمة، فسبحانه الله العظيم، الخبير البصير. اللهم وفقنا وسددنا.

ثم يخبر الله تعالى عن قدرته، وقوة سلطانه على خلقه ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ من يريد الله تعالى هدايته فهو المهدي إلى الحق، وإلى مطالب الخير والفلاح والصلاح ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يرد الله تعالى أن يضله عقوبة له بسبب كفره ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ فلن تجد لهم من يتولى نصرهم من مراد الله تعالى ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله عَزَّ وجل، وكل شيء هو دون الله عَزَّ وجل، لأن العلو في القدر والحكم والسلطان والقهر لله تعالى وحده لا شريك له، وغيره دونه.

وأما عذاب هؤلاء الغير مهتدين فهو كما قال تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ فإن الله تعالى يسارع بهم إلى جهنم، ففي دلالة حشرهم على وجوههم، ما يفيد الإسراع بهم، تقول العرب: قد مرَّ القوم على وجوههم: إذا أسرعوا، قاله ابن الأنباري[١] وتشمل دلالتها سحبهم على وجههم إلى النار يوم القيامة. ولا يمنع أن تجتمع الدلالتين في عذابهم، فيسحبون على وجوههم مسرعين بهم إلى النار يوم القيامة. وصفتهم أن انعدمت حواسهم ﴿عُمْيًا﴾ لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ فلا يتكلمون ولا ينطقون من هول ما يرون، ومن هول الذل الذي يعيشونه ﴿وَصُمًّا﴾ أي: لا يسمعون، وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما عن دلالة ﴿عُمْيًا﴾: فلا يرون شيئاً يسرهم، وقوله تعالى ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة، وقوله تعالى ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئاً يسرهم[٢] وقال رضي الله عنه في رواية: عمياً عن النظر إلى ما جعل الله تعالى لأوليائه، وبكماً عن مخاطبة الله تعالى، وصماً عما مُدح به أولياءه، وهذا قول الأكثرين[٣] وفي ذلك جمع بين دلالة هذه الآية، وبين ما أثبته عَزَّ وجل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٦٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٩٣-٩٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٦٤)

لهم من الرؤيا والسمع كقوله تعالى في سورة الكهف ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ وهذا جمع مناسب بين الحالتين. ولا يمنع أن تكون تلك حالات لهم، فيعيشونها في كل موضع بما يناسب حالهم من الهلع ومن الإهانة. فكما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فكان حالهم في الآخرة كحالهم في الدنيا، وهذه الهيئة القبيحة الشنيعة التي يبعثون عليها، مع سحبهم على وجوههم إلى النار هي من أقبح ما تكون عليه هيئتهم، وهم منقادون إلى جهنم ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي: أن مصيرهم ومسكنهم وإقامتهم الدائمة هي جهنم.

وأما حالهم في جهنم فهو ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ كلما سكن وخف لهبها زادها الله تعالى تأججاً بتوقد نارها، أي: زاد إيقادها واشتعالها، فتتأجج عليهم. ومن سعة دلالة النص الكريم هو استيعابه لأحوال يوم القيامة كما ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة، بعد الحشر الأول، قال مقاتل: هذا يكون حين يُقال لهم ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]ولا يمنع أن تكون تلك حالات لهم، فيعيشونها في كل موضع بما يناسب حالهم من الهلع ومن الإهانة.

ولما أخبر الله تعالى عن تلك العقوبة المخيفة، وأخبر عن هدايته عَزَّ وجل، وكذلك عن إضلاله لمن أراد، يخبر سبحانه وتعالى عن علة ذلك العذاب وأسبابه، ليتبين أن إضلالهم في الدنيا عقوبة، لقاء هذا السبب، وهو قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فإن عذاب الله تعالى لم ينشأ ظلماً عليهم بتلك الصورة المهينة والمشينة لهم، بل ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فقد حصل منهم التكذيب والإنكار بما أنزل الله تعالى، ومن تماديهم في ذلك أنهم أنكروا البعث بعد الموت، فأنكروا الحساب والجزاء، والجنة والنار، زاعمين استحالة عودة بناء الأجسام، بعد أن تبلى العظام، وتصير تراباً، واللحم يصبح رفاتاً تراباً ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ وهذا استنكار منهم بطريقة السؤال الذي يفيد أنهم يرونه مستحيلاً ومُستبعداً، فبنوا على هذا الاستنتاج وهذا القياس إنكار الإيمان بالبعث والحساب والجزاء. وهو استنكار من غير دليل، بل الدليل الواقعي يستنكر استنتاجهم، فإنه تَبِع ذلك الاستنتاج الكفر بالجنة والنار، فاستحقوا بذلك هذا

---

(١) سورة المؤمنون، آية (١٠٨)

العذاب الذي في الآية السابقة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ مما يبين أن قياس قدرة الله تعالى الخالق على قدرة الإنسان المخلوق إجحاف وجهل، ومهلكة، وأنه يترتب على ذلك منطلقات تؤدي بالإنسان إلى الهاوية. وأن واجب الإنسان أن يتأمل في خلق الكون كله، وكذلك في خلق الله تعالى له، ليدرك عظمة الخالق، فينتفي به القياس الباطل، فَيُجل ربه تبارك وتعالى وينزهه عن القصور والعجز والاستحالة.

ومن تأمل في وجود المخلوق من غير شيء، فإنه يدل على أنه قادر على إعادة هذا المخلوق كما كان، فليست الإعادة بمستحيلة على من أنشأ الخلق ابتداء، لينتفي بذلك الجهل المركب، من قياس قدرة الخالق على قدرة المخلوق، فهو حكم منافي تماماً للحقيقة. ولذلك أعادهم الله تعالى إلى ما يصحح أفهامهم، والارتقاء بعقولهم وتفكيرهم وقياساتهم، حتى ينتفي عنهم الجهل المركب المتولد من القياس الخاطئ، فقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ لفت سبحانه وتعالى عقولهم وتفكيرهم إلى ما يشاهدونه من خلق السماوات والأرض، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فالذي خلق هذه السماوات المرتفعة والعظيمة في هيئتها وشكلها وصورتها ولونها وبُعْدِهَا عن الأرض، وما فيها من النجوم والشمس والقمر والكواكب، وكذلك الأرض التي يمشون عليها، ويسعون فيها، وما أوجده فيها من الجبال والأودية والكثبان، والأنهار والمياه والزروع، أليس بقادر على إعادتهم، أليس أنه ﴿قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أليس الذي خلق تلك السماوات والأرض العظيمة المهيبة من العدم بقادر أن يفنيكم ويعيد خلقكم مرة أخرى من جديد؟ فالذي خلق الشيء من العدم، قادر على إعادة تكوينه مرة أخرى؟ والذي خلق ما هو أعظم من الإنسان وهي السماوات والأرض فإنه قادر بقدرته على إعادة عظام هذا الإنسان ورفاته، فالذي خلق العظيم من المخلوقات قادر على إعادة خلق الأدنى في الهيئة والمساحة والتكوين. فهو قياس يغرس الإيمان والتصديق لمن تأمل. إذ أنه دليل واضح على كمال القدرة، وانتفاء الاستحالة.

وكذلك يأتي قوله تعالى ﴿قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بمعنى: يفنيهم ويخلق غيرهم، فيكون الخلق بمعنى الاستبدال لهم. وهذا من غزارة السياق في استيعابه لكلا الدلالتين التي ذكرها أهل التفسير رحمهم الله تعالى.

وقد بدأت المعالجة لعقولهم ولعقول غيرهم بالاستفهام الإنكاري، والمتضمن للتعجب من فهمهم وقياسهم الفاسد، إذ في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ شد الانتباه، بتحريك البصر للنظر والتأمل، وشد بقية الحواس إلى السماء، وما فيها من عجائب خلقه وقدرته سبحانه وتعالى، وإلى الأرض وما يشاهدونه ويحسونه من الماء الذي ينزل من السماء، فشملت الرؤية: الرؤية البصرية بالبصر، ورؤية البصيرة بالتأمل والتفكر، وقد تقدم النص الكريم أداة الاستفهام المثيرة ﴿ أَوَلَمْ ﴾ مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من المغيبات، ليرتقي عقله في التحليل والاستنتاج. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ فمن كانت قدرته قد خلقت السماوات والأرض تشاهدونها أمامكم، وهي في غاية العظمة، فإنه من باب أولى أن يكون قادراً على إعادة الخلق بعد الفناء، فهو قادر على إعادة العظام واللحم الذي أصبح رفاتاً تراباً، فأين وجه الامتناع أمام عظمة كمال القدرة؟ بل إن وجه القدرة ظاهر متحقق، ووجه الاستحالة منعدم البتة. فقياسكم فاسد، بسبب فهمكم وتصوركم القاصر الفاسد.

فقد استنتجتم نتيجة فاسدة بناء على معادلة وتحليل فاسد من عند أنفسكم، فكان كفركم نتيجة لفساد معادلتكم الباطلة، مما يبين أهمية بناء العلم على مقدمات وحقائق صحيحة، ليحصل على نتائج صحيحة، وأن من أخطأ في التصور، يُخطِئ في التحليل، ثم يترتب عليه الخطأ في الاستنتاج، ثم يخطئ فيما يقرره. وهذا دليل على رقي منهج الإسلام في المعالجة، وفي المحاكمة وفق الدليل المشاهد والمحسوس، وأنه دين علم وعقل وحقائق، وليس دين جهل وأهواء وتخمينات فاسدة. وقد أثبت الله تعالى قدرته بالقياس على ما يرون من عظيم الخلق والتدبير الذي يؤكد أنه لا شيء مستحيل على الله تعالى، بأن يخلقهم بمثل ما كانوا عليه ﴿ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ مما يبين أهمية التأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى، فإنها تزيد من الإيمان بالغيب، وتوسع مساحة الفكر، وتجلي الجهل عن العقل، وتنمي القدرة على الاستنتاج، والاستنباط، واستعمال مكونات وأساليب الفهم، من القياس، والمقارنة، والاستدلال بالشيء على غيره، والاستدلال بدلالة المشاهد على ما يتعذر مشاهدته، وبالمحسوس على غير المحسوس، وغير ذلك من الأساليب التي توسع الفهم وتنمي العقل، وتوجهه إلى الحق والصواب، فترفع عنه الجهل، وسوء الفهم.

ثم يخبر الله تعالى أنه حدد لهم مهلة من الأجل ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فجعل سبحانه وتعالى لهؤلاء المشركين وقتاً محدداً لموتهم ولعذابهم، ولا شك ولا ريب أنه واقع بهم. وهذا الأجل آية لمن تأمل وتدبر، فكل أحد له أجل، لا يستطيع دفعه ولا تأخيره عن نفسه. فمن الذي حدد الآجال؟ مع عجز الإنسان

عن ذاته، ليدفع عن نفسه الأجل المحدد والمقدر من الله تعالى، مما يدل على عظمة وكمال قدرة الله تعالى، وعجز الإنسان حتى عن خاصة نفسه. فإن الله تعالى قد جعل لهؤلاء المنكرين أجلاً محدداً، ولو شاء الله تعالى لعجل لهم العقاب بالعذاب المهلك، وأخذهم قبل أجلهم الذي قرره لهم، بعد أن قامت الحجج والبراهين على البعث والحساب والجزاء. مما يبين حلم الله تعالى، وحكمته وتنظيمه، وتدبيره، فإن تأخير عذابكم ليس إلا بسبب ما حكم الله تعالى وقضى به من الأجل. وبالتالي فإن هذا الامتناع عن الإيمان بالبعث بعد الموت ما هو إلا عناد ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ فأبى الكافرون إلا جحود الحقيقة بالرغم من سطوع ظهورها وبيانها ووضوحها، فكفرهم هو كفر عناد وليس كفر جهل، فقد قامت عليهم الحجج والبراهين. وفي هذا انكار عليهم وتعجب من حالهم بعد هذه الحجج والبراهين، فمع علمهم ويقينهم إلا أنهم يأبون ويمتنعون عن الإيمان، والإصرار على إنكار البعث بعد الموت، فتحقق منهم الكفر صراحة وعناداً، بعد أن تحقق فيهم ما يُوجب الإيمان به، فاستمروا على كفرهم ولم يخرجوا عنه بهذه الأدلة والبراهين.

ثم يُفند الله تعالى شيئاً من تفكيرهم، لإظهار قصورهم، وقصور فهمهم القاصر ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ فيبين سبحانه ما فيهم من البخل الناجم عن قصور التفكير الذي يمنعهم من الإنفاق فيما لو تملكوا خزائن رحمة الله تعالى، على عظمتها وعدم نفادها، فإنه لقصور نظرهم وجهلهم يمسكون عن الإنفاق مخافة ذهاب وانتهاء ما ينفقون منه.

فورد البيان بتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿ قُل ﴾ أي: قل لهؤلاء المكذبين ﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ ﴾ فلو ملكتم ما يملكه الله سبحانه وتعالى من الخزائن ﴿ لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ فعلى عظمتها وكثرتها لأمسكتم عن الإنفاق من الخزائن بخلاً وشحاً وخوفاً من أن تحصل لكم الفاقة ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ أي وكان الإنسان الكافر بخيلاً ممسكاً عن الإنفاق، لانتفاء الإيمان عنده بأن الله تعالى هو الرازق المعطي. وقد صورت كلمة ﴿ قَتُورًا ﴾ شدة التضييق في الإنفاق نتيجة شدة البخل، للخوف من الفقر، والله تبارك وتعالى منزه عن ذلك، لأنه هو المالك الفعلي للخزائن، ولسمو قدرته ودقة علمه عَزَّ وجل، وعظيم حكمته، وإنفاذ إرادته، وعزة ملكه. وفي هذا كشف لحقيقتهم مع ما كانوا يطالبون به النبي صلى الله عليه وسلم فيما قاله الله سبحانه وتعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ فهم أشداء في بخلهم، حتى لو تملكوا خزائن أرزاق الله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان المزيد من الكشف عن قدرة الله تعالى، وعن مشابهة كفر هؤلاء المشركين في مكة بكفر فرعون ومن اتبعه من قومه، الذين جاءتهم تسع آيات بينات مع نبيهم موسى عليه السلام فكفر بها فرعون ومن معه. وفي هذا بيان للمشابهة في التكذيب. وكذلك فيه تهدئة وتطمين للنبي صلى الله عليه وسلم، بما كان من قوم موسى مع نبيهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات[١] وقال أكثر المفسرين: الآيات التسع، هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات[٢]وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة: هي: يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا القول، قال: وهذا القول ظاهر جلي، حسن قوي[٣] ومن أسباب الاختلاف هو جمع الآيتين أي المعجزتين في آية باعتبار وحدتها، فمثلاً جعل الحسن البصري: السنين ونقص الثمرات واحدة عنده[٤]وتحديد الآيات في تسع لا ينفي غيرها. فمن الآيات الأخرى: ضربه للحجر بالعصا، وخروج الماء عيونا، والغمام، والمن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٩٣-٩٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٦٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٧٠)

(٤) المرجع السابق (٣/٧٠)

والسلوى، وهذه كانت لمن مع موسى عليه السلام من بني إسرائيل، مما يشير إلى أن التسع هي العامة لفرعون وملئه وغيرهم.

فلقد أعطى الله تعالى موسى عليه السلام تسع آيات معجزات، تشهد على صِدْقِه، ودالة على نبوته. وفي علاقة ذكر الآيات المعجزة التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام بما سبق من السياق عن مطالبات كفار مكة للرسول صلى الله عليه وسلم ببعض المعجزات، ما يبين أنه حتى لو أُعطِيَ كفار قريش ما طلبوا لكان حالهم مثل حال فرعون وقومه من الإنكار والتكذيب والكفر، فالحاقد والحاسد والمتكبر المتغطرس لا يقبل إلا ما هو عليه من الباطل مهما كان الحق جلياً واضحاً أمامه، فقد صرف نفسه عن الحق تماماً، فذهنه وفكره معقود على انتصاره لما هو عليه من الباطل. وبما يفيد المشابهة في قوة ما أُعطي النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات بما أعطي موسى من قوة الحجة. فأولئك لم يؤمنوا، وكذلك أنتم مثلهم.

وقد بدأ السياق الكريم بأداة التحقق والتوكيد ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ ليفيد الجزم بما تضمنته الآية من القول الرباني الكريم، أنه ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ والتأكيد الثاني ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ فاسأل أيها النبي بني إسرائيل عندما جاء موسى عليه السلام بتلك البينات إلى فرعون، وهذا سؤال استشهاد، ومفاده تقرير كفر وعناد المشركين كما كان من فرعون وقومه، مع قوة البينات من الآيات المعجزات، وفي ذلك إلجاء مشركي قريش إلى الإقرار بذلك من خلال شهادة ما يعرفه بني إسرائيل من كتبهم عن فرعون وأسلافهم. ليعضده بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فيقررهم أيضاً بأن ما أُنزل إليهم هو من عند الله تعالى. إذ كيف يخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لا يعرفه إلا بنو إسرائيل. مما يدل على أن في تظافر الأدلة ما يقوي ويعزز إثبات الحق، ورفع مستوى الاستيثاق والطمأنينة، وتقوية الحجة، كما يدل هذا على علم بني إسرائيل بما حصل من أسلافهم في التوراة التي بين أيديهم. وفيه كذلك تعزيز لإرادة النبي صلى الله عليه وسلم فيما يواجه من تعنت قومه، فلست أيها النبي أول من يكذبه قومه، بل كان قبلك موسى عليه السلام. فإيمان قومك ليس متوقف على ما طلبوا من الآيات، فإن الجاحد يفتري الباطل على الحق، كما كان من فرعون وقومه الذين كذبوا بتلك الآيات العظيمة، التي كل آية تكفي عن غيرها.

فلما جاء موسى عليه السلام بالتسع الآيات كان رد فرعون ما بينه سبحانه وتعالى ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ فقد اتهمه بأنه مسحور بالسحر ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ أي أنك سُحرت، فأصبح تصرفك لا يتوافق مع العقلاء، وأن دعواك من التوحيد، ووجود الله تعالى، وما تَطْلُبُه منا لا يتوافق مع العقلاء، فوضع نفسه في موضع العقلاء الذين يحكمون على غيرهم، وأنزل من قدر موسى عليه السلام. فهي تهمة منه لموسى عليه السلام وللآيات، ومن وجه آخر تكون تهمة لموسى بأنه

ساحر، والآيات تبعاً لذلك هي سحر من عملك الذي تسحر به الناس، وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى الدلالتين: وأن المسحور هو: الذي سُحر فَخُولط عقله، وقال أبو عبيدة والفراء: هو بمعنى الساحر[1] ومنهج الجبابرة والطغاة أنهم يرمون الحق بالباطل حين يداهمهم الحق وتقوم عليهم الحجة، فإنهم يبادرون إلى التصدي له، وذلك رغبة منهم في تحقيق النصر. وفي هذا الوصف من فرعون لموسى بأنه ساحر، من أجل التهوين والاستخفاف، حتى يتعالى بها فرعون على موسى، ويشكك الناس في آيات موسى عليه السلام. وقد بنى فرعون قوله على الظن ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: لأحسبنك، وذلك بقصد التهمة، وتشكيك الغير في المعجزات، من الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام.

وفي مواجهة موسى عليه السلام لفرعون؛ يقرر له ولأتباعه بأنه يعرف ويقر بأن هذه الآيات هي معجزات من عند الله تعالى، وذلك لهولها وقوتها، وأن الإنسان والسحر لا يستطيعان إيقاعها في الواقع ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ وبدأ موسى عليه السلام بيانه بتقرير يقين فرعون عن تلك الآيات بأنها من عند الله تعالى، وذلك بأداة التأكيد والتحقق مع لام القسم ﴿ قَالَ لَقَدْ ﴾ وأردف ذلك بحصول اليقين بالفعل المادي ﴿عَلِمْتَ ﴾ بأنه حصل لك العلم واليقين الذي لا شك ولا مراء فيه، وهذا العلم هو ﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ أن الذي أنزل هذه الآيات المعجزات هو الله تعالى، ووصف موسى عليه السلام ربنا تبارك وتعالى بعظيم ملكه وقدرته، وبما يشاهده ويحسه فرعون وغيره من خلقه تبارك وتعالى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن الله تعالى هو رب السماوات والأرض، وخالقها، ومدبر شؤونها، وفي ذلك لفت الانتباه إلى عظيم خلق الله تعالى، وأنه لا أحد يستطيع أن يَدَّعي أنه خلق السماوات والأرض. فكما أنه يمتنع على كل أحد أن يدعي ذلك، فلماذا لا تقر بربوبيته وألوهيته عَزَّ وجل، وأنه مالك هذا الكون، مع علمك بحقيقة هذه الآيات المعجزة التي أنزلها الله تعالى، بل أورد سياق كلام موسى بأداة الحصر والقصر ﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا ﴾ لحصر وقصر يقين فرعون على أنه قد أدرك استحالة أن تكون هذه المعجزات من عند غير الله تعالى، فإنها محصورة ومقصورة على أنها من عند الله تعالى، إيجاداً وتدبيراً ﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ والذي توقن أنت في قرارة نفسك بأنه رب السماوات والأرض، بما يفيد أن إنكارك هو

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٦٣)

نكران جحود، وليس نكران جهل، بما يفيد أنك متعمد هذا الإنكار. مبيناً الهدف والغاية من هذه الآيات بأنها ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي: حجج وبراهين، وتدل كلمة ﴿بَصَآئِرَ﴾ على أن هذه الآيات التي أنزلت من عند الله تعالى تُبَصِّر الإنسان، ويتبصر بها الحق ويظهر جلياً، وبأنها من عند الله تعالى، وأن هذا نبيه ورسوله إليكم. إذ أنها ليست من مقدور الناس ولو اجتمعوا. وأن الله تعالى هو القادر والقاهر، وهو المشرع، وهو الذي يجب أن يُطاع.

ثم أصدر الحكم ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وإنني لأعتقد جازماً أنك يا فرعون ﴿مَثْبُورًا﴾ أي: هالك، ومغلوب، وخسران، وقد وردت كلمة ﴿مَثْبُورًا﴾ بصيغة الجزم الذي يفيد التحذير، فإنك هالك وخاسر لا محالة، بنكرانك وجحودك لآيات الله تعالى. وجاءت على وزن ما قاله فرعون لموسى عليه السلام ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ لتفيد مقارعة موسى لفرعون بالحجة والندية والمماثلة، مع عدم الخوف من ردة فعله، لمعرفة موسى عليه السلام بأنه على الحق المبين، ويقينه بأن الله تعالى ناصره، ومُخْذِل فرعون وأعوانه، ومُوقن بأن فرعون عالم بأن موسى عليه السلام على حق، وفيه بيان لشجاعته ورباطة جأشه عليه السلام.

ومن دقائق التوصيف أن فرعون استخدم لفظ الظن فيما وصف به موسى عليه السلام من السحر ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فبنى فرعون تهمته على الظن ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي لأحسبنك، بما يفيد الميل للسحر، وأجاب موسى بنفس اللفظة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ والظن في قول موسى لفرعون ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ يفيد اليقين والعلم، وليس الشك، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: الظن ها هنا: بمعنى العلم على خلاف ظن فرعون في موسى[1] وبلا ريب ولا شك فإن ظن الكافر في الحق يختلف ويُفارق ظن النبي والمؤمن في الباطل. فظن الكافر الذي يمثله فرعون في الحق هو تهمة وبهتان وافتراء وكذب، وظن موسى عليه السلام في فرعون وباطله هو حق، لأن موسى عليه السلام يحمل الحق المنافي للباطل، ويعرف الباطل ونتيجته، ولأنه نبي يُوحَى إليه من ربه تبارك وتعالى، فيكون ظنه علم ويقين بما وصف به فرعون المتلبس بالباطل.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٧/٥)

ثم يخبر الله تعالى بما كان من فرعون مع موسى ومن معه من المؤمنين ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ فعزم فرعون على أن يُعدمهم من أرض مصر بأسلوب الاستفزاز، وهو الإزعاج الذي لا يستطيعون الصبر عليه. فباشره الله تعالى بأسباب الغرق هو وجنوده ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ فاستدرجه الله تعالى وجنوده إلى البحر، جرياً وراء موسى ومن معه من بني إسرائيل، فأطبق الله تعالى عليهم البحر، فغرقوا جميعاً، بعد أن أنجى اللهُ تعالى موسى عليه السلام ومن معه. ليكون عبرة لكل ظالم، وأن الله تعالى لا يعجزه شيء، وأن مآل الظالم إلى الهلاك والثبور.

ثم يخبر الله تعالى بما حكم به للمؤمنين من بني إسرائيل، امتناناً وفضلاً عليهم، بتمكينهم من الأرض. فقال عزَّ وجل ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي: وقلنا لبني إسرائيل على لسان موسى من بعد إهلاك فرعون ومن معه بالغرق: ﴿ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: اسكنوا أرض مصر والشام ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم جميعاً من قبوركم إلى موقف الحساب والجزاء ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي: جميعاً مختلطين، أي: جماعات مختلطة. وفي هذا وعظ وتنبيه لهم، وكذلك تحذير من أن هذا المتاع إنما هو إلى حين، فهو إلى يوم القيامة، فإذا حُشر الناس ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أحضرناكم جميعاً، مسلمكم وكافركم، والمطيع والعاصي، والبر والفاجر، والظالم والمظلوم، ليقضي الله تعالى بين الجميع. واللفيف هو الجمع الكثير حال اختلاطهم، مما يبين تنوع هذا الاختلاط، للمطيع والعاصي.

وفي هذا امتنان عظيم من الله تعالى على بني اسرائيل بإنجائهم من فرعون وجنوده، وتمكينهم من الأرض، ومن فوائد الآية الكريمة كذلك أن على المستضعفين من المؤمنين ألا يصيبهم اليأس من أي حالة ومن أي موقف، فإن الله تعالى ناصر المؤمنين على الظالمين، فكما مَكَّن ربكم بني إسرائيل يمكنكم من الأرض. فإن من سنن الله تعالى إهلاك الظالمين، ونصر المستضعفين.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ

وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد عن خصائص وفضائل كتابه العظيم القرآن الكريم ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ فقد نوه وبين سبحانه وتعالى عن هذا الفضل للقرآن الكريم في عدد من الآيات الكريمة في هذه السورة، وقد جاءت العودة إلى هذا البيان العظيم عن القرآن الكريم مرة أخرى، بعد أن ذكر عَزَّ وجل ما يتعلق بموسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل. وقبله ما يتعلق بالمشركين، ليتبين أن القرآن العظيم متضمن لآيات مفصلات من الحجج والبراهين الدالة على أنه كتاب الله تعالى لعباده، والذي أنزله على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

وبدأت الآية الكريمة بتقرير الله تعالى: من أن نزول القرآن كان بالأمر الحق، والوحي الحق، وأنه متضمن للحق ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ فقد أضاف الإنزال إليه سبحانه وتعالى، بما يفيد عظمة هذا الكتاب، وذكر الإنزال بصيغة التفخيم والتعظيم ﴿أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي: أن نزول القرآن كان بالأمر الحق، والوحي الحق، وأنه متضمن للحق. وأن من عظمة هذا الكتاب هو افتقار العباد إليه، وأن جميع مضمونه حق، منافي ومجافي للباطل، وبما يفيد أن هذا القرآن كاشف للباطل، ومبيد له، فإن من سنن الله تعالى أن الحق يُبيد ويُزهق الباطل ويمحقه. وقد وصف الله تعالى إنزال القرآن من وجهين دقيقين، فذكر عَزَّ وجل الحق وإنزاله مرتين، وذلك بتكراره تكراراً مختلفاً في معناه وفي مبناه، لتظهر قمة الإعجاز الدلالي، وقوة البيان البلاغي في تراكيب ألفاظه ونسقه العظيم، وجزالة معانيه، وسعتها لكلام رب العالمين الرحمن الرحيم، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي: أن نزول القرآن كان بالأمر الحق، والوحي الحق، وأنه متضمن للحق. قال أبو سليمان الدمشقي: والمعنى: أنزلنا القرآن بالأمر الثابت، والدين المستقيم، فهو حق، ونزوله حق، وما تضمنه حق[1] ومتضمناً للحكمة الربانية التي اقتضت إنزاله.

ثم تكر النزول والحق بلفظ آخر ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ فإن القرآن نزل بالحق، فما تضمنه حق في ذاته، وحق فيما يهدي إليه ويأمر به وينهى عنه، وما يَعِدُ به، وما يزجر عنه، وبالتالي فإن مضمونه وهدفه وغايته

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٦٨)

إحقاق الحق الذي فيه صلاح ومصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة. وفي هذا الأسلوب ما يفيد قصر وحصر مضمون وغاية القرآن في الحق فقط، ونفي الباطل منه وعنه، سواء في مضمونه أو فيما يهدي إليه ويُرشد له، فليس فيه شيء من الباطل البتة، ولا في غايته وأهدافه شيء من الباطل.

ولما ذكر الله تعالى نزول القرآن، ومجدَّه بالحق إنزالاً وتنزيلاً، ذكر مَنْ نزل عليه الحق، ومهمته فيما نزل عليه، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ فمهمتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ تبشر الناس بما تضمنه القرآن من البشارة للمؤمنين بالجنة والمثوبة العظيمة من النعيم المقيم، والتوفيق في الدنيا، ونذيراً لمن كفر بالجزاء المهين، والعذاب الأليم، والقرار المقيم في نار جهنم وبئس المصير. وورد البيان بصيغة القصر والحصر، بأن مهمتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن، وأما وقوع الإيمان من العباد، أو البقاء على كفرهم فلست بمسؤول عنه، بما يرفع الحرج عن النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك ليبين لكل من يدعو إلى الله تعالى، أن مهمته تنحصر في الترغيب بالتبشير وبيان خير الإسلام وفضله، والإنذار من عذاب النار وبئس المصير لمن كفر فصد عن سبيل الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بكيفية نزول القرآن، وما أمر به عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم في منهجية قراءته على الناس ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ أي: قرأناً حكمناه وفصلناه، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً، وفصلناه قرآناً، وبيناه وأحكمناه لتقرأه على الناس على مُكث[1] فبدأت الآية الكريمة ببيان صفة هذا القرآن ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ أي: فصلناه، وبيناه، وفرَّقنا به بين الحق والباطل، لأن كلمة ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ تستوفي هذه المعاني، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أي: فَصَّلنَاه، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أي: بيناه، وعن الحسن، أي: فرق الله به بين الحق والباطل[2] ومن أوجه الاستيعاب، أنه حال قراءة كلمة ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ بالتشديد، أي وضع شدة على حرف الراء، فإنه يُعطي دلالة إضافية في المعنى، أي أنزلناه آية آية، ففي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً[3] وهذه من رحابة دلالات القرآن الكريم، ومن إعجاز بلاغته، ولهذا تعددت القراءات، فكان في تعددها منافع عظيمة، وإعجاز في فيض المعاني والدلالات.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٤/١٥)

(٢) المرجع السابق (١١٤/١٥-١١٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٢/٣)

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنهجية قراءة القرآن العظيم على الناس ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ فاقرأ القرآن على الناس ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولتكن صفة القراءة ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على مهل وتدرج وتُؤدة، لأن في قراءته على الناس على مُكْث ما يستدعي التأمل ويستثير التدبر في معانيه وغاياته، ومعجزات بيانه وألفظه، وسمو أهدافه وغاياته وأحكامه وتشريعه، وما فيه من عبر وقصص ومواعظ، وأحكام وتشريع تستدعي الفهم والتطبيق والتدرج ليحصل كمال الاستيعاب لعلوم القرآن العظيم. مما يعطي ويفيد أن من أهم غاية قراءة القرآن هو فهمه وتعلمه، وأن هذا لا يتأتى إلا بالتدرج في تعليمه، فيعطي قاعدة علمية في أهمية التدرج في التعليم، وأهمية تحقيق الهدف والغاية بما يلزمها من التدرج. ولذلك أنزله الله تعالى مفرقا ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: أنزلناه مفرقاً ومتدرجاً بحسب الحوادث ومقتضيات الأحوال. وكلمة ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ﴾ تفيد تعاقب التنزيل، لأنها تفيد تضاعف الفعل الذي هو الإنزال، فلم يكن إنزاله على النبي صلى الله عليه وسلم جملة واحدة، بل متدرجاً، ليتبين علة ذلك التدرج وهو ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ وتفيد جملة ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ التأكيد والمبالغة في النزول مفرقاً لتحقيق الهدف والغاية. مما يدل على أن الهدف والغاية مرتبط بالوسيلة والمنهجية في التعليم وفي الدعوة، وأن على الداعية لكتاب الله تعالى ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يراعي ذلك، وأن يلاحظ حال المدعوين، وأن يتعامل معهم بما يتطلب ويقتضي واقع الحال.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن أنكر القرآن وكفر به، بأن إيمانكم لا يزيد القرآن وجاهة ولا كمالاً، وأن كفركم به لا يُنقصه شيئاً، فليس لله حاجة فيكم ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يقول سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، خاطب هؤلاء الكفرة ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يا من أنكرتم وجحدتم القرآن العظيم، آمنوا بالقرآن، أو اجحدوا به، فإن إيمانكم لا يزيده نفعاً، كما أن تكذيبكم لا يُلحِق به ضرراً. بما يفيد استغناء القرآن عنكم، ولا حاجة له فيكم، وأن الحاجة لكم فيه ثابتة، فهو مصدر سعادتكم ونجاتكم في الدنيا والآخرة، فالخسارة لاحقة بكم أنتم. وفي هذا تحقير لهم، مع عدم الاكتراث بهم.

ثم علل عدم الاهتمام والاكتراث بهم، بقوله عزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ فالذين أوتوا العلم بالكتب السابقة، يُقبلون عليه، لما يعرفونه من الوعد ببعثة

النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما يعرفون من أن هذا الكلام هو كلام الله تعالى ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ فإذا تُلي القرآن عليهم، لا يتمالكون أنفسهم مما يصيبهم من الخشوع والرهبة من كلام الله تعالى، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ فيبادرون إلى السجود. وقد وصف الله تعالى سجودهم بأدق حالات الامتثال، فوصفهم بأنهم ﴿يَخِرُّونَ ﴾ وهي معبرة عن الهيئة والسرعة، لأن الخرور هو سقوط الجسم، مع سرعة التأثر والاستجابة، فليس هناك ثمة تفكير، بل إن القرآن واضح لهم أنه كلام الله تعالى، فحصل عندهم الخشوع الذي أسقط أجسامهم سجوداً لله تعالى، كما أعطت صفة ﴿لِلْأَذْقَانِ ﴾ عمق وقوة الخشوع، فسجودهم كان إلى أن أصبحت أذقان وجوههم منكبة على الأرض سُجَّداً لله تعالى، والأذقان هي: مجتمع اللحين، ووردت بصيغة الجمع، لتفيد التعظيم. كما أعطت صفة ﴿سُجَّدًا ﴾ أن الغاية من هذا الخرور للأذقان هو السجود لله تعالى، الذي يمثل الاعتراف، والتذلل، والخشوع، والاستسلام.

وقد ورد السجود بصيغة الجمع ﴿سُجَّدًا ﴾ جمع ساجد، لكثرتهم، وهو غاية الخضوع والتذلل. ويقولون في سجودهم ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ فتنطلق ألسنتهم بتنزيه وتعظيم الله تعالى، الذي أنزل القرآن العظيم، وتعظيماً وتنزيهاً عما يقوله الجاحدون. فجمعوا بين الفعل بالسجود، وبين القول بتنزيه وتعظيم الله تعالى ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ فيقرون بأن ما وعد الله تعالى به متحقق، سواء ما تحقق من بعثته صلى الله عليه وسلم التي وعد بها في كتبهم، أو ما وعد به من الحساب والجزاء والجنة والنار. فإن هؤلاء الذين أُوتوا العلم من قبل، قد شهدوا بفعلهم وقولهم على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وشهدوا على أن هذا القرآن الكريم حق من عند الله تعالى. وفي هذا مزيد من قيام الحجة على الجاحدين، فمالكم لا تؤمنون؟ فإنها حجة بالغة.

ثم يُخبر الله سبحانه وتعالى بالمزيد عن سجودهم وخشوعهم، وما وقر في قلوبهم من الايمان بالقرآن الكريم، وبرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ فقد اشتمل سجودهم على البكاء الدال على الخشوع، والشعور بالهيبة، مع الفرح والسرور بهذا الدين العظيم، والاستجابة له من غير تردد ولا تفكير، لأن التفكير أمام ثبوت الحق منتفي، ولا داعي له، بما يبين سرعة الإيمان، لقوة الحجة والآية.

ومن جميل الوصف لحالهم، هو تكرار ذكر الخرور مرتين، وتكرار صفة الخرور بأنه للأذقان ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ وفي هذا ثناء عليهم، وعلى إيمانهم، وإشادة بصنيعهم، وتزكية لصحة إيمانهم، وتوثيق لحالهم. وقد جمعوا بين البكاء وبين الخشوع ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ فالخشوع صفة وحال متعلقة بالقلب، وظاهره البكاء، بل وإن هذا القرآن يزيدهم خشوعاً، فهو خشوع ليس بمتوقف عندهم، بل إنه في زيادة وتكاثر، لما في القرآن من موجبات الخشوع. فدل البيان من الله تعالى على أن هؤلاء الذين أُوتُوا العلم من قبله، وهم أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، كانوا متصفين بالخشوع والعبادة، إذ أثبتها الله تعالى لهم بزيادة الخشوع عندما سمعوا القرآن العظيم، فزادهم خشوعا ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ فزيادة الخشوع تكون على الموجود عندهم. فإنها دقة في الوصف، وبلاغة في البيان. مما يدل على أن الذين يؤمنون بالقرآن وبرسوله صلى الله عليه وسلم هم أهل الإيمان، الذين صدقوا في إيمانهم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تصحيح فهم المشركين عن أسماء الله الحسنى، فقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً وهو يدعو، يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[1] قل يا أيها النبي لهؤلاء المشركين ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ توجهوا في دعائكم إلى الله بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ ﴾ أو ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ فكلاهما من أسماء الله عَزَّ وجل ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فبأي الأسماء دعوتم فإنما دعوتم إلهاً ورباً واحداً ﴿ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فإن لله تعالى الأسماء الحسنى، وبأي أسماء الله تعالى دعا الإنسان جاز ذلك، وبهذا نفى سبحانه وتعالى أن يكون شيئاً من أسمائه لا يليق بمقامه عَزَّ وجل، لينهاكم عنه.

ثم وَجَّه تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى مقدار الصوت الذي يُظهره في صلاته، أو دعائه. فقال تعالى ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ فالجهر هو ارتفاع الصوت، والإخفات هو الإسرار، بعدم إظهار الصوت، فوجَّه تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يبتغي بين هذين سبيلاً وطريقاً ومخرجاً، فيكون وسطاً، وذلك تجنباً لما من شأنه إثارة هيجان هؤلاء المشركين، فيزدادون نفوراً وتصلباً في عنادهم وكفرهم. ليتبين من ذلك أن مراد الله تعالى هو أن يرحمهم، إذ يتلطف بهم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/١٥)

حتى ينجون من العذاب، ويدخلون جنات النعيم، وهذا من فضله ورحمته عَزَّ وجل، فلم يعاندهم وهو ربهم ومالكهم، وهم عبيده، ليدل على عظمة رحمة الله تعالى بعباده حتى وهم على الباطل، فلعلهم يرجعون. وفيه مراعاة الطبيعة البشرية، بعدم استثارتها نحو الجنوح للاستعداء، مما يبين أن المنهج الدعوي في الإسلام يعالج النفور عن الدين بالحكمة، وبالترغيب، والعدول عن مناهج ومسالك التنفير، بل ولا يُظهر ما ينفرهم من دين الله تعالى، حتى يألفوه، لأن الجهل المركب يحتاج إلى التدرج في المعالجة، وأن على الداعية ألا يبدأ في الدعوة بما يكرهه المدعو ويستصعب تركه، بمثل ما جاء التدرج في تحريم الخمر. كما يحصل بهذا التوسط في الصوت عند الصلاة، باسماع القريبين من المؤمنين، فيزدادون علماً، والبعد عن إثارة المشركين. مما يبين أهمية الحكمة في معالجة الأمور، وأن العنف والشدة ليست هي الطريق لتحقيق المراد.

وبعد أن أثبت سبحانه وتعالى لذاته العظيمة كمال الأسماء الحسنى، بما ينفي كل اسم لا يليق بجلاله وعظمته، والتوسط في إظهار الصوت بالقرآن العظيم، يختم تبارك وتعالى سورة الإسراء بإثبات كمال العزة له جَلَّ جلاله، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ قل يا أيها الرسول الكريم: الحمد والثناء الكامل لله تعالى الذي تنزه عن الولد، والشريك، والذي استغنى بعزته وقوة سلطانه عن كل ولي ومعين، فبدأ التوجيه بكمال الحمد ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فالحمد الكامل الشامل هو لله وحده لا شريك له عَزَّ وجل، الموصوف بأنه ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ فليس لله تعالى ولد، فهو المستغني عن الولد، لعزته وكمال قدرته، وعدم حاجته لمعين ولا لوريث، فهو الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو القائم بما ملك، وإذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون كما أراد سبحانه وتعالى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ وليس معه شريك في ملكه، وفي ألوهيته وربوبيته، فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، والمنزَّه عن النقائص ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ وهو العزيز المستغني عن الناصر والمعين، لأنه عزيز فلا يحتاج إلى معين ولا إلى ناصر، ولأنه لا يلحق به ذُل ولا حاجة، فلا حاجة له في غيره. فهو المنفرد الغني عن غيره، وغيره مفتقر إليه. فهو خالق كل شيء، وربُّ كل شيء، ومدبر كل شيء. وله كمال العزة، وكمال السلطان، وهو القاهر فوق عباده، فلا حاجة له في ولد ولا شريك ولا نصير.

ثم يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يعظمه بالتكبير ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ فعظمه بالتكبير تعظيماً تاماً كاملاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وقد أضاقت لفظة ﴿ تَكْبِيرًۢا ﴾ ما يعطي ويفيد التوكيد، فتؤكد المأمور به وهو التكبير. وفي معنى تكبير الله تعالى: الجزم بأنه لا كبير غيره إلا هو عَزَّ وجل، وحصر كمال التكبير له جَلَّ جلاله، وكل شيء هو دونه جَلَّ في علاه. وهذا التوجيه وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه للمؤمنين

جميعاً، فأمته تابعة له، ومعه في الخطاب. مما يفيد أن على المؤمن أن يُجل الله تعالى في نفسه وقلبه وتصرفاته القولية والفعلية، بالثناء عليه عَزَّ وجل، والتوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وتمجيده بأفعاله، وتعظيمه بالعبادة والانقياد بالإخلاص له وحده لا شريك له، وإجلاله بالتعظيم والتسبيح والحمد والشكر والتكبير والثناء العظيم، فله المحامد كلها تبارك وتعالى. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرا.

تم بحمد الله إتمام سورة الإسراء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. واجعله عملاً متقبلاً ونافعاً يا رب العالمين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين.